

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء السابع

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه



منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي

قم - ايران ١٤٠٤ هـ.ق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

(٩٠)*

الأصل:

فَلَمَّا مَهَّدَ أَرْضَهُ، وَأَنْفَذَ أَمْرَهُ، اخْتَارَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خِيَرَةً[1] مِنْ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُ أَوَّلَ جِبِلَّتِهِ، وَأَسْكَنَهُ جَنَّتَهُ، وَأَرْغَدَ فِيهَا أُكُلَهُ، وَأَوْعَزَ إِلَيْهِ فِيمَا نَهَاهُ عَنْهُ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّ فِي الْإِقْدَامِ عَلَيْهِ التَّعَرُّضَ لِمَعْصِيَتِهِ، وَالْمُخَاطَرَةَ بِمَنْزِلَتِهِ؛ فَأَقْدَمَ عَلَى مَا نَهَاهُ عَنْهُ مُوَافَاةً لِسَابِقِ عِلْمِهِ. فَأَهْبَطَهُ بَعْدَ التَّوْبَةِ، لِيَعْمُرَ أَرْضَهُ بِنَسْلِهِ، وَلِيُقِيمَ الْحُجَّةَ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَلَمْ يُخْلِهِمْ بَعْدَ أَنْ قَبَضَهُ مِمَّا يُؤَكِّدُ عَلَيْهِمْ حُجَّةَ رُبُوبِيَّتِهِ، وَيَصِلُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ، بَلْ تَعَاهَدَهُمْ بِالْحُجَجِ عَلَى أَلْسُنِ الْخِيَرَةِ مِنْ أَنْبِيَائِهِ، وَمُتَحَمِّلِي وَدَائِعِ رِسَالَاتِهِ؛ قَرْناً فَقَرْناً؛ حَتَّى تَمَّتْ بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ حُجَّتُهُ، وَبَلَغَ الْمَقْطَعَ عُذْرُهُ وَنُذُرُهُ.

***

الشرح:

مهّد أرضه: سوّاها وأصلحها، ومنه المهاد وهو الفراش، ومَهَدْتُ الفراش، بالتخفيف مَهداً، أى بسطته ووطّأته. وقوله: «خِيَرَة من خَلْقه» على «فِعَلة»، مثل عِنَبَة، الاسم

(*) بقية الخطبة التسعين؛ وأولها فى الجزء السادس ص ٣٩٨

(١) مخطوطة النهج: «خيرة»، بالتسكين.

من قولك : اختاره الله ؛ يقال : محمد خِيْرَةُ الله من خلقه ؛ ويجوز : « خِيَرَةُ الله » بالتسكين ، والاختيار : الاصطفاء .

والجِبِلَّةُ : الخَلْق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴾(١) ، ويجوز « الجُبُلّة » ، بالضم ، وقرأبها الحسن البصري،وقرئ قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾(٢) على وجوه : فقرأ أهلُ المدينة بالكسر والتشديد ، وقرأ أبو عمرو : ﴿ جُبْلًا كَثِيرًا ﴾ مثل قُفْل، وقرأ الكسائي « جُبُلًا » كثيراً بضم الباء مثل « حُلُم » ، وقرأ عيسى بن عمر : ﴿ جِبِلًا ﴾ بكسر الجيم ، وقرأ الحسن وابن أبي إسحق : ﴿جُبُلًّا﴾ بالضم والتشديد .

قوله : « وأرْغَدَ فيها أُكْلَه » ، أي جعل أُكْلَه ـ وهو المأكول ـ رغداً ، أي واسعاً طيباً،قال سبحانه : ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾(٣)،وتقرأرغْداورغدابكسر الغين وضمها ، وأرْغَدَ القومُ : أخصبوا ، وصاروا في رَغَد من العيش .

قوله : «وأوعزإليه فيما نهاه عنه » ، أي تقدّم إليه بالإنذار(٤) ، ويجوز « وَعَّزَ إليه » بالتشديد توعيزاً ، ويجوز التخفيف أيضا وعز إليه وعْزا .

والواو في « وأعلمه » عاطفة على « وأوعز » ، لا على « نهاه » .

قوله : « موافاة لسابق علمه » لا يجوز أن ينتصب لأنه مفعول له ، وذلك لأنّ المفعول له يكون عذرا وعلة للفعل ، ولا يجوز أن يكون إقدام آدم على الشجرة لأجل الموافاة للعلم الإلٰهي السابق ، ولا يستمر ذلك على مذاهبنا ، بل يجب أن ينصب « موافاة » على

(١) سورة الشعراء ١٨٤ .
(٢) سورة يس ٦٢ .
(٣) سورة البقرة ٣٥ .
(٤) ب : « الإنذار » ، وما أثبته من ج ، د .

للمصدرية المحضة ؛ كأنه قال : فوافى بالمعصية موافاة ، وطابق بها « سابق العلم » مطابقة .

قوله : « فأهبطه بعد التوبة » ،قد اختلف الناس فى ذلك ، فقال قوم : بل أهبطه قبل التوبة ؛ ثم تاب عليه وهو فى الأرض . وقال قوم : تاب قبل الهبوط ، وهو قول أمير المؤمنين عليه السلام ، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾[1]،فأخبر عن أنه أهبطهم بعد تلقّى الكلمات والتوبة . وقال تعالى فى موضع آخر : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[2] . فبيّن أنّ اعترافهما بالمعصية واستغفارهما كانا قبل أمرهما بالهبوط . وقال فى موضع آخر : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ * قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾[3]؛ فجعل الإهباط بعد الاجتباء والتوبة ، واحتجّ الأولون بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ، وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ * فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾[4]،قالوا : فأخبر سبحانه عن أمره لهم بالهبوط عقيب إزلال الشيطان لهما ، ثم عقّب الهبوط بفاء التعقيب فى قوله : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ ، فدلّ على أنّ التوبة بعد الهبوط .

---

(١) سورة البقرة ٣٧ ، ٣٨
(٢) سورة الأعراف ٢٢ - ٢٤
(٣) سورة طه ١٢١ - ١٢٣
(٤) سورة البقرة ٣٥ - ٣٨

ويمكن أن يجابَ عن هذا فيقال : إنّه تعالى لم يقل : «فقلنا اهبطوا» بالفاء، بل قال: ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا ﴾ بالواو ، والواو لا تقتضى الترتيب، ولو كان عوّضها فاء لكانت صريحة فى أنّ الإهباط كان عقيب الزلّة ؛ فأمّا الواو فلا تدلّ على ذلك ؛ بل يجوز أن تكون التوبة قبل الإهباط ، ويخبر عن الإهباط بالواو قبل أن يخبرَ عن التوبة .

قوله عليه السلام : « وَلِيُقِيمَ الحجّةَ على عباده » ، أى إذا كان أبوهم أخرج من الجنة بخطيئة واحـدة فأخْلِقْ بها ألّا يدخلها ذو خطايا جَمّة ؛ وهـذا يؤكّد مذهب أصحابنا فى الوعيد .

ثم أخبر عليه السلام أنّ البارئ سبحانه ما أخلى عباده بعد قبض آدم وتوفيه عما يؤكّد عليهم حجج الربوبية ، بل أرسل إليهم الرسل قَرْنا فقرنا، بفتح القاف ؛ وهو أهل الزمان الواحد ، قال الشاعر :

إذا مَاتقضى القَرْنُ الّذِى أنْتَ فِيهِمُ وَخُلِّفْتَ فِى قَرْنٍ فَأَنْتَ غَرِيبُ[1]

وتعاهدَهُم بالحجج ، أى جَدّد العهد عندهم بها ؛ ويروى « بل تَعَهّدَهم » بالتشديد، والتعهّد : التحفّظ بالشىء ؛ تعهّدْتُ فلانا وتعهّدت ضيْعتى؛ وهو أفصح من « تعاهدت » لأنّ التفاعل إنما يكون من شيئين ؛ وتقول : فلان يتعهده صَرْعٌ .

قوله : « وبَلَغَ المقطعَ عُذْرُه ونُذُرُه » ، مقطع الشىء حيث ينقطع ، ولا يبقى خلفه شىء منه، أى لم يزل يبعث الأنبياء واحدا بعد واحد، حتى بعث محمدا صلى الله عليه وآله؛ فتمّتْ به حجته على الخلق أجمعين . وبلغ الأمرُ مقطعه ، أى لم يبق بعده رسول ينتظر ؛

---

(١) البيت فى اللسان ١٧ : ٢٢٣ .

وانتهت عُذر الله تعالى ونُذُره ، فعذرُه ما بيَّن للمكلَّفين من الإعذار فى عقوبته لهم إنْ عَصَوْه ، ونُذُره ما أنذرهم به من الحوادث ، ومَنْ أنذرَهُمْ على لسانه من الرسل .

* * *

[القول فى عصمة الأنبياء]

واعلم أن المتكلمين اختلفوا فى عصمة الأنبياء ؛ ونحن نذكر هاهنا طَرَفاً من حكاية للمذاهب فى هذه المسألة على سبيل الاقتصاص ونقل الآراء ؛ لا على سبيل الحِجاج ؛ ونخصّ قصة آدم عليه السلام والشجرة بنوع من النظر ؛ إذ كانت هذه القصة مذكورةً فى كلام أمير المؤمنين عليه السلام فى هذا الفصل ؛ فنقول :

اختلف الناس فى المعصوم ما هُوَ ؟ فقال قوم : المعصوم هو الذى لا يمكنه الإتيان بالمعاصى ؛ وهؤلاء هم الأقلّون أهل النظر ؛ واختلفوا فى عدم التمكّن كيف هو ؟ فقال قوم منهم : المعصوم هو المختصُّ فى نفسه أو بدنه أو فيهما ، بخاصيّة تقتضى امتناع إقدامه على المعاصى .

وقال قوم منهم : بل المعصوم مساوٍ فى الخواصّ النفسية والبدنية لغير المعصوم . وإنما العصمة هى القدرة على الطاعة أو عدم القدرة على المعصية ، وهذا قولُ الأشعرىّ نفسه ؛ وإن كان كثير من أصحابه قد خالفه فيه .

وقال الأكثرون من أهل النظر : بل المعصوم مختار متمكّن من المعصية والطاعة .

* * *

وفسروا العصمة بتفسيرين :

أحدهما : أنها أمورٌ يفعلها الله تعالى بالمكلّف فتقتضى ألّا يفعل المعصية اقتضاء

غير بالغ إلى حدّ الإيجاب ، وفسّروا هذه الأمور فقالوا : إنها أربعة أشياء : أوّلها أن يكون لنفس الإنسان مَلَكَةٌ مانعة من الفجور ، داعية إلى العفّة ؛ وثانيها العلم بمثالب المعصية ومناقب الطاعة . وثالثها تأكيد ذلك العلم بالوحي والبيان من الله تعالى . ورابعها أنه متى صَدَر عنه خطأ من باب النسيان والسهو لم يترك مهملا بل يعاقب وينبه ويضيّق عليه العذر ؛ قالوا : فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان الشخص معصوما عن المعاصي لا محالة ، لأنّ العِفّة إذا انضاف إليها العلمُ بما في الطاعة من السعادة وما في المعصية من الشقاوة ؛ ثم أكّد ذلك تتابع الوحي إليه وترادُفه ، وتظاهر البيان عنده ، وتمّ ذلك خوفُه من العتاب على القدر القليل ، حصل من اجتماع هذه الأمور حقيقة العصمة .

وقال أصحابنا[1] : العصمة لطف يمتنع المكلّف عند فعله من القبيح اختيارا ، وقد يكون ذلك اللطف خارجا عن الأمور الأربعة المعدودة ، مثل أن يعلم الله تعالى أنه إنْ أنشأ سحابا ، أو أهبّ ريحا ، أو حرّك جسما ، فإن زيدا يمتنع عن قبيح مخصوص اختيارا ، فإنّه تعالى يجب عليه فعل ذلك ، ويكون هذا اللطف عصمة لزيد ، وإن كان الإطلاق المشهور في العصمة إنما هو لمجموع ألطاف يمتنع المكلّف بها عن القبيح مدة زمان تكليفه .

وينبغي أن يقع [الكلام[2]] بعد هذه المقدمة في ثلاثة فصول :

* * *

الفصل الأول

في حال الأنبياء قبل البعثة ومَن الذي يجوزُ أن يرسله الله تعالى إلى العباد

فالذي عليه أصحابُنا المعتزلة رحمهم الله ، أنه يجب أن ينزّه النبيّ قبلَ البعثة عما كان فيه تنفيرٌ عن الحقّ الذي يدعو إليه ، وعمّا فيه غضاضة وعيب .

(١) هو التفسير الثاني للعصمة . (٢) تكملة من ح ، ء .

فالأول نحو أن يكون كافراً أو فاسقاً ، وذلك لأنّا نجد التائب العائد إلى الصلاح بعد أن عهد الناسُ منه السُّخف والمجون والفِسق ، لايقع أمرُه بالمعروف ونهيه عن المنكر عند الناس موقعهما ممن لم يعهدوه إلّا على السَّداد والصلاح .

والثانى نحو أن يكون حَجّاماً أو حائكاً أو محترفاً بحرفة يَنفِرُها الناس ، ويستخِفُّون بصاحبها ، إلا أن يكون المبعوثُ إليهم على خلاف ماهو المعهود الآن ، بألّا يكون من تعاطى ذلك مستهاناً به عندهم .

ووافق أصحابَنا فى هذا القول جمهورُ المتكلمين .

وقال قوم من الخوارج : يجوز أن يبعث الله تعالى مَنْ كان كافراً قبل الرسالة ، وهو قول ابن فُورك [1] من الأشعرية ، لكنه زعم أن هذا الجائز لم يقع .

وقال قوم من الحَشَوية : قد كان محمد صلى الله عليه وآله كافراً قبل البعثة ، واحتجُّوا بقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ [2] وقال بُرغوث المتكلم ، وهو أحد النَّجّارية [3] : لم يكن النبى صلى الله عليه وآله مؤمناً بالله قبل أن يبعثه ، لأنه تعالى قال له : ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ [4] .

وروى عن السُّدِّىّ فى قوله تعالى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ [5] ، قال : وزره : الشرك ، فإنه كان على دين قومه أربعين سنة .

وقال بعض الكَرّامية [6] فى قوله تعالى حكاية عن إبراهيم صلى الله عليه وآله ،

(١) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك ؛ الأديب المتكلم الواعظ ؛ ترجم له ابن عساكر فى كتابه تبيين كذب المفترى ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

(٢) سورة الضحى ٦ .

(٣) النجارية أصحاب الحسين بن محمد النجار ؛ ومحمد بن عيسى الملقب ببرغوث من رجالهم ؛ وانظر الشهرستانى ١ : ٨١ ، ٨٢ .

(٤) سورة الشورى ٥٢ .

(٥) سورة الشرح ٢ .

(٦) الكرامية ؛ أصحاب أبى عبد الله محمد بن كرام ؛ وانظر تفصيل آرائهم فى الشهرستانى ١ : ٩٩ — ١٤٠ .

﴿قال أسلمت﴾ (١) : إنه أسلم يومئذ ، ولم يكن من قبل ذلك مسلماً ، ومثل ذلك ، قال اليمان بن رباب ، متكلّم الخوارج .

وحكى كثير من أرباب المقالات من شيخنا أبي الهذيل وأبي علىّ جواز أن يبعث الله تعالى من قد ارتكب كبيرة قبل البعثة ، ولم أجد فى كتب أصحابنا حكاية هذا المذهب عن الشيخ أبي الهُذَيل ، ووجدتُهُ عن أبي علىّ ، ذكره أبو محمد بن مَتَوَيْهِ فى كتاب « الكفاية » ، فقال : منع أهلُ العدل كلُّهم من تجويز بعثة مَنْ كان فاسقاً قبل النبوّة إلا ماجرى فى كلام الشيخ أبي علىّ رحمه الله تعالى من ثُبوت فَصْل بين البعثة وقبلها ، فأجاز أن يكون قبل البعثة مرتكباً لكبيرة ثم يتوب ، فيبعثه الله تعالى حينئذ ، وهو مذهب محكىّ عن عبد الله بن العباس الرّامَهُرْمزىّ .

ثم قال الشيخ أبو محمد رحمه الله تعالى : والصحيح من قول أبي علىّ رحمه الله تعالى مثل مااختاره من التّسوية بين حال البعثة وقبلها فى المنع من جواز ذلك .

وقال قوم من الأشعرية ومن أهل الظاهر وأرباب الحديث : إن ذلك جائز واقع ، واستدلّوا بأحوال إخوة يوسف . ومنع المانعون من ذلك من ثبوت نبوّة إخوة يوسف ، ثم هؤلاء المجوزون ، منهم من جوّز عليهم فعل الكبائر مطلقاً ، ومنهم مَنْ جوّز ذلك على سبيل النُّدْرة ثم يتوبون عنه ، ويشتهر حالهم بين الخلق بالصلاح ، فأمّا لو فرضنا (٢) إصرارهم على الكبائر بحيث يصيرون مشهورين بالفسق والمعاصى ، فإنّ ذلك لا يجوز ، لأنه يفوّت الغرض من إرسالهم ونبوّتهم على هذا التقدير .

وقالت الإمامية : لايجوز أنْ يبعث الله تعالى نبياً قد وقع منه قبيح قبل النبوة ،

---

(١) من قوله تعالى فى سورة البقرة ١٣١ : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

(٢) ب : « لو فرض » ، وما أثبته من ج ، د .

لا صغيرا ولا كبيرا، لا عمدا ولا خطأ، ولا على سبيل التأويل والشبهة؛ وهذا المذهب مما تفردوا به؛ فإن أصحابنا وغيرهم من المانعين للكبائر قبل النبوة، لم يمنعوا وقوع الصغائر منهم إذا لم تكن مسخّفة منفرة.

أطردت الإمامية هذا القول فى الأئمة فجعلت حكمهم فى ذلك حكم الأنبياء فى وجوب العصمة المطلقة لهم قبل النبوة وبعدها.

* * *

الفصل الثانى

فى عصمة الأنبياء فى زمن النبوة عن الذنوب فى أفعالهم وتروكهم
عدا ما يتعلق بتبليغ الوحى والفتوى فى الأحكام

جوّز قوم من الحشوية عليهم هذه الكبائر وهم أنبياء؛ كالزنا واللواط وغيرهما، وفيهم مَنْ جوز ذلك بشرط الاستسرار دون الإعلان، وفيهم مَنْ جوّز ذلك على الأحوال كلها.

ومنع أصحابنا المعتزلة من وقوع الكبائر منهم عليهم السلام أصلاً، ومنعوا أيضا من وقوع الصغائر المسخّفة منهم، وجوّزوا وقوع الصغائر التى ليست بمسخّفة منهم، ثم اختلفوا فمنهم مَنْ جوّز على النبىّ الإقدام على المعصية الصغيرة غير المسخّفة عمْداً[١]؛ وهو قول شيخنا أبى هاشم رحمه الله تعالى؛ فإنه أجاز ذلك وقال: إنه لا يقدم عليه السلام على ذلك إلا على خوف وَوَجَل، ولا يتجرأ على الله سبحانه.

ومنهم مَنْ منع مَنْ تعمّد إتيان الصغيرة، وقال: إنهم لا يقدمون على الذنوب التى يعلمونها ذنوباً، بل على سبيل التأويل ودخول الشبهة؛ وهذا قول أبى على رحمه الله تعالى.

(١) كذا فى ج، د، وفى ب: «عملا».

وحُكِيَ عن أبي إسحاق النظام وجعفر بن مبشّر، أنّ ذنوبهم لا تكون إلّا على سبيل السّهو والنسيان، وأنّهم مؤاخذون بذلك وإن كان موضوعا عن أممهم، لأنّ معرفتهم أقوى، ودلائلهم أكثر، وأخطارهم أعظم؛ ويتهيّأ لهم من التحفّظ مالا يتهيّأ لغيرهم.

وقالت الإماميةُ: لا يجوزُ عليهم الكبائر ولا الصغائر، لا عمداً ولا خطأ، ولاسهواً، ولاعلى سبيل التأويل والشبهة؛ وكذلك قولهم في الأئمة؛ والخلاف بيننا وبينهم في الأنبياء يكاد يكون ساقطاً، لأنّ أصحابنا إنّما يجوّزون عليهم الصغائر، لأنه لا عقابَ عليها؛ وإنما تقتضي نقصان الثواب المستحقّ على قاعدتهم في مسألة الإحباط، فقد اعترف إذاً أصحابنا بأنّه لا يقع من الأنبياء ما يستحقون به ذمّا ولا عقابا؛ والإمامية إنّما تنفي عن الأنبياء الصغائر والكبائر، من حيث كان كلُّ شيء منها يستحق فاعلُه به الذمّ والعقاب، لأنّ الإحباط باطل عندهم؛ فإذا كان استحقاقُ الذمّ والعقاب يجب أن ينفى عن الأنبياء، وجب أن يُنْفَى عنهم سائر الذنوب، فقد صار الخلافُ إذاً متعلّقا بمسألة الإحباط، وصارت هذه المسألة فرعا من فروعها.

* * *

واعلم أن القول بجواز الصّغائر على الأنبياء بالتأويل والشبهة على ماذهب إليه شيخنا أبو عليّ رحمه الله تعالى؛ إنما اقتضاه تفسيرُه لآية آدم والشجرة، وتكلّفه إخراجها عن تعمّد آدم العصيان، قال: إنّ آدم نُهِيَ عن نوع تلك الشجرة لا عن عينها، بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، وأراد سبحانه نوعَها المطلق، فظن آدم أنه أراد خُصوصيّة تلك الشجرة بعينها؛ وقد كان أشير إليها فلم يأ كل منها بعينها، ولكنه أ كل من شجرة أخرى من نوْعِها، فأخطأ في التأويل. وأصحاب شيخنا أبي هاشم لا يرضون هذا المذهب، ويقولون إنّ الإشكال باقٍ بحاله، لأن آدم أخلّ بالنظر على

هذا القول في أن المنهيّ عنه : هل هو عينُ الشجرة أو نوعها ؟ مع أنه قد كان مدلولا على ذلك ، لأنه لو لم يكن مدلولا على ذلك لـكانَ تـكليفُ الامتناع عن التناول تـكليف مالا يطاق ، وإذا دلّ على ذلك وجب عليه النظر ؛ ولا وَجْه يجب النظر لأجله إلا الخوف من تركه ؛ وإذا لم يكن بد من كونه خائفا فهو عالم إذاً بوجوب هـذا التأمل والنظر ؛ فإذا أخلّ به فقد وقعت منه المعصية مع علمه .

وكما لا يرضى أصحابُ شيخنا أبي هاشم هـذا المذهب ؛ فكذلك لا يرتضُون مذهب النّظّام وجعفر بن مبشّر ؛ وذلك لأنّ القول بأنّ الأنبياء يؤاخذون على مايفعلونه سهوا متناقض ؛ لأنّ السهو يُزيل التـكليف ، ويخرج الفعل من كونه ذنبا مؤاخذا به ؛ ولـهذا لايصح مؤاخذة المجنون والنائم ، والسهو في كونه مؤثرا في رفع التكليف جارٍ مجرى فقد القُدَر والآلات والأدلة ؛ فلو جاز أن يخالف حالُ الأنبياء حالَ غيرهم في صحة تـكليفهم مع السهو ، جاز أن يخالف حالهم حالَ غيرهم في صحّة التـكليف مع فقد القُدَر والآلات ؛ وذلك باطل .

• • •

واعلم أنّ الشريف المرتضى ـ رحمه الله تعالى ـ قد تـكلّم في كتابه المسمى « تنزيه الأنبياء والأئمة » على هذه الآية ، وانتصر لمذهب الإمامية [فيها][1] ، وحاول صَرْفها عن ظاهرها ، وتأوّلَ اللفظ بتأويلٍ مستـكرَه غير صحيح ؛ وأنا أحكي كلامه هاهنا وأتكلّم عليه نُصرةً لأصحابنا ، ونصرةً أيضا لأمير المؤمنين عليه السلام ؛ فإنه قد صرّح في هذا الفصل بوقوع الذنب من آدم عليه السلام ، ألا ترى إلى قوله : « والخاطر بمنزلته » ؛ وهل تكون هذه اللفظة إلا في الذنب ! وكذلك سياقة الفصل من أوّله إلى آخره ؛ إذا تأمله المنصف واطّرح الهوى والتعصب . ثم إنا نذكر [كلام][2] السيد الشريف المرتضى رحمه الله تعالى ، قال رحمه الله تعالى :

(١) تـكملة من ح ، د .

أما قوله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ ﴾ فإنّ المعصية مخالفة للأمر[١] ، والأمر من الحكيم تعالى قد يكونُ بالواجب وبالندب معا ؛ فلا يمتنع على هذا أن يكون آدم مندوبا إلى ترك التّناول من الشجرة ، فيكون بمواقعتها تاركاً فرضاً ونفلا ، وغير فاعل قبيحا ، وليس يمتنع أن يسمّى تارك النفل عاصياً ، كما يُسمّى بذلك تارك الواجب ، فإنّ تسمية من خالف ما أمر به سواء كان واجبا أو نفلا بأنه عاص ظاهر ، ولهذا يقولون : أمرتُ فلانا بكذا وكذا من الخير فعصاني وخالفني ، وإن لم يكن ما أمر به واجباً[٢] .

يقال له : الكلام على هذا التأويل من وجوه :

أولها أنّ ألفاظ الشّرع يجب أن تُحمل على حقائقها اللّغوية ما لم يمكن لها حقائق شرعية ، فإذا كان لها حقائق شرعية وجبَ أن تُحمل على عُرْف الشّرع واصطلاحه ، كالصلاة والحجّ والنفاق والكفر ، ونحو ذلك من الألفاظ الشّرعية ، وهكذا قال السيد المرتضى رحمه الله تعالى في كتابه في أصول الفقه المعروف " بالذّريعة " في باب كون الأمر للوجوب وهو الحق الذي لا مندوحة عنه . وإذا كان لفظُ العصيان في الاصطلاح الشرعيّ موضوعا لمخالفة الأمر الإيجابيّ لم يجُز العدول عنه وحمله على مخالفة النّدْب .

ومعلوم أنّ لفظ العصيان في العُرْف الشرعيّ لا يطلق إلا على مخالفة الأمر المقتضي للوجوب ، فالقول بجواز حملها على مخالفة الأمر الندبيّ قول نبطله وتدفعه تلك القاعدة المقرّرة التي ثبتت بالاتفاق وبالدليل ، على أنّنا قبل أن نُجيبَ بهذا الوجه نمنع أصلاً أنه يجوز أن يقال لتارك النفل : إنّه عاص ، لا في أصل اللغة ، ولا في العُرْف ، ولا في الشرع ، وذلك لأنّ حقيقة النفل هو ما يقال فيه للمكلّف : الأولى أن تفعلَ هذا ، ولكَ ألا تفعله ، ومعلوم أنّ

---

(١) العبارة في كتاب تنزيه الأنبياء بعد ذكر الآية « ... قالوا : وهذا تصريح بوقوع المعصية التي لا تكون إلا قبيحة ! وأكده بقوله : « فغوى » والغي ضد الرشد . الجواب : يقال لهم : أما المعصية ... » .

(٢) تنزيه الأنبياء ٩ .

تاركاً مثل ذلك لا يطلق عليه أنه عاص ؛ ويبين ذلك أن لفظ « العصيان » فى اللغة موضوع للامتناع ؛ ولذلك سُمِّيت العصا عصاً ، لأنه يُمتنع بها ؛ ومنه قولهم : قد شق العصا ، أى خرج عن الربقة الجامعة من الاختلاف والتفرق ، وتارك الندب لا يمتنع من أمر ، لأنّ الأمر الندبىّ لا يقتضى شيئا اقتضاء اللزوم ، بل معناه إن فعلت فهو أولى ؛ ويجوز ألّا تفعل ، فأىّ امتناع حدث إذا خولف أمر الندب سمى المخالف له عاصيا ، ويبين ذلك أيضا أنّ لفظ « عاص » اسم ذمّ ، فلا يجوز إطلاقه على تارك الندب : كما لا يسمّى فاسقاً ؛ وإنْ كان الفسق فى أصل اللغة الخروج .

ثم يُسأل المرتضى رحمه الله تعالى عمّا سأل عنه نفسه ، فيقال له : كيف يجوز أن يكون تركُ الندب معصية ؟ أو ليس هذا يوجب أن يوصف الأنبياء بأنهم عصاة فى كل حال ، وأنهم لا ينفكّون عن المعصية ؛ لأنهم لا يكادون ينفكّون من ترك الندب[1] ؟!

وقد أجاب رحمه الله تعالى عن هذا ، فقال : وَصْف تارك النَّدْب بأنه عاص توسّع وتجوّز ، والمجاز لا يقاسُ عليه ، ولا يعدّى عن موضعه . ولو قيل إنه حقيقة فى فاعل القبيح ، وتارك الأولى [والأفضل][2] لم يجز إطلاقه فى الأنبياء إلا مع التقييد ، لأنّ استعماله قد كثُر فى فاعل القبائح ، فإطلاقه من التقييد مُوهِم .

لكنا نقول : إن أردت بوصفهم بأنهم عصاة أنهم فعلوا القبيح ، فلا يجوز ذلك ، وإنْ أردت أنهم تركوا مالو فعلوه لاستحقُّوا الثواب ؛ ولكان أوْلى ، فهم كذلك .

كذلك يقال له : ليس هذا من باب القياس على المجاز الذى اختلف فيه أربابُ أصول الفقه ؛ لأن مَنْ قال : إذا ترك زيد الندب ؛ فإنه يسمّى عاصيا ؛ يلزمه أن يقول : إن عمْرا إذا ترك الندب يسمى عاصيا ؛ وليس هذا قياسا ، كما أنّ من قال لزيد البليد : هذا

---

(١) تنزيه الأنبياء ١٠ .

(٢) من تنزيه الأنبياء .

حمار ، قال لعمرو البليد : هذا حمار ، والقياس على المجاز الذى اختلف الأصوليون فى جوازه خارج عن هذا الوضع .

ومثال المسألة الأصولية المختلف فيها : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ[1] ﴾ ، هل يجوز أن يقال : طأطىء لهما عُنق الذلّ !

وأما قوله : لو سلمنا أنه حقيقة فى تارك الندب لم يجز إطلاقه فى حق الأنبياء ؛ لأنه يوهم العصيان ؛ بل يجب أن يقيّد .

فيقال له : لكن البارئ سبحانه أطلقه ولم يقيّده فى قوله : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ ﴾ ، فيلزمك أن يكون تعالى موهما وفاعلا للقبيح ؛ لأن إيهام القبيح قبيح .

فإن قال : الدلالة العقلية على استحالة المعاصى على الأنبياء تؤمن من الإيهام .

قيل له : وتلك الدلالة بعينها تُؤمن من الإيهام فى قول القائل : الأنبياء عصاة ؛ فهلّا أجزتَ إطلاق ذلك !

* * *

وثانيها أنه تعالى قال : ﴿ فَغَوَىٰ ﴾ والغىّ الضلال .

قال المرتضى رحمه الله تعالى : معنى غوى ها هنا خاب ، لأنه نعلم أنه[2] لو فعل ما ندب إليه من ترك التناول من الشجرة لا ستحقّ الثواب العظيم ؛ فإذا خالف الأمر ولم يَصِر[3] إلى ما ندب إليه ، فقد خاب لا محالة من حيث لم يصِرْ إلى الثواب الذى كان يستحقّه بالامتناع ؛ ولا شبهة فى أنّ لفظ « غوى » يحتمل الخيبة ، قال الشاعر :

فَمَنْ يَلْقَ خَيْراً يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ ... وَمَنْ يَغْوَ لَا يَعْدَمْ عَلَى الْغَيِّ لَائِمَا[4]

(١) سورة الإسراء ٢٤ . (٢) التنزيه : « لأنا نعلم » .
(٣) ب : « فإذا خالف الأمر إلى ما ندب إليه » .
(٤) للمرقش ، اللسان ١٩ : ٣٧٧ .

يقال له : ألستَ القائل في مصنفاتك الكلامية : إنّ المندوبات إنما ندب إليها ؛ لأنها كالمسهّلات والميسّرات لفعل الواجبات العقلية ، وأنها ليست ألطافاً في واجب عقليّ ؛ وأنّ ثوابها يسيرٌ جدا بالإضافة إلى ثواب الواجب ! فإذا كان آدم عليه السلام ما أخل بشيء من الواجبات ، ولا فعل شيئا من المقبّحات ؛ فقد استحقّ من الثواب العظيم ما يستحقر ثواب المندوب بالإضافة إليه . ومثل هذا لا يقال فيه لمن ترك المندوب إنه قد خاب ، ألا ترى أنّ من اكتسب مائة ألف قنطار من المال ، وترك بعد ذلك درهما واحدا كان يمكنه اكتسابه فلم يكتسبه ، لا يقال : إنه خاب !

وثالثها أنّ ظاهر القرآن يخالف ما ذكره ، لأنه تعالى أخبر أن آدم منهيٌّ عن أكل الشجرة بقوله : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ، وقوله : ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ﴾ ؛ وهذا يوجب أنه قد عصى بأن فعل منهيًّا عنه ، والشريف المرتضى رحمه الله تعالى يقول : إنه عصى بأن ترك مأمورا به .

* * *

قال المرتضى رحمه الله تعالى مجيبا عن هذا : إنّ الأمر والنهي ليسا يختصّان(1) عندنا بصيغة ليس فيها احتمال واشتراك ، وقد يؤمر عندنا بلفظ النهي ويُنهى بلفظ الأمر ؛ وإنما يكون النهيُ نهياً بكراهة المنهيّ عنه ، فإذا قال تعالى : ﴿ لَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ ، ولم يكره قربهما لم يكن في الحقيقة ناهيا ، كما أنه تعالى لما قال : ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾(2) ، ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾(3) ؛ ولم يرد ذلك ؛ لم يكن آمرا به ؛ وإذا كان قد صحب قوله : ﴿ لَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ إرادة ترك التناول ، وجب أن يكون هذا القول أمراً ؛ وإنما سماه منهيًّا وسمى

(١) التنزيه : « أما النهي والأمر معاً عليـا . . . » .
(٢) سورة فصلت ٤٠ .
(٣) سورة المائدة ٢

أمره له بأنه نهيٌ من حيث كان فيه معنى النهي ؛ لأنّ في النهي ترغيباً في الامتناع من الفعل ، وتزهيدا في الفعل نفسه ، ولما كان الأمر ترغيبا من فعل المأمور ، وتزهيدا في تركه جاز أن يسمى نهياً .

وقد يتداخل هذان الوضعان في الشاهد ، فيقول أحدنا : قد أمرتُ فلانا بألّا يلقى الأمير ؛ وإنّما يريد أنّه نهاه عن لقائه ؛ ويقول : نهيتك عن هَجْر زيد ؛ وإنّما معناه أمرتُك بمواصلته[1].

يقال له : هذا خلاف الظاهر ، فلا يجوز المصير إليه إلا بدلالة قاطعة تصرف اللفظ عن ظاهره ؛ ويكفي أصحاب أبي هاشم في نصرة قولهم التمسك بالظاهر .

واعلم أنّ بعض أصحابنا تأول هذه الآية ، وقال : إنّ ذلك وقع من آدم عليه السلام قبل نبوّته ؛ لأنه لو كان نبيا قبل إخراجه من الجنّة ، لكان إما أن يكون مرسَلًا إلى نفسه ؛ وهو باطل ، أو إلى حوّاء ، وقد كان الخطاب يأتيها بغير واسطة ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا ﴾ أو إلى الملائكة ، وهذا باطل ، لأن الملائكة رسل الله ، بدليل قوله : ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ﴾[2] ، والرسول لا يحتاج إلى رسول آخر ، أو يكون رسولا وليس هناك من يرسَل إليه ؛ وهذا محال . فثبت أن هذه الواقعة وقعت له عليه السلام قبل نبوّته وإرساله .

• • •

الفصل الثالث

في خطئهم في التبليغ والفتاوى

قال أصحابنا : إنّ الأنبياء معصومون من كلّ خطأ يتعلق بالأداء والتبليغ ، فلا يجوز

(١) التنزيه ١١ .
(٢) سورة فاطر ١ .

عليهم الكذب ولا التغيير ولا التبديل ولا الكتمان ولا تأخر البيان عن وقت الحاجة ، ولا الغلط فيما يؤدونه عن الله تعالى ، ولا السهوُ فيه ولا الإلغاز ولا التّعمية ؛ لأنّ كلَّ ذلك إما أنْ ينقُض دلالة المعجز على صدقه ، أو يؤدى إلى تكليف ما لا يطاق .

وقال قومٌ من الكرّامية والحشَوِيّة: يجوز عليهم الخطأ في أقوالهم ، كما جاز في أفعالهم ؛ قالوا : وقد أخطأ رسول الله صلى الله عليه وآله في التبليغ، حيثُ قال: « تلك الغرانيق العلا ؛ وإن شفاعتهنّ لتُرتجى » .

وقال قوم منهم : يجوز الغلط على الأنبياء فيما لم تكن الحجّة فيه بمجرّد خبرهم ، لأنه لا يكون في ذلك إبطال حجة الله على خلقه ، كما وقع من النبيّ صلى الله عليه وآله في هذه الصورة، فإنّ قوله ذلك ليس بمبطل لحجة العقل في أن الأصنام لا يجوز تعظيمها، ولا ترتجى شفاعتها. فأمّا ما كان السبيلُ إليه بمجرّد السمع فلو أمكن الغلط فيه لبطلت الحجة بإخبارهم.

وقال قوم منهم : إنّ الأنبياء يجوز أن يخطئوا في أقوالهم وأفعالهم ، إذا لم تجْرِ تلك الأفعال مجرى بيان الوحى ، كبيانه عليه السلام لنا الشريعة ، ولا يجوز عليه الخطأ في حال البيان ، وإن كان يجوز عليه ذلك في غير حال البيان ، كما روى من خبر ذى اليدين[1] حين سها النبي صلى الله عليه وآله في الصلاة، وكذلك ما يكون منه من تبليغ وحى، فإنه لا يجوز عليه أن يخطئ فيه ، لأنه حجة الله على عباده . فأمّا في أفعاله الخارجة عن التبليغ ، فيجوز

(١) نقله أبو داود في كتاب الصلاة ١ : ٣٦٣ بسنده عن أبي هريرة ، قال : « صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إحدى صلاتى العشى : الظهر أو العصر ؛ قال : فصلى بنا ركعتين ثم سلم ، ثم قام إلى خشبة في مقدم المسجد فوضع يديه عليها ؛ إحداهما على الأخرى ، يعرف في وجهه الغضب . ثم خرج سرعان الناس وهم يقولون : قصرت الصلاة ؛ قصرت الصلاة ؛ وفى الناس أبو بكر وعمر ؛ فهاباه أن يكلماه ، فقام رجل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسميه ذا اليدين ؛ فقال : يارسول الله ، أنسيت أم قصرت الصلاة ؟ فقال : « لم أنس ولم تقصر الصلاة » ، قال : بل نسيت يارسول الله ، وأقبل رسول الله على القوم فقال : « أصدق ذو اليدين ؟ » فأومئوا : أى نعم ، فرجع رسول الله إلى مقامه فصلى الركعتين الباقيتين ثم سلم ثم كبر وسجد مثل سجوده أو أطول ، ثم رفع فكبر » .

أن يخطئ كما روى عنه صلى الله عليه وآله فى نهيه لأهل المدينة عن تأبير النخل [١] .

فأما أصحابنا المعتزلة ، فإنهم اختلفوا فى الخبر المروى عنه عليه الصلاة والسلام فى سورة النجم ، فمنهم من دفع الخبر أصلاً ولم يقبله ، وطعن فى رواته ، ومنهم من اعترف بكونه قرآناً منزلاً ، وهم فريقان : أحدهما القائلون بأنه كان وصفاً للملائكة ؛ فلما ظن المشركون أنه وصف آلهتهم ، رفع ونُهى عن تلاوته . وثانيهما القائلون إنه خارج على وجه الاستفهام بمعنى الإنكار ، فتوهم سامعوه أنه بمعنى التحقيق ، فنسخه الله تعالى ونهى عن تلاوته .

ومنهم من قال : ليس بقرآن منزل ، بل هو كلام تكلم به رسول الله صلى الله عليه وآله من قِبَل نفسه على طريق الإنكار والهزء بقريش ، فظنوا أنه يريد التحقيق ، فنسخه الله بأن بين خطأ ظنهم ، وهذا معنى قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ﴾ [٢] قالوا : فإلقاء الشيطان هاهنا هو إلقاء الشبهة فى قلوب المشركين ، وإنما أضافه إلى أمنيته ، وهى تلاوته القرآن ، لأن بغرور الشيطان ووسوسته أضاف المشركون إلى تلاوته عليه السلام ما لم يُرِده بها .

وأنكر أصحابنا الأخبار الواردة التى تقتضى الطعن على الرسول صلى الله عليه وآله ، قالوا : وكيف يجوز أن نصدق هذه الأخبار الآحاد على من قد قال الله تعالى له : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [٣] وقال له : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ ﴾ [٤] وقال عنه : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الفضائل ٤ : ١٨٣٦ بسنده عن أنس : أن النبى صلى الله عليه وسلم مرّ بقوم يلقحون النخل ؛ فقال : « لو لم يفعلوا لصلح » قال : فخرج شيصاً (وهو البسر الردىء) فمر بهم فقال : « ما لنخلكم ؟ » قالوا : قلت كذا وكذا ! قال : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » .

(٢) سورة الحج ٥٢ .

(٣) سورة الفرقان ٣٢ .

(٤) سورة الأعلى ٦ .

عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ) [1] . وأما خبر ذى اليدين وخبر تأبير النخل ، فقد تكلمنا عليهما فى كتبنا المصنفة فى أصول الفقه .

***

الإصْلُ :

وَقَدَّرَ الْأَرْزَاقَ فَكَثَّرَهَا وَقَلَّلَهَا ، وَقَسَّمَهَا عَلَى الضِّيقِ وَالسَّعَةِ ، فَعَدَلَ فِيهَا لِيَبْتَلِيَ مَنْ أَرَادَ بِمَيْسُورِهَا وَمَعْسُورِهَا ، وَلِيَخْتَبِرَ بِذَلِكَ الشُّكْرَ وَالصَّبْرَ مِنْ غَنِيِّهَا وَفَقِيرِهَا. ثُمَّ قَرَنَ بِسَعَتِهَا عَقَابِيلَ فَاقَتِهَا ، وَبِسَلَامَتِهَا طَوَارِقَ آفَاتِهَا ، وَبِفُرَجِ أَفْرَاحِهَا غُصَصَ أَتْرَاحِهَا . وَخَلَقَ الْآجَالَ فَأَطَالَهَا وَقَصَّرَهَا، وَقَدَّمَهَا وَأَخَّرَهَا ، وَوَصَلَ بِالْمَوْتِ أَسْبَابَهَا، وَجَعَلَهُ خَالِجاً لِأَشْطَانِهَا ، وَقَاطِعاً لِمَرَائِرِ أَقْرَانِهَا .

***

الشَّرْحُ :

الضِّيقُ والضَّيْقُ : لغتان ، فأما المصدر من « ضاق » فالضِّيق بالكسر ، لا غير .

وعَدَل فيها : من التعديل وهو التقويم، وروى : « فعدَل » ، بالتخفيف،من العدل نقيض الظلم .

والميسور والمعسور : مصدران . وقال سيبويه : هما صفتان ، ولا يجىء عنده المصدر على وزن « مفعول » ألبتة ، ويتأول قولهم: «دعه إلى ميسوره» ، ويقول كأنه قال : دعْه إلى أمرٍ يوسر فيه ، وكذلك يتأول « المعقول » أيضا ، فيقول كأنه عُقِل له شىء ، أى حبس وأيّد وسدد .

ومعنى قوله عليه السلام : « ليبتلىَ مَنْ أراد بميسورها ومعسورها » ، هو معنى قول النبىّ صلى الله عليه وآله : « إنّ إعطاء هذا المال فتنة ، وإمساكه فتنة » .

(١) سورة الحاقة ٤٤ — ٤٧ .

والعقابيل فى الأصل : الحلأ ، وهو قروح صغار تخرج بالشّفة من بقايا المرض .
والفاقة : الفقر .

وطوارق الآفات : متجدّدات المصائب ، وأصلُ الطُّروق مايأتى ليلا .

والأتراح : الهموم ، الواحد ترَح ، وترّحه تتريحا ، أى حزّنه .

وخالجا : جاذبا ، والخلج الجذْب ، خلجه يخلجه بالكسر ، واختلجه ، ومنه الخليج : الحبْل لأنه يجتذب به ، وسمى خليج البحر خليجا ؛ لأنه يجذّب من معظم البحر .

والأشطان : الحبال ، واحدها شَطَن ، وشطنتُ الفرسَ أشطُنه ، إذا شددته بالشّطَن .

والقرائن : الحبال ، جمع قَرَن ؛ وهو من شواذ الجموع ، قال الشاعر :

أبلغْ خليفَتنا إنْ كنتَ لاقيَه ... أنّى لدَى الباب كالمشدود فى قَرَنِ[1]

ومرائر القرائن : جمع مَرِيرة ، وهو مالطف وطال منها واشتدّ فتله ، وهذا الكلام من باب الاستعارة .

• • •

الأحمال :

عالِمُ السِّرّ مِنْ ضَمائِرِ الْمُضْمِرِينَ وَنَجْوَى الْمُتَخافِتِينَ، وَخَواطِرِ رَجْمِ الظُّنُونِ، وَعُقَدِ عَزِيمَاتِ الْيَقِينِ ، وَمَسَارِقِ إِيماضِ الْجُفُونِ ، وَما ضَمِنَتْهُ أَكْنانُ الْقُلُوبِ ، وَغَيابَاتُ الْغُيُوبِ ، وَما أَصْغَتْ لاسْتِرَاقِهِ مَصائِخُ الْأَسْماعِ ، وَمَصَائِفِ الذَّرِّ ، وَمَشَاتِي الْهَوَامِّ وَرَجْعِ الْحَنِينِ مِنَ الْمُولَهاتِ ، وَهَمْسِ الْأَقْدامِ ، وَمُنْفَسَحِ الثَّمَرَةِ مِنْ وَلَائِجِ غُلُفِ الْأَكْمامِ ، وَمُنْقَمَعِ الْوُحُوشِ مِنْ غِيرانِ الْجِبالِ وَأَوْدِيَتِها ، وَمُخْتَبَإِ الْبَعُوضِ بَيْنَ سُوقِ

---

(١) اللسان ١٧ : ٢١٤ من غير نسبة ، وروايته : « أبلغ أبا سمح » .

الأشجار وألحيتها ، ومغرز الأوراق من الأفنان ، ومحط الأمشاج من مسارب الأصلاب ، وناشئة الغيوم ومتلاحمها ، ودرور قطر السحاب في متراكمها ، وما تسفي الأعاصير بذيولها ، وتعفو الأمطار بسيولها ، وعوم بنات الأرض في كثبان الرمال ، ومستقر ذوات الأجنحة بذرا شناخيب الجبال ، وتغريد ذوات المنطق في دياجير الأوكار ، وما أوعبته الأصداف ، وحضنت عليه أمواج البحار ، وما غشيته سدفة ليل ، أو ذر عليه شارق نهار ، وما اعتقبت عليه أطباق الدياجير وسبحات النور ؛ وأثر كل خطوة ، وحس كل حركة ، ورجع كل كلمة ، وتحريك كل شفة ، ومستقر كل نسمة ، ومثقال كل ذرة ، وهماهم كل نفس هامة ، وما عليها من ثمر شجرة ، أو ساقط ورقة ، أو قرارة نطفة ، أو نقاعة دم ومضغة ، أو ناشئة خلق وسلالة ؛ لم يلحقه في ذلك كلفة ، ولا اعترضته في حفظ ما ابتدع من خلقه عارضة ، ولا اعتورته في تنفيذ الأمور وتدابير المخلوقين ملالة ولا فترة ، بل نفذهم علمه ، وأحصاهم عدده ، ووسعهم عدله ، وغمرهم فضله ، مع تقصيرهم عن كنه ما هو أهله .

• • •

الشرح :

لو سمع النضر بن كنانة هذا الكلام لقال لقائله ما قاله علي بن العباس بن جريج لإسماعيل بن بلبل :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم كلا ، ولكن لعمري منه شيبان[1]
وكم أب قد علا بابن ذرا شرف كما علا برسول الله عدنان

إذ كان يفخر به على عدنان وقحطان ، بل كان يقرع به عين أبيه إبراهيم خليل الرحمن ،

---

(١) ديوانه الورقة ٢٧٣ (مخطوطة دار الكتب ، رقم ١٣٩ ــ أدب) .

ويقول له : إنه لم يُعَفِّ ماشيَّدته من معالم التوحيد ، بل أخرج الله تعالى لك من ظهري ولما ابتدع من علوم التوحيد في جاهلية العرب مالم تبتدعه أنت في جاهلية النَّبَط ؛ بل لو سمع هذا الكلام أرسطوطاليس ، القائل بأنه تعالى لايعلم الجزئيات ؛ لخشع قلبهُ وقَفَّ شعرُه ، واضطربَ فكره؛ألا ترى ماعليه من الرُّواء والمهابة ، والعظمة والفخامة،والمتانة والجزالة ! مع مافد أُشربَ من الحلاوة والطُّلاوة واللطف والسلاسة!لا أرى كلاما يشبه هذا إلّا أن يكون كلامَ الخالق سبحانه ، فإنّ هذا الكلام نَبْعةٌ من تلك الشجرة ، وجدول من ذلك البحر ، وجَذْوة من تلك النار؛وكأنه شَرْح قوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [1] .

***

ثم نعود إلى التفسير فنقول :

النَّجْوى : المسارّة ، تقول:انتجى القومُ وتناجَوْا؛أي تسارُّوا ، وانتجيت زيدا إذا خصصتَه بمناجاتك ؛ ومنه الحديث ، أنه صلّى الله عليه وآله أطال النَّجْوى مع عليّ عليه السلام ؛ فقال قوم : لقد أطال اليوم نَجْوَى ابن عمّه،فبلغه ذلك فقال : « إنّي ما انتجيتُه؛ ولكن الله انتجاه » .ويقال للسرّ نفسه النَّجْو ؛ يقال:نجوته نَجْواً أي ساررته ؛ وكذلك ناجيْتُه مناجاة ، وسمّي ذلك الأمرُ المخصوص نجوى لأنه يستسرّ به ؛ فأمّا قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى ﴾ فجعلهم هم النجوى؛وإنما النجوى فعلهم ؛ فإنما هو كقولك : « قوم رضاً » وإنما الرضا ، فعلهم ؛ ويقال للذي تساره : النجيّ على « فعيل » ؛ وجمعه أنجية ، قال الشاعر :

---

(١) سورة الأنعام ٥٩ .

* إني إذا ما القومُ كانوا أنجيهْ [1] *

وقد يكون النجيّ جماعة ؛ مثل الصَّديق ؛ قال الله تعالى : ﴿ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ [2] ، وقال الفرّاء : قد يكون النجيّ والنجوى اسما ومصدرا .

والمتخافتين : الذين يسرّون المنطق ، وهي المخافتة والتخافت والخفْت ، قال الشاعر :

أُخاطِبُ جَهراً إذ لهُنَّ تخافُتٌ وشتّانَ بيْنَ الجَهْرِ والمَنْطِقِ الخَفْتِ [3]

ورَجْم الظنون : القولُ بالظّن ، قال سبحانه : ﴿ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ ، ومنه « الحديث المرجّم » بالتشديد ، وهو الذي لا يدرَى أحقٌ هو أم باطل ، ويقال صار رَجْماً ، أي لا يوقف على حقيقة أمره .

وعقد عزيمات اليقين ، العزائم : التي يعقد القلب عليها وتطمئنّ النفس إليها .

ومسارق إيماض الجفون : ما تُسارقه الأبصار حين تومِض ، يقال : أومض البصر والبرق إيماضاً إذا لمع لمعًا خفيفا ، ويجوز : ومض بغير همز ، يمض ومضًا ووميضا ووَمَضانا . وأكنانُ القلوب : غُلُفها ، والكِن : السترِ ، والجمع أكنان ، قال تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا ﴾ [4] ويروى : « أكنّة القلوب » وهي الأغطية أيضا ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ [5] ، والواحد كِنان ، قال عمر بن أبي ربيعة :

---

(١) اللسان ٢٠ : ١٧٩ ، ونسبه إلى سحيم بن وثيل اليربوعي ؟ وبعده :

واضطربَ القومُ اضطرابَ الأرْشِيَهْ هناكَ أوصيني ولا توصِي بِيَهْ

(٢) سورة يوسف ٨٠ .

(٣) اللسان ٢ : ٣٣٥ من غير نسبة .

(٤) سورة النحل ٨١ .

(٥) سورة الأنعام ٢٥ .

تحتَ عَيْنٍ كِنَانُنَا ظِلُّ بُرْدٍ مُرَحَّــلُ[1]

ويعنى بالذى ضمنته أكنانُ القلوب الضمائر .

وغَيابات الغيوب : جمع غَيابة ، وهى قَعْر البئر فى الأصل ؛ ثم نقلت إلى كلّ غامض خفىّ ، مثل غَيابة ، وقد روى : « غَبَابَات » بالباء .

وأصغَتْ : تسمّعت ومالت نحوه . ولاستراقه : لاستماعه فى خُفيه ، قال تعالى : ﴿ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ ﴾[2] .

ومصائخ الأسماع : خروقُها التى يُصيخ بها ، أى يستمع .

ومصائف الذرّ:المواضع التى يَصيف الذرّ فيها،أى حَمِيّ الصيف،يقال : صافَ بالمكان واصطاف بمعنى ، والموضع مَصِيف ومصطاف .

والذرّ : جمع ذَرّة ، وهى أصغر النمل .

ومشاتى الهوامّ:المواضع التى تَشتو الهوامُّ بها،يقال : شتوتُ بموضع كذا وتشتَّيت، أى أقمت به الشتاء .

والهوامّ : جمع هامّة ، ولا يقع هذا الاسم إلا على المَخُوف من الأحناش .

---

(١) اللسان ١٧ : ٢٤٣ ، وذكر قبله :

هَاجَ ذَا القَلْبَ مَنْزِلُ دَارِسُ العَهْـدِ مُحْوِلُ

أَيْنَا بَاتَ لَيْـــلَةً بَيْنَ غُصْنَيْنِ يُوبَلُ

قال ابن برى : صوابُ إنشاده :

* بردُ عَصْبٍ مُرَحّلُ *

وأنشده ابن دريد :

تحتَ ظِلٍّ كِنَانُنَا ظِلُّ بُرْدٍ مُرَحَّلُ

(٢) سورة الحجر ١٨ .

ورجْع الحنين : ترجيعه وترديده ، والمولّهات : النُّوق والنساء اللواتى حِيل بينهنّ وبين أولادهنّ .

وهمس الأقدام:صوت وطئها خفيا جدا ، قال تعالى : ﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾[1]، ومنه قول الراجز .

* فَهُنَّ يَمْشِينَ بِنَا هَمِيسًا [2] *

والأسدُ الهَمُوس : الخفىّ الوطء .

ومنفسَحُ الثمرة ، أى موضع سعتها من الآكام ، وقد رُوى : « متفسّخ » بالخاء المعجمة وتشديد السين وبناء بعد الميم ، مصدرا من تفسّخت الثمرة ، إذا انقطعت .

والولائج:المواضع الساترة،والواحدة وَليجة،وهو كالكهف يستتر فيه المارة من مطر أو غيره ، ويقال أيضا فى جمعه : وُلُج وأولاج .

ومتقمّع الوحوش:موضع تقمعها واستتارها،ومنه قَمَعة[3] بن إلياس بن مضر بذلك، لأنه انقمع فى بيته كما زعموا .

وغيران الجبال : جمع غار ، وهو كالكهف فى الجبل ، والغار مثل الغار والمغارة منه .

ومختبأ البعوض : موضع اختبائها واستتارها ، وسُوقُ الأشجار : جمع ساق، وألحيتُها جمع لحاء وهو القشر .

ومغرز الأوراق : موضع غَرْزها فيها .

---

(١) سورة طه ١٠٨ .

(٢) اللسان ٨ : ١٣٦ من غير نسبة .

(٣) قمعة : بفتح القاف والميم ، قال صاحب اللسان : « كان اسمه عميرا فأغير على إبل أبيه فانقمع فى البيت فرقاً ، فسماه أبوه قمعة ، وخرج أخوه مدركة بن إلياس لبغاء إبل أبيه ، فأدركها وقعد الأخ الثالث يطبخ القدر ، فسمى طابخة » .

والأفنان : جمع فَنَن ، وهو الغصن والأمشاج : ماء الرجل يختلط بماء المرأة ودمها ، جمع مَشِيج ، كيتيم وأيتام . ومحطها : إما مصدر أو مكان .

ومسارب الأصلاب : المواضع التي ينسرب السيُّ فيها من الصُّلب ، أي يسيل .

وناشئة الغيوم : أول ماينشأ منها ، وهو النَّشء أيضا ، وناشئة الليل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً ﴾ [1] أول ساعاته ؛ ويقال : هي ما ينشأ في الليل من الطاعات . ومتلاحمها ، مايلتصق منها بعضها ببعض ويلتحم .

ودرور قطر السحائب : مصدر ، من دَرّ يدِرّ ، أي سال ، وناقة دَرُور : أي كثيرة اللبن ، وسَحَاب درور : أي كثير المطر ، ويقال : إن لهذا السحاب لدِرَّة ، أي . صبًّا ، والجمع درور . ومتراكبها : المجتمع المتكاثف منها ، رَكَمْتُ الشيء أركمه بالضم : جمعته وألقيت بعضه على بعض ، ورمْلٌ رُكام ، وسحاب رُكام ، أي مجتمع .

والأعاصير : جمع إعصار ، وهي ريح تثير الغبار فيرتفع إلى السماء كالعمود . وقال تعالى : ﴿ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ ﴾ [2] .

ونسفى ، من سفَتِ الريح التراب سَفْياً ، إذا أذرته فهو سَفِيّ . وذيولها هاهنا ، يريد به أطرافها وما لاحَف الأرض منها .

وما تعفو الأمطار : أيْ ماتدرُس ؛ عفت الريح المنزل أي درسته ، وعفا المنزل نفسُه يعفُو : درس ، يتعدّى ولا يتعدّى .

وبنات الأرض : الهوامّ والحشرات التي تسكون في الرمال ، وعَوْمها فيها : سباحتها ؛ ويقال لسير السفينة وسير الإبل أيضا : عَوْم ، عُمت في الماء ، بضم أوله أعُوم .

---

(١) سورة المزمل ٦ .

(٢) سورة البقرة ٢٦٦ .

وكثبان الرمال : جمع كثيب وهو ما انصبَّ من الرَّمْل واجتمع في مكانٍ واحد فصار تلًّا ، وكثبت الشيء أكثُبه كثباً ، إذا جمعته ، وانكثب الرملُ : اجتمع .

وشناخيب الجبال : رءوسها ، واحدها شُنخوب . وذُرَاها : أعاليها جمع ذِرْوة وذُروة ، بالكسر والضم .

والتَّغريد : التطريب بالغناء ، والتغرّد مثله ؛ وكذلك الغَرَد بفتحهما ؛ ويقال : غرِد الطائر فهو غرِد ، إذا طرّب بصوته .

وذوات المنطق هاهنا : الأطيار ؛ وسُمّى صوتها منطقا وإن كان لا يطلق إلا على ألفاظ البشر مجازا .

ودياجير : جمع دَيْجور ؛ وهو الظلام . والأوكار : جمع وَكْر ؛ وهو عُش الطائر ؛ ويجمع أيضا على وُكور ، ووَكَر الطائر يكِر وَكْراً ، أى دخل وَكْره .

وقوله : « وما أوعيته الأصداف » ، أى من اللؤلؤ . وحضَنت عليه أمواجُ البحار : أى ماضمته كما تحضن الأنثى من الطير بيضها ، وهو مايكون في لجة ؛ إما من سمك أو خشب أو مايحمله البحر من العنبر كالجماجم بين الأمواج وغير ذلك .

وسُدْفة الليل : ظلمته ، وجاء بالفتح . وقيل : السُّدفة اختلاط الضوء والظلمة معاً كوقت مابين طلوع الفجر إلى الإسفار .

وغشيته : غطّته . وذرّ عليه شارق نهار ، أى ماطلعت عليه الشمس ، وذرت الشمس تذُرّ بالضم ، ذُروراً : طلعت ، وذرّ البقل ، إذا طلع من الأرض .

وشَرَقت الشمس : طلعت ، وأشرقت بالهمزة ، إذا أضاءت وصفت .

واعتقبت : تعاقبت . وأطباق الدياجير : أطباق الظُّلَم . وأطباقها : جمع طَبَقة ، أى

أغطيتها،أطبقت الشيء،أي غَطّيته ، وجعلته مطبَقاً؛ وقد تطبّق هو ،ومنه قولهم: لو تطبّقت السماء على الأرض لما فعلتُ كذا . وسُبحات النور : عطف على أطباق الدياجير ،أي بعلم سبحانه ماتعاقب عليه الظلام والضياء . وسبحات هاهنا ،ليس بمعنى به مايعنى بقوله :«سبحان وجه ربنا »، لأنه هناك بمعنى مايسبّح عليه النور ،أي يجرى ، من سَبْح الفرس وهو جَرْيه، ويقال : فرس سابح .

والخُطوة : مابين القدمين ، بالضم ، وخطوت خَطْوَةً بالفتح ، لأنه المصدر .

ورَجْع كلّ كلمة : ماترجع به من الكلام إلى نفسك وتردّده فى فكرك .

والنَّسَمة : الإنسان نفسه ، وجمعها نَسَم ، ومثقال كلّ ذرة : أى وزن كلّ ذرة،ومما يخطئ فيه العامة قولهم الدينار : مثقال ،وإنما المثقال وزن كلّ شىء ، قال تعالى :﴿ إنّ اللّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [1] .

وهَمَام كلّ نفس هامّة ، الهماهم : جمع همهمة ، وهى ترديد الصوت فى الصَّدْر ، وحمار هِمْهيم : يهمهم فى صوته ، وهمهمت المرأة فى رأس الصبى ، وذلك إذانوّمته بصوت ترققه له . والنفس الهامّة : ذات الهمّة التى تعزم على الأمر .

قوله : « وما عليها »أى ماعلى الأرض ، فجاء بالضمير ولم يسبق ذكرصاحبه ،اعتمادا على فهم المخاطب ، كماقال تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [2] .

وقرارة النطفة : مايستقِرّ فيه الماء من الأماكن ، قال الشاعر :

وأَنتُمْ قَرَارَةُ كُلِّ مَعْدِنِ سَوْءَةٍ وَلِكُلِّ سَائِلَةٍ تَسِيلُ قَرَارُ

والنُّطفة : الماء نفسه ، ومنه قوله عليه السلام فى الخوارج : إن مَصارعهم النطفة،أى لايعبرُون النهر ، ويجوز أن يريد بالنطفة المَنِىّ ويقويه ماذكره بعده من المُضغة .

---

(١) سورة النساء ٤٠ .

(٢) سورة الرحمن ٢٦ .

والنُّقَاعة : نُقْرَة يجتمع فيها الدم ، ومثله أُنْقُوعة ، ويقال لوقْبَة الثَّريد : أُنقوعة .

والمضغة : قطعة اللحم. والسلالة في الأصل : ما استُلَّ من الشيء ، وسميت النطفة سلالة الإنسان ، لأنها استُلَّتْ منه ، وكذلك الولد .

والكُلْفَة : المشقة ، واعتوروه مثل عرته . وخذهم عليه ، تشبيه بنفوذ السهم ، وعدّى الفعل بنفسه وإن كان معدّى في الأصل بحرف الجر ، كقولك : اخترت الرجال زيدًا ، أي من الرجال ، كأنه جعل عليه تعالى خارقًا لهم ونافذًا فيهم . ويروى : « وأحصاهم عَدَّه » ، بالتضعيف .

* * *

الأَصْلُ :

اللَّهُمَّ أَنْتَ أَهْلُ الْوَصْفِ الْجَمِيلِ ، وَالتَّعْدَادِ الْكَثِيرِ ، إِنْ تُؤَمَّلْ فَخَيْرُ مَأْمُولٍ ، وَإِنْ تُرْجَ فَخَيْرُ مَرْجُوٍّ . اللَّهُمَّ فَقَدْ بَسَطْتَ لِي فِيمَا لَا أَمْدَحُ بِهِ غَيْرَكَ ، وَلَا أُثْنِي بِهِ عَلَى أَحَدٍ سِوَاكَ ، وَلَا أُوَجِّهُهُ إِلَى مَعَادِنِ الْخَيْبَةِ وَمَوَاضِعِ الرِّيبَةِ ، وَعَدَلْتَ بِلِسَانِي عَنْ مَدَائِحِ الْآدَمِيِّينَ ، وَالثَّنَاءِ عَلَى الْمَرْبُوبِينَ الْمَخْلُوقِينَ . اللَّهُمَّ وَلِكُلِّ مُثْنٍ عَلَى مَنْ أَثْنَى عَلَيْهِ مَثُوبَةٌ مِنْ جَزَاءٍ ، أَوْ عَارِفَةٌ مِنْ عَطَاءٍ ؛ وَقَدْ رَجَوْتُكَ دَلِيلًا عَلَى ذَخَائِرِ الرَّحْمَةِ وَكُنُوزِ الْمَغْفِرَةِ .

اللَّهُمَّ ، وَهَذَا مَقَامُ مَنْ أَفْرَدَكَ بِالتَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ لَكَ ، وَلَمْ يَرَ مُسْتَحِقًّا لِهَذِهِ الْمَحَامِدِ وَالْمَمَادِحِ غَيْرَكَ ؛ وَبِي فَاقَةٌ إِلَيْكَ لَا يَجْبُرُ مَسْكَنَتَهَا إِلَّا فَضْلُكَ ، وَلَا يَنْعَشُ مِنْ خَلَّتِهَا إِلَّا مَنُّكَ وَجُودُكَ ، فَهَبْ لَنَا فِي هَذَا الْمَقَامِ رِضَاكَ ، وَأَغْنِنَا عَنْ مَدِّ الْأَيْدِي إِلَى سِوَاكَ ؛ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ !

* * *

الشَّرْح :

التعداد : مصدر ، وخَبَر : خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : فأنت خير مأمول .

ومعنى قوله : « قد بسطت لى » ، أى قد آتيتنى لسناً وفصاحة وسعة منطق ، فلا أمدحُ غيرَك ، ولا أحمَدُ سواك .

ويعنى بمعادن الخيبة : البشر ، لأن مادحهم ومؤملهم يخيب فى الأكثر ، وجعلهم مواضع الريبة ، لأنهم لا يوثق بهم فى حال :

ومعنى قوله عليه السلام : « وقد رجوتُك دليلاً على ذخائر الرّحمة وكنوز المغفرة » أنه راجٍ منه أن يدلّه على الأعمال التى ترضيه سبحانه ، ويستوجب بها منه الرحمة والمغفرة ، وكأنه جعل تلك الأعمال التى يرجو أن يدلّ عليها ذخائر للرحمة وكنوزاً .

والفاقة : الفقر ، وكذلك المسكنة .

وينعَش ، بالفتح : يرفع ، والماضى نَعَش ، ومنه النعْش لارتفاعه .

والمنّ : العطاء والنعمة ، والمنّان ، من أسماء الله سبحانه .

(٩١)

الأصْـلُ :

ومن كلام له عليه السلام لما أراده الناس على البيعة بعد قتل عثمان رضى الله عنه :

دَعُونِي وَالْتَمِسُوا غَيْرِي ؛ فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ وَأَلْوَانٌ ؛ لَا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ ، وَلَا تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ . وَإِنَّ الْآفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ ، وَالْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ .

وَاعْلَمُوا[1] أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ ، وَلَمْ أُصْغِ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ ، وَعَتْبِ الْعَاتِبِ ، وَإِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ ، وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطْوَعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ ، وَأَنَا لَكُمْ وَزِيراً ، خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيراً !

* * *

الشَّـرْحُ :

فى أكثر النسخ : « لما أراده الناس على البيعة » ، ووجدت فى بعضها : « أداره الناس على البيعة » ، فمن روى الأول جعل « على » متعلقة بمحذوف ، وتقديره « موافقا » ، ومن روى الثانى جعلها متعلقة بالفعل الظاهر نفسه ، وهو « أداره » ، تقول : أدرت فلانا على كذا ، وداورت فلانا على كذا ، أى عالجته .

ولا تقوم له القلوب ، أى لا تصبر . وأغامت الآفاق : غطاها الغيم ، أغامت وغامت ، وأغيمت وتغيمت[2] ، كله بمعنى ، والمحجة : الطريق وتنكرت : جهلت فلم تعرف . و « وزيرا » و « أميرا » : منصوبان على الحال .

وهذا الكلام يحمله أصحابنا على ظاهره ، ويقولون : إنه عليه السلام لم يكن منصوصا

---

(١) كذا فى ا ، ج ، وفى ب ، ومخطوطة النهج « وأعلم » .

(٢) د : « وغمت » .

عليه بالإمامة من جهة الرسول صلى الله عليه وآله ، وإن كان أولى الناس بها وأحقهم بمنزلتها ، لأنه لو كان منصوصاً عليه بالإمامة من جهة الرسول عليه الصلاة والسلام لما جاز له أن يقول : « دَعُوني والتمسوا غيري » ؛ ولا أن يقول : « ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم » ، ولا أن يقول : « وأنا لكم وزيراً خيرٌ منّي لكم أميراً » . وتحمله الإمامية على وجه آخر فيقولون : إنّ الذين أرادوه على البَيْعة هم كانوا العاقدين بَيْعة الخلفاء من قبل ؛ وقد كان عثمان منعهم أو منع كثيراً منهم عن حقّه من العطاء ، لأنّ بنى أمية استأصلوا الأموال فى أيام عثمان ؛ فلما قتل قالوا لعلىّ عليه السلام : نبايعك على أن تسير فينا سيرةَ أبى بكر وعمر ؛ لأنهما كانا لا يستأثران بالمال لأنفسهما ولا لأهلهما ، فطلبوا من علىّ عليه السلام البَيْعة على أن يقسم عليهم بيوت الأموال قسمة أبى بكر وعمر ؛ فاستعفاهم وسألهم أن يطلبوا غيره ممن يسير بسيرتهما ؛ وقال لهم كلاما تحته رمز ، وهو قوله : « إنّا مستقبلون أمرا له وجوه وألوان ، لا تقوم له القلوب ، ولا تثبت عليه العقول ، وإنّ الآفاق قد أغامت ، والمحجّة قد تنكّرت » .

قالوا : وهذا كلام له باطنٌ وغَوْرٌ عميق ، معناه الإخبار عن غيب يعلمه هو ويجهلونه هم[1] ، وهو الإنذارُ بحرب المسلمين بعضهم لبعض ، واختلافُ الكلمة وظهورُ الفتنة .

ومعنى قوله : « له وجوه وألوان » أنّه موضع شبهة وتأويل ، فمن قائل يقول : أصاب علىّ ، ومن قائل يقول : أخطأ ، وكذلك القول فى تصويب محاربيه من أهل الجمل وصِفّين والنَّهْروان وتخطئتهم ، فإنّ المذاهب فيه وفيهم تشعّبت وتفرقت جدا .

ومعنى قوله : « الآفاق قد أغامت ، والمحجة قد تنكّرت » أن الشبهة قد استولت على العقول والقلوب ، وجهل أكثرُ الناس محجّة الحق أين هى ، فأنا لكم وزيراً عن رسول الله صلى الله عليه وآله أفتى فيكم بشريعته وأحكامه خيرٌ لكم منى أميرا محجورا عليه

(١) ساقطة من ا .

مدبرًا بتدبيركم ، فإنى أعلم أنه لا قُدرة لى أن أسير فيكم بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله فى أصحابه مستقلًا بالتدبير ، لفساد أحوالكم ، وتعذر صلاحكم .

وقد حمل بعضُهم كلامه على محمل آخر ، فقال : هذا كلام مُستزيد[1] شاكٍ من أصحابه ، يقول لهم : دعونى والتمسوا غيرى ، على طريق الضَّجر[2] منهم ، والتبرم بهم والتسخط لأفعالهم ، لأنهم كانوا عدَلوا عنه من قَبل ، واختاروا عليه ، فلما طلبوه بعدُ أجابهم جوابَ المتسخِّط العاتب .

وحمل قوم منهم الكلام على وجه آخر ، فقالوا : إنما أخرجه مخرج التهكم والسخرية ، أى أنا لكم وزيراً خيرٌ منى لكم أميرا فيما تعتقدونه ، كما قال سبحانه : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾[3] أى تزعم لنفسك ذلك وتعتقده .

واعلم أن ماذكروه ليس ببعيد أن يُحمل الكلام عليه لو كان الدليل قد دلّ على ذلك ، فأما إذا لم يدلّ عليه دليل ، فلا يجوز صرفُ اللفظ عن ظاهره ، ونحن نتمسك بالظاهر إلّا أن تقوم دلالة على مذهبهم تصدّنا عن حَمْل اللفظ عن ظاهره ، ولو جاز أن تصرف الألفاظُ عن ظواهرها لغير دليل قاهر يصدف ويصدّ عنها ، لم يبق وثوق بكلام الله عزوجلّ وبكلام رسوله عليه السلام ؛ وقد ذكرنا فيما تقدم كيفية الحال التى كانت بعد قَتل عثمان ، والبيعة العلَويّة كيف وقعت .

* * *

[فصل فيما كان من أمر طلحة والزبير عند قسم المال]

ونحن نذكر هاهنا فى هذه القصة ما ذكره شيخنا أبو جعفر الإسكافى[4] فى كتابه

(١) مستزيد ، أى شاك عاتب ، وفى الأساس : « فلان يستزيد فلاناً ، يستقصره ويشكوه ؛ وهو مستزيد » .

(٢) د : « الضجر » .

(٣) سورة الدخان ٤٩

(٤) هو محمد بن عبد الله ، أبو جعفر المعروف بالإسكافى ؛ أحد المتكلمين من معتزلة البغداديين . قال الخطيب فى تاريخه (٥ : ٤١٦) : « له تصانيف معروفة ؛ وكان الحسين بن على الكرابيسى يتكلم معه ويناظره ، وبلغنى أنه مات فى سنة أربعين ومائتين » .

الذى نقض فيه كتاب «العثمانية» لشيخنا أبي عثمان ، فإن الذى ذكره لم نورده نحن فيا تقدم .

قال أبو جعفر : لما اجتمعت الصحابةُ في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله بعد قتل عثمان للنظر في أمر الإمامة ، أشار[1] أبو الهيثم بن التَّيِّهان ورفاعة بن رافع ومالك بن العجلان وأبو أيوب الأنصاري وعمار بن ياسر بعليّ عليه السلام ، وذكروا فضلَه وسابقته وجهاده وقرابته ، فأجابهم الناسُ إليه ، فقام كلّ واحد منهم خطيبا بذكر فضل علي عليه السلام ، فمنهم مَن فضَّله على أهل عصره خاصة ، ومنهم من فضله على المسلمين كلِّهم كافة. ثم بويع وصعد المنبر في اليوم الثاني من يوم البَيْعة ، وهو يوم السبت ، لإحدى عشرة ليلة بقينَ من ذى الحجة ، فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر محمدا فصلّى عليه ، ثم ذكر نعمة الله على أهل الإسلام ، ثم ذكر الدنيا ، فزهدهم فيها ، وذكر الآخرة فرغبهم إليها ، ثم قال :

أما بعدُ ؛ فإنه لما قُبض رسول الله صلى الله عليه استخلف الناس أبا بكر ، ثم استخلف أبو بكر عمر ، فعمل بطريقه ، ثم جعلها شورى بين ستة ، فأفضى الأمر منهم إلى عثمان ، فعمل ما أنكرتم وعرفتم[2] ، ثم حُصِر وقتل ، ثم جئتمونى طائعين فطلبتم إلىّ ؛ وإنما أنا رجلٌ منكم ، لى مالكم ، وعلىّ ما عليكم ، وقد فتح الله الباب بينكم وبين أهل القبلة ، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، ولا يحمِلُ هذا الأمرَ إلا أهلُ الصبر والبصر والعلم بمواقع الأمر ، وإنّى حاملكم على منهج نبيّكم صلى الله عليه وآله ، ومنفذ فيكم ما أمِرت به ؛ إن استقمتم لى . وبالله المستعان . ألا إن موضعى من رسول الله صلى الله عليه وآله بعد وفاته كموضعى منه أيامَ حياته ، فامضوا لما تؤمرون به ، وقفوا عند ما تُنهون عنه ، ولا تعجلوا في أمر حتى نبيّنه لكم ؛ فإنّ لنا عن كلّ أمر تنكرونه عذراً . ألا وإنّ الله عالم من فوق سمائه وعرشه أنى كنت كارها للولاية على أمة محمد ؛ حتى اجتمع رأيُكم على ذلك ، لأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « أيّما والٍ وَلِيَ الأمر من بعدى ، أقيم على حد الصراط ،

(١) أشاروا بفضله ؛ أى عرفوا الناس به .
(٢) كذا فى د .

ونشرت الملائكة صحيفته ؛ فإن كان عادلا أنجاه الله بعدله ، وإن كان جائرا انتفض به الصراط حتى تتزايل مفاصله ، ثم يهوى إلى النار ؛ فيكون أول ما يتقيها به أنفه وحرّ وجهه » ، ولكنى لما اجتمع رأيكم لم يسعنى ترككم .

ثم التفت عليه السلام يمينا وشمالا ، فقال : ألا لا يقولنّ رجال منكم غداً قد غمرتهم الدنيا فاتخذوا العقار ، وفجّروا الأنهار ، وركبوا الخيول الفارهة ، واتخذوا الوصائف الرّوقة[1] ؛ فصار ذلك عليهم عارا وشنارا ؛ إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه ، وأصرتهم إلى حقوقهم التى يعلمون ، فينقمون ذلك ، ويستنكرون ويقولون : حرمنا ابن أبى طالب حقوقنا ! ألا وأيّما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه يرى أن الفضل له على مَنْ سواه لصحبته ، فإنّ الفضل النيّر غدا عند الله ، وثوابه وأجره على الله ، وأيّما رجل استجاب لله وللرسول ، فصدق ملّتنا ، ودخل فى ديننا ، واستقبل قبلتنا ؛ فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده ؛ فأنتم عباد الله ، والمال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية ، لافضل فيه لأحد على أحد ، وللمتقين عند الله غدا أحسن الجزاء ، وأفضل الثواب ؛ لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجرا ولا ثوابا ، وما عند الله خير للأبرار . وإذا كان غدا إن شاء الله فاغدوا علينا ؛ فإن عندنا مالا نقسمه فيكم ، ولا يتخلفنّ أحدٌ منكم ؛ عربىّ ولا عجمىّ ، كان من أهل العطاء أو لم يكن ؛ إلا حضر ؛ إذا كان مسلماً حرّاً . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . ثم نزل .

قال شيخنا أبو جعفر : وكان[2] هذا أول ما أنكروه من كلامه عليه السلام ، وأورثهم الضّغن عليه ؛ وكرهوا إعطاءه وقسمه بالسوية . فلما كان من الغد ، غدا وغدا الناس لقبض المال ؛ فقال لعبيد الله بن أبى رافع كاتبه : ابدأ بالمهاجرين فنادهم ، وأعط كلّ

(١) الروقة : الحسان .

(٢) د : « فكان » .

رجل ممن حضر ثلاثة دنانير ثم ثنّى بالأنصار فأفضل معهم مثل ذلك ؛ ومن يحضر من الناس كلهم ؛ الأحمر والأسود فاصنع به مثل ذلك .

فقال سهل بن حُنَيف : يا أمير المؤمنين ، هذا غلامي بالأمس ؛ وقد أعتقته اليوم ؛ فقال : نعطيه كما نعطيك ، فأعطى كلّ واحد منهما ثلاثة دنانير ؛ ولم يفضّل أحداً على أحد ؛ وتخلف عن هذا القَسْم يومئذ طلحة والزبير وعبد الله بن عمر وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم ؛ ورجال من قريش وغيرها .

قال : وسمع عبيدُ الله بن أبي رافع عبدَ الله بن الزبير يقول لأبيه وطلحة ومروان وسعيد : ما خفيَ علينا أمس من كلام عليّ ما يريد ؛ فقال سعيد بن العاص ـ والتفت إلى زيد بن ثابت : إياك أعني واسمعي ياجارة ؛ فقال عبيدُ الله بن أبي رافع لسعيد وعبد الله ابن الزبير : إنّ الله يقول في كتابه : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾(١) .

ثم إنّ عبيد الله بن أبي رافع أخبر عليا عليه السلام بذلك ، فقال : والله إنْ بقيت وسلمت لهم لأقيمنّهم على المحجّة البيضاء ، والطريق الواضح ، قاتل الله ابنَ العاص ! لقد عرَفَ من كلامي ونظري إليه أمس أنّي أريده وأصحابه ممن هلك فيمن هَلَك .

قال : فبينا الناس في المسجد بعد الصبح إذ طلع الزّبير وطلحة ، فجلسا ناحية عن عليّ عليه السلام ، ثم طلع مروان وسعيد وعبدالله بن الزبير ؛ فجلسوا إليهما ، ثم جاء قوم من قريش فانضمُّوا إليهم ، فتحدّثوا نجيًّا ساعة ؛ ثم قام الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، فجاء إلى عليّ عليه السلام ؛ فقال : يا أبا الحسن ؛ إنك قد وترْتنا جميعا ؛ أما أنا فقتلتَ أبي يوم بدر صَبْراً ، وخذلتَ أخي يوم الدار بالأمس ؛ وأما سعيد فقتلتَ أباه يوم بدْر في الحرب ـ وكان ثورَ قريش ـ وأما مروان فسخّفت أباه عند عثمان إذ ضمّه إليه ؛ ونحن إخوتك

(١) سورة الزخرف ٤٣ .

ونظراؤك من بنى عبد مناف ، ونحن نبايعك اليوم على أن تضعَ عنّا ما أصبناه من المال فى أيام عثمان ، وأن تقتل قتلته ؛ وإنا إن خفناك تركناك ؛ فالتحقنا بالشام .

فقال : أمَّا ما ذكرتم من وتْرى إياكم فالحقّ وتركم ، وأما وضعى عنكم ما أصبتم فليس لى أن أضع حق الله عنكم ولا عن غيركم ، وأما قتلى قتلة عثمان فلو لزمنى قتلهم اليوم لقتلتُهم أمس ؛ ولكنْ لكم علىّ إن خفتمونى أن أؤمّنكم وإن خفتكم أن أسيِّركم .

فقام الوليد إلى أصحابه فحدّثهم ، وافترقوا على إظهار العداوة وإشاعة الخلاف ؛ فلما ظهر ذلك من أمرهم ، قال عمار بن ياسر لأصحابه : قوموا بنا إلى هؤلاء النَّفَر من إخوانكم فإنّه قد بلغنا عنهم ورأينا منهم ما نكره من الخلاف ، والطعن على إمامهم ؛ وقد دخل أهلُ الجفاء بينهم وبين الزُّبير والأعسر العاقّ — يعنى طلحة .

فقام أبو الهيثم وعمّار وأبو أيوب وسهْل بن حنيف وجماعة معهم، فدخلوا على علىّ عليه السلام، فقالوا: يا أمير المؤمنين ، انظر فى أمرك ، وعاتِبْ قومك ، هذا الحىّ من قريش فإنهم قد نقضُوا عهدك ، وأخلفوا وعْدك ، وقد دعونا فى السرّ إلى رفضك ، هداك الله لرشدك؛ وذاك لأنّهم كرهوا الأسوة ، وفقدوا الأثرة ، ولما آسيت بينهم وبين الأعاجم أنكروا واستشاروا عدوك وعظّموه ، وأظهروا الطلب بدم عثمان فرقةً للجماعة ، وتألفاً لأهل الضلالة . فرأيك !

فخرج علىّ عليه السلام ، فدخل المسجد ، وصعد المنبر مرتديا بطاق ، مؤتزرا ببُرْدٍ قِطْرِىّ ، متقلّدا سيفا ، متوكئا على قوس ، فقال :

أما بعد ، فإنا نحمد الله ربنا وإلهنا ووليّنا ، وولىّ النعم علينا ، الذى أصبحت نعمه علينا ظاهرة وباطنة ، امتناناً منه بغير حَوْلٍ منا ولا قوة ، ليبلُوَنا أنشكرُ أم نكفر ؛ فمن شكر زاده ومَنْ كفَر عذّبه ؛ فأفضلُ الناس عند الله منزلة ، وأقربهم من الله وسيلة ، أطوعُهم لأمره ،

وأعلمهم بطاعته ؛ وأتبعهم لسنة رسوله ، وأحياهم لكتابه ؛ ليس لأحد عندنا فضلٌ إلا بطاعة الله وطاعة الرسول . هذا كتاب الله بين أظهرنا ، وعهد رسول الله وسيرته فينا ، لا يجهلُ ذلك إلا جاهلٌ عاند عن الحق منكر ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[1].

ثم صاح بأعلى صوته : أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول ، فإنْ تولّيتم فإنّ الله لا يحبُّ الكافرين .

ثم قال : يامعشر المهاجرين والأنصار : أتمنّون على الله ورسوله بإسلامكم ، بل الله يمنّ عليكم أنْ هداكم للإيمان إنْ كنتم صادقين .

ثم قال : أنا أبو الحسن — وكان يقولها إذا غضب — ثم قال : ألا إنّ هذه الدنيا التي أصبحتم تمنّونها وترغبون فيها ، وأصبحت تغضبكم وترضيكم ، ليست بداركم ولا منزلكم الذي خُلقتم له ؛ فلا تغرّنكم فقد حذّرتكموها ، واستتموا نعم الله عليكم بالصّبر لأنفسكم على طاعة الله ، والذلّ لحكمه جلّ ثناؤه ، فأمّا هذا الفيء فليس لأحدٍ على أحد فيه أثرة ، وقد فرغ الله من قسمته ، فهو مال الله ، وأنتم عباد الله المسلمون ، وهذا كتاب الله به أقررنا وله أسلمنا ، وعهدُ نبينا بين أظهرنا ، فمن لم يرضَ به فليتولّ كيف شاء ، فإنّ العامل بطاعة الله والحاكم بحكم الله لا وحشة عليه .

ثم نزل عن المنبر ، فصلّى ركعتين ، ثم بعث بعمار بن ياسر ، وعبد الرحمن بن حسل القرشي إلى طلحة والزبير ، وهما في ناحية المسجد ، فأتياهما فدعواهما ، فقاما حتى جلسا إليه عليه السلام ، فقال لهما : نشدتكما الله ، هل جئتماني طائعين للبيعة ، ودعوتماني إليها ، وأنا كارهٌ لها ؟ قالا : نعم ، فقال : غير مجبرين ولا مقسورين ، فأسلمتماني بيعتكما وأعطيتماني عهدكما ؟

---

(١) سورة الحجرات ١٣ .

قالا : نعم ، قال : فما دعاكما بعدُ إلى ما أرى ؟ قالا : أعطيناك بيعتنا على ألّا تقضى الأمور ولا تقطعها دوننا ؛ وأن تستشيرنا فى كلّ أمر ولا تستبدّ بذلك علينا ، ولنا من الفضل على غيرنا ما قد علمت ؛ فأنت تقسم القَسْم وتقطع الأمر ، وتمضى الحكم بغير مشاورتنا ولا علمنا .

فقال : لقد نقمتما يسيرا ، وأرجأتما كثيرا ؛ فاستغفرا الله يغفر لكما . ألا تخبرانني ، أدفعتكما عن حقّ وجب لكما فظلمتكما إياه ؟ قالا : معاذ الله ! قال : فهل استأثرتُ من هذا المال لنفسى بشىء ؟ قالا : معاذ الله ! قال : أفوقع حُكْم أو حقّ لأحد من المسلمين فجهلته أو ضعفت عنه ؟ قالا : معاذ الله ! قال : فما الذى كرهتما من أمرى حتى رأيتما خلافى ؟ قالا : خلافك عمر بن الخطاب فى القَسْم ؛ أنك جعلت حقّنا فى القَسْم كحقّ غيرنا ، وسوّيت بيننا وبين من لا يماثلنا فيما أفاء الله تعالى علينا بأسيافنا ورماحنا ، وأوجفنا[1] عليه بخيلنا ورجلنا ، وظهرتْ عليه دعوتنا ، وأخذناه قسرا قهرا ، ممن لا يرى الإسلام إلا كرها . فقال : فأمّا ما ذكرتماه من الاستشارة بكما فوالله ما كانت لى فى الولاية رغبة ، ولكنكم دعوتمونى إليها ، وجعلتمونى عليها ؛ فخفت أن أردّكم فتختلف الأمة ، فلما أفضت إلىّ نظرتُ فى كتاب الله وسنة رسوله فأمضيت ما دلّانى عليه واتّبعته ، ولم أحتجْ إلى آرائكما فيه ، ولا رأى غيركما ، ولو وقع حكمٌ ليس فى كتاب الله بيانهُ ولا فى السنة برهانه ، واحتيج إلى المشاورة فيه لشاورتكما فيه ؛ وأما القَسْم والأسوة ؛ فإن ذلك أمر لم أحكم فيه بادئ بدء ! قد وجدتُ أنا وأنتما رسول الله صلى الله عليه وآله يحكم بذلك ، وكتاب الله ناطق به ، وهو الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . وأما قولكما : جعلت فيئنا وما أفاءته سيوفنا ورماحنا ، سواء بيننا وبين غيرنا ، فقديما سبق إلى الإسلام قوم ونصروه بسيوفهم ورماحهم ، فلم يفضّلهم رسول الله صلى الله عليه وآله فى القَسْم ، ولا آثرهم بالسبْق ، والله

(١) ما أوجفنا : ما أعملنا .

سبحانه سوفي السابق والمجاهد يوم القيامة أعمالهم ، وليس لكما والله عندي ولا لغيركما إلا هذا. أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق ، وألهمنا وإياكم الصبر . ثم قال : رحم الله امرأ رأى حقًّا فأعان عليه ، ورأى جَوْراً فردّه ، وكان عوناً للحق على من خالفه .

* * *

قال شيخنا أبو جعفر : وقد روى أنهما قالا له وقت البيعة : نُبايعك على أنا شركاؤك في هذا الأمر ، فقال لهما : لا ، ولكنكما شريكاى في القوة ، لا أستأثر عليكما ولا على عبد حبشي مجدّع بدرهم فما دونه ، لا أنا ولا وَلَداى هذان ، فإن أبيتما إلا لفظ الشركة ، فأنتما عَوْنان لي عند العجز والفاقة ، لا عند القوة والاستقامة .

قال أبو جعفر : فاشترطا مالا يجوز في عَقْد الأمانة ، وشرط عليه السلام لهما مايجب في الدِّين والشريعة .

قال رحمه الله تعالى : وقد رُوِيَ أيضاً أن الزبير قال في ملأ من الناس : هذا جزاؤنا من عليّ ! قمنا له في أمر عثمان حتى قُتِل ، فلما بلغ بنا ما أراد جعل فوقنا مَنْ كنّا فوقه .

وقال طلحة : مااللوم إلا علينا ، كنّا معه أهل الشورى ثلاثة ، فكرهه أحدنا — يعنى سعداً — وبايعناه ، فأعطيناه ما في أيدينا ، ومنَعنا ما في يده ، فأصبحنا قد أخطأنا اليوم مارجوناه أمس ، ولا نرجو غداً ما أخطأنا اليوم .

* * *

فإن قلت : فإنّ أبا بكر قَسَم بالسواء ، كما قسمه أمير المؤمنين عليه السلام ، ولم ينكروا ذلك ، كما أنكروه أيام أمير المؤمنين عليه السلام ، فما الفرق بين الحالتين ؟

قلت : إنّ أبا بكر قَسَم محتذياً لقَسْم[1] رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلما وَلِيَ عمر الخلافة ، وفضّل قوماً على قوم ألفوا ذلك ، ونسُوا تلك القسمة الأولى ، وطالت أيام عمر ،

(١) ا : « محتذياً بالقسم رسول الله » .

وأشربَتْ قلوبهم حُبَّ المال ، وكثرةَ المغنم . وأما الذين اهتضموا فقنعوا ومرّنوا على القناعة ، ولم يخطر لأحد من الفريقين له أنّ هذه الحال تنتقض أو تتغيّر بوجهٍ ما ، فلما ولِيَ عثمان أجرَى الأمر على ما كان عمر يُجريه ، فازداد وثوقُ القوم بذلك ، ومن ألِفَ أمراً أشقّ عليه فراقه ، وتغيير العادة فيه ، فلما ولي أمير المؤمنين عليه السلام أراد أن يردّ الأمر إلى ما كان في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وأبي بكر ، وقد نسي ذلك ورفض وتخلل بين الزمانين اثنتان وعشرون سنة، فشق ذلك عليهم، وأنكروه وأكبروه، حتى حدَث ما حدث من نقض البيعة ، ومفارقة الطاعة ، ولله أمر هو بالغه !



(٩٢)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصل :

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ ؛ أَيُّهَا النَّاسُ ، فَإِنِّي فَقَأْتُ عَيْنَ الْفِتْنَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِئَ عَلَيْهَا أَحَدٌ غَيْرِي بَعْدَ أَنْ مَاجَ غَيْهَبُهَا ، وَاشْتَدَّ كَلَبُهَا .

فَاسْأَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ السَّاعَةِ ، وَلَا عَنْ فِئَةٍ تَهْدِي مِائَةً وَتُضِلُّ مِائَةً إِلَّا أَنْبَأْتُكُمْ[1] بِنَاعِقِهَا وَقَائِدِهَا وَسَائِقِهَا ، وَمُنَاخِ رِكَابِهَا ، وَمَحَطِّ رِحَالِهَا ، وَمَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَهْلِهَا قَتْلاً ، وَمَنْ يَمُوتُ مِنْهُمْ مَوْتاً .

وَلَوْ قَدْ فَقَدْتُمُونِي وَنَزَلَتْ بِكُمْ كَرَائِهُ الْأُمُورِ ، وَحَوَازِبُ الْخُطُوبِ ، لَأَطْرَقَ كَثِيرٌ مِنَ السَّائِلِينَ ، وَفَشِلَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَسْؤُولِينَ ؛ وَذَلِكَ إِذَا قَلَصَتْ حَرْبُكُمْ ، وَشَمَّرَتْ عَنْ سَاقٍ ؛ وَكَانَتِ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ ضِيقاً ، تَسْتَطِيلُونَ أَيَّامَ الْبَلَاءِ عَلَيْكُمْ ، حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ لِبَقِيَّةِ الْأَبْرَارِ مِنْكُمْ .

إِنَّ الْفِتَنَ إِذَا أَقْبَلَتْ شَبَّهَتْ ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ نَبَّهَتْ ؛ يُنْكَرْنَ مُقْبِلَاتٍ ، وَيُعْرَفْنَ مُدْبِرَاتٍ ، يَحُمْنَ حَوْمَ الرِّيَاحِ يُصِبْنَ بَلَداً ، وَيُخْطِئْنَ بَلَداً .

أَلَا وَإِنَّ أَخْوَفَ الْفِتَنِ عِنْدِي عَلَيْكُمْ فِتْنَةُ بَنِي أُمَيَّةَ ؛ فَإِنَّهَا فِتْنَةٌ عَمْيَاءُ مُظْلِمَةٌ عَمَّتْ خُطَّتُهَا ، وَخَصَّتْ بَلِيَّتُهَا ، وَأَصَابَ الْبَلَاءُ مَنْ أَبْصَرَ فِيهَا ، وَأَخْطَأَ الْبَلَاءُ مَنْ عَمِيَ عَنْهَا .

وَايْمُ اللهِ لَتَجِدُنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَكُمْ أَرْبَابَ سُوءٍ بَعْدِي كَالنَّابِ الضَّرُوسِ ، تَعْذِمُ

---

(١) مخطوطة النهج : « نبأتكم » .

رِجْلِهَا ، وَتَخْبِطُ بِيَدِهَا ، وَتَزْبِنُ بِرِجْلِهَا ، وَتَمْنَعُ دَرَّهَا ، لَا يَزَالُونَ بِكُمْ حَتَّىٰ لَا يَتْرُكُوا مِنْكُمْ إِلَّا نَافِعاً لَهُمْ ؛ أَوْ غَيْرَ ضَائِرٍ بِهِمْ .

وَلَا يَزَالُ بَلَاؤُهُمْ عَنْكُمْ حَتَّىٰ لَا يَكُونَ انْتِصَارُ أَحَدِكُمْ مِنْهُمْ إِلَّا مِثْلَ انْتِصَارِ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ ؛ وَالصَّاحِبِ مِنْ مُسْتَصْحِبِهِ ، تَرِدُ عَلَيْكُمْ فِتْنَتُهُمْ شَوْهَاءَ مَخْشِيَّةً ، وَقِطَعاً جَاهِلِيَّةً ، لَيْسَ فِيهَا مَنَارُ هُدًى ، وَلَا عَلَمٌ يُرَىٰ ، نَحْنُ أَهْلَ الْبَيْتِ مِنْهَا بِنَجَاةٍ ، وَلَسْنَا فِيهَا بِدُعَاةٍ ، ثُمَّ يُفَرِّجُهَا اللهُ عَنْكُمْ كَتَفْرِيجِ الْأَدِيمِ ، بِمَنْ يَسُومُهُمْ خَسْفاً ، وَيَسُوقُهُمْ عُنْفاً ، وَيَسْقِيهِمْ بِكَأْسٍ مُصَبَّرَةٍ لَا يُعْطِيهِمْ إِلَّا السَّيْفَ ، وَلَا يُحْلِسُهُمْ إِلَّا الْخَوْفَ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَوَدُّ قُرَيْشٌ بِالدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لَوْ يَرَوْنَنِي مَقَاماً وَاحِداً ، وَلَوْ قَدْرَ جَزْرِ جَزُورٍ ؛ لِأَقْبَلَ مِنْهُمْ مَا أَطْلُبُ الْيَوْمَ بَعْضَهُ فَلَا يُعْطُونَنِيهِ .



الشَّرْحُ

فقأتُ عينَه ، أي بخقتُها ، وتفقّأت السحابة عن مائها : تشقّقت ، وتفقّأ الدمّل والقرح ، ومعنى فقئه عليه السلام عينَ الفتنة ، إقدامه عليها حتى أطفأ نارها ، كأنه جعل للفتنة عيناً محدقة يهابها الناس ، فأقدم هو عليها ، ففقأ عينَها ، فسكنت بعد حركتها وهيجانها . وهذا من باب الاستعارة ، وإنما قال : « ولم يكن ليجترئ عليها أحد غيري » ، لأنّ الناس كلَّهم كانوا يهابون قتال أهل القبلة ، ولا يعلمون كيف يقاتلونهم ، هل يتبعُون مولّيهم أم لا ؟ وهل يُجْهِزُون على جريحهم أم لا ؟ وهل يقسّمون فيئهم أم لا ؟ وكانوا يستعظمُون قتال مَنْ يؤذّن كأذاننا ، ويصلّي كصلاتنا ، واستعظموا أيضاً حربَ عائشة وحربَ طلحة والزبير ، لمكانهم في الإسلام ، وتوقّف جماعتهم عن الدخول في تلك الحروب ، كالأحنف ابن قيس وغيره ، فلولا أنّ عليّاً اجترأ على سلّ السيف فيها ما أقدم أحدٌ عليها ، حتى

الحسن عليه السلام ابنه ، أشار عليه ألا يبرح عَرْصة المدينة ، ونهاه عن المسير إلى البصرة، حتى قال له منكرا عليه إنكاره : ولا تزال تخِنّ خَنين الأَمَة ! وقد روى ابنُ هلال صاحب كتاب " الغارات " أنه كلّم أباه في قتال أهل البصرة، بكلام أغضبه ، فرماه ببيضة حديد عقرتْ ساقه ، فعولج منها شهرين .

والغيهب : الظلمة ، والجمع غياهب . وإنما قال : « بعد ما ماج غيهبها » ، لأنه أراد: بعد ماعمّ ضلالُها فشمل ، فكنّى عن الضلال بالغيهب ، وكنّى عن العُموم والشمول بالتموّج ، لأن الظلمة إذا تموّجت شملت أماكن كثيرة غير الأماكن التي تشملها لو كانت ساكنة . واشتدّ كَلَبُها ، أي شرّها وأذاها . ويقال للقحط الشديد: كَلَب ، وكذلك للقرّ الشديد .

ثم قال عليه السلام : « سَلُونى قبل أن تفقدونى » ، روى صاحب كتاب " الاستيعاب " وهو أبو عمر محمد بن عبد البرّ عن جماعة من الرواة والمحدّثين ، قالوا : لم يقلْ أحدٌ من الصحابة رضى الله عنهم: « سَلُونى » إلا علىّ بن أبى طالب .وروى شيخنا أبو جعفر الإسكافى فى كتاب " نقض العثمانية " عن علىّ بن الجَعْد ، عن ابن شُبْرمة،قال: ليس لأحد من الناس أن يقول عَلَى المنبر : « سَلُونى » إلا علىّ بن أبى طالب عليه السلام.

والفئة : الطائفة ؛ والهاء عوض من « الياء » التى نقصت من وسطه ، وأصله « فىء » مثال « فيع » لأنه من فاء ، ويجمع على فئات ؛ مثل شيات وهبات ولدات .

وناعقها : الداعى إليها ، من نَعيق الرّاعى بغنمه ، وهو صوته نَعَق ينعق بالكسر نعيقا ونُعاقا ، أى صاح بها وزجرها . قال الأخطل :

فانْعَقْ بضأنكَ ياجرير فإنّما منّتك نفسُك فى الخلاء ضلالا [1]

---

(١) ديوانه ٥٠

فأمّا الغراب ، فيقال: نَغَق ، بالغين المعجمة ينغق بالكسر أيضا ، وحكى ابن كَيْسان « نَعَق الغراب » أيضا بعين غير معجمة .

والرِّكاب: الإبل، واحدتها راحلة، ولا واحد لها من لفظها، وجمعها رُكُب، مثل كتاب وكُتب . ويقال : زيْتٌ رِكابيّ ، لأنه يحمل من الشام عليها .

والمُناخ ، بضمّ الميم ، ومَحطّ بفتحها ، يجوز أن يكونا مصدرين ، وأنْ يكونا مكانين، أما كونُ المُناخ مصدرا، فلأنه كالمقام الذى بمعنى الإقامة ، وأما كون المحطّ مصدرا فلأنه كالمرد فى قوله سبحانه : ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ ﴾[1] ، وأما كونهما موضعين فلأن المناخ من أنخت الجمل ، لا من ناخ الجمل، لأنه لم يأت ، والفعل إذا جاوز الثلاثة فالموضع منه يأتى مضموم الميم ، لأنه مشبه ببنات الأربعة ، نحو دحرج ، وهذا مُدَحرجنا ، ومن قال : هذا مُقام بنى فلان ، أى موضع مقامهم جعله كا جعلناه نحن، من أقام يقيم ، لا من قام يقوم ، وأما المحطّ ، فإنه كالمَقتل موضع القتل، يقال: مقتل الرجُل بين فكيه ، ويقال للأعضاء التى إذا أصيب الإنسان فيها هلك : مقاتل ، ووجه المماثلة كونهما مضمومى الميم .

* * *

[فصل فى ذكر أمور غيبية ؛ أخبر بها الإمام ثم تحققت]

واعلم أنه عليه السلام قد أقسم فى هذا الفصل بالله الذى نفسه بيده، أنّهم لا يسألونه عن أمر يحدث بينهم وبين القيامة إلّا أخبرهم به ، وأنّه ما صحّ من طائفة من الناس يهتدى بها مائة وتضلّ بها مائة، إلا وهو مخبرٌ لهم ـ إن سألوه ـ برعاتها وقائدها وسائقها ومواضع نزول ركابها وخيولها ، ومَنْ يقتل منها قتلا ، ومَنْ يموت منها موتا ، وهذه الدعوى ليست منه عليه السلام ادّعاء الرّبوبية ، ولا ادّعاء النبوة ، ولكنه كان يقول : إن رسول الله صلى

(١) سورة غافر ٤٣

الله عليه وآله أخبره بذلك ، ولقد امتحنّا إخباره فوجدناه موافقا ، فاستدللنا بذلك على صدق الدعوى المذكورة ، كإخباره عن الضربة يُضرب بها فى رأسه فتخضب لحيته ، وإخباره عن قتل الحسين ابنه عليهما السلام ، وماقاله فى كربلاء حيث مرّ بها ، وإخباره بملك معاوية الأمر من بعده ، وإخباره عن الحجاج ، وعن يوسف بن عمر ، وما أخبر به من أمر الخوارج بالنهروان ، وما قدمه إلى أصحابه من إخباره بقتل من يقتل منهم ، وصَلب مَنْ يُصْلَب ، وإخباره بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين ، وإخباره بعدة الجيش الوارد إليه من الكوفة لما شَخَص عليه السلام إلى البصرة لحرب أهلها ، وإخباره عن عبدالله بن الزبير ، وقوله فيه : « خبّ ضبّ ، يروم أمراً ولا يدركه ، ينصب حبالة الدين لاصطياد الدنيا ، وهو بعد مصلوب قريش » وكإخباره عن هلاك البصرة بالغرق ، وهلاكها تارة أخرى بالزّنج ، وهو الذى صحّفه قوم فقالوا : بالريح ، وكإخباره عن ظهور الرايات السّود من خُراسان ، وتنصيصه على قوم من أهلها يعرفون ببنى رزيق - بتقديم المهملة - وهم آل مصعب الذين منهم طاهر بن الحسين وولده وإسحاق بن إبراهيم ، وكانوا هم وسلفهم دعاة الدولة العباسية ، وكإخباره عن الأئمة الذين ظهروا من ولده بطبرستان ، كالناصر والداعى وغيرهما ، فى قوله عليه السلام : « وإن لآل محمد بالطالقان لكنزاً سيظهره الله إذا شاء دعاؤه حق يقوم بإذن الله فيدعو إلى دين الله » ، وكإخباره عن مقتل النفس الزّكية بالمدينة ، وقوله : « إنه يقتل عند أحجار الزيت » ، وكقوله عن أخيه إبراهيم المقتول بباب حمزة : « يقتل بعد أن يظهر و يُقهر بعد أن يقهر » ، وقوله فيه أيضا : « يأتيه سهم غَرْب[1] يكون فيه منيته فيا بؤسا للرامى شَلّت يده ، ووهن عَضُده » ، وكإخباره عن قتلى وَجّ ، وقوله فيهم : « هم خير أهل الأرض » .

وكإخباره عن المملكة العلوية بالغرب ، وتصريحه بذكر كتامة ، وهم الذين نصروا أبا عبد الله الداعى المعلّم . وكقوله وهو يشير إلى أبى عبد الله المهدى : وهو أولهم ثم يظهر

(١) سهم غرب ؛ أى لا يدرى راميه .

صاحب القَيْروان النضّ البَضّ ، ذو النسب المحض ،المنتجَب من سلالة ذى البداء، المسجّى بالرداء ، وكان عبيد الله المهدى أبيض[1] مترفاً مشرباً بحُمرة ، رخْص البدن ، تارّ[2] الأطراف . وذو البداء إسماعيل بن جعفر بن محمد عليهما السلام ، وهو المسجّى بالرداء ، لأنّ أباه أبا عبدالله جعفراً سجّاه بردائه لما مات ، وأدخل إليه وجُوه الشيعة يشاهدونه ، ليعلموا موته ، وتزول عنهم الشبهة فى أمره .

وكإخباره عن بنى بويه بقوله فيهم : « ويخرج من دَيْلمانَ بنو الصّيّاد » ، إشارة إليهم . وكان أبوهم صياد السمك يصيدُ منه بيده ما يتقوت هو وعياله بثمنه ، فأخرج الله تعالى من ولده لصلبه ملوكاً ثلاثة ، ونشر ذرّيتهم حتى ضربت الأمثال بملكهم . وكقوله عليه السلام فيهم : « ثم يستشرى أمرُهم حتى يملكوا الزّوراء ويخلعوا الخلفاء » فقال له قائل : فكم مدّتهم يا أمير المؤمنين ؟ فقال : « مائة أو تزيد قليلا » . وكقوله فيهم : « والمترفُ ابن الأجذم ، يقتله ابنُ عمّه على دِجْلة » ، وهو إشارة إلى عزّ الدولة بختيار بن معز الدولة أبى الحسين ، وكان معزّ الدولة أقطع اليد ، قطعت يده للنكوص فى الحرب ، وكان ابنه عزّ الدولة بختيار مترفاً ، صاحب لهو وشرب ، وقتله عَضُد الدولة فنّاخسرو ، ابن عمه بقصر الجصّ على دِجْلة فى الحرب ، وسلبه ملكه . فأما خلعهم للخلفاء فإنّ معز الدولة خلع المستكفى ، ورتّب عوضه المطيع ، وبهاء الدولة أبا نصر بن عضد الدولة خلع الطائع ورتّب عوضه القادر ، وكانت مدة ملكهم كما أخبر به عليه السلام .

وكإخباره عليه السلام لعبد الله بن العباس رحمه الله تعالى عن انتقال الأمر إلى أولاده ، فإنّ على بن عبد الله لما ولِدَ ، أخرجه أبوه عبدالله إلى على عليه السلام ، فأخذه وتفَلَ فى فيه

---

(١) ساقطة من ب .
(٢) التار : الممتلىء جسمه وعظمه رياً .

وحنّكه بتمرة قد لاكها ، ودفعه إليه ، وقال : خذ إليك أبا الأملاك . هكذا الرواية الصحيحة ، وهي التي ذكرها أبو العباس المبرّد في كتاب « الكامل »[1] ، وليست الرواية التي يُذكر فيها العدد بصحيحة ولا منقولة من كتاب معتمد عليه .

وكم له من الإخبار عن الغيوب الجارية هذا المجرى ، مما لو أردنا استقصاءه لكسرنا له كراريس كثيرة ، وكتب السير تشتمل عليها مشروحة .

فإن قلت : لماذا غلا الناس في أمير المؤمنين عليه السلام ، فادّعوا فيه الإلهية لإخباره عن الغيوب التي شاهدوا صدقها عياناً ، ولم يغلوا في رسول الله صلى الله عليه وآله فيدّعوا له الإلهية ، وأخباره عن الغيوب الصادقة قد سمعوها وعلموها يقيناً ، وهو كان أولى بذلك ، لأنه الأصلُ المتبوع ، ومعجزاته أعظم ، وأخباره عن الغيوب أكثر ؟

قلت : إنّ الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وآله ، وشاهدوا معجزاته ، وسمعوا إخباره عن الغيوب الصادقة عياناً ، كانوا أشدّ آراء ، وأعظم أحلاماً ، وأوفر عقولاً من تلك الطائفة الضعيفة العقول ، السخيفة الأحلام ، الذين رأوا أمير المؤمنين عليه السلام في آخر أيامه ، كعبد الله بن سبأ وأصحابه ، فإنهم كانوا من ركاكة البصائر وضعفها على حال مشهورة ، فلا عجب عن مثلهم أن تستخفّهم المعجزاتُ ، فيعتقدوا في صاحبها أنّ الجوهر الإلهيّ قد حلّه ، لاعتقادهم أنه لا يصحّ من البشر هذا إلا بالحلول ، وقد قيل : إن جماعة من هؤلاء كانوا من نَسْل النصارى واليهود ، وقد كانوا سمعوا من آبائهم وسلفهم القول بالحلول في أنبيائهم ورؤسائهم ، فاعتقدوا فيه عليه السلام مثل ذلك . ويجوز أن يكون أصل هذه المقالة من قوم مُلحدين أرادوا إدخال الإلحاد في دين الإسلام ، فذهبوا إلى ذلك ، ولو كانوا في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله لقالوا فيه مثل هذه المقالة ، إضلالاً لأهل

---

(١) الكامل ٢ : ٢١٧ .

الإسلام ، وقصداً لإيقاع الشبهة فى قلوبهم ، ولم يكن فى الصحابة[1] مثل هؤلاء ، ولكن قد كان فيهم منافقون وزنادقة ، ولم يهتدوا إلى هــــذه الفتنة ، ولا خطر لهم مثل هذه المكيدة .

ومما يقدح لى من الفرق بين هؤلاء القوم وبين العرب الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وآله ، أنّ هؤلاء من العراق وساكنى الكوفة ، وطينة العراق مازالت تنبت أرباب الأهواء ، وأصحاب النحل العجيبة والمذاهب البديعة ، وأهل هذا الإقليم أهل بَصَر وتدقيق ونظر ، وبحث عن الآراء والعقائد ، وشُبَهٍ معترضة فى المذاهب ، وقد كان منهم فى أيام الأكاسرة مثل مانى وديصان ومَزْدك وغيرهم ، وليست طينة الحجاز هذه الطينة ، ولا أذهان أهل الحجاز هذه الأذهان ، والغالب على أهل الحجاز الجفاء والعَجْرفية وخشونة الطبع ، ومن سكن المدن منهم كأهل مكة والمدينة والطائف فطباعهم قريبة من طباع أهل البادية بالمجاورة ، ولم يكن فيهم من قبلُ حكيم ولا فيلسوف ولا صاحب نظر وجدل ، ولا موقع شبهة ، ولا مبتدع نِحْلة ، ولهذا نجد مقالة الغلاة طارئة وناشئة من حيث سكن علىّ عليه السلام بالعراق والكوفة ، لا فى أيام مقامه بالمدينة ، وهى أكثر عمره .

فهذا مالاح لى من الفرق بين الرجلين فى المعنى المقدم ذكره .

* * *

فإن قلت : لماذا قال عن فئة تَهدى مائة ؟ وما فائدة التقييد بهذا العدد ؟

قلت : لأنّ مادون المائة حقير تافه لا يعتدّ به ليذكر ويخبر عنه ، فكأنه قال : مائة فصاعدا .

قوله عليه السلام : « كرائه الأمور » جمع كريهة وهى الشدة فى الحرب . وحوازب الخطوب : جمع حازب ، وحَزَبه الأمر ، أى دَهِمه .

(١) كذا فى ا ، ب ، ح ، وفى د « أصحابه » .

وفشل ؛ جبن ؛ فإن قلت : أما فشل المسئول فمعلوم ، فما الوجه فى إطراق السائل ؟

قلت : لشدة الأمر وصعوبته ، حتى إن السائل ليبهت ويدهش فيطرق ، ولا يستطيع السؤال .

قوله عليه السلام : « إذا فَلَصت حربكم » يروى بالتشديد وبالتخفيف ، ويروى : « عن حربكم » ، فمن رواه مشددا أراد انضمّت واجتمعت ، وذلك لأنه يكون أشدّ لها وأصعب من أن تتفرق فى مواطن متباعدة ، ألا ترى أن الجيوش إذا اجتمعت كلها واصطدم الفَيْلَقان ، كان الأمر أصعب وأفظع من أن تكونَ كلُّ كتيبة من تلك الجيوش تحارب كتيبة أخرى فى بلاد متفرّقة متباعدة؛ وذلك لأنّ اصطدام الفيلقين بأجمعهما هو الاستئصال الذى لاشَوَى[1] له ولا بقيًا بعده . ومن رواها بالتخفيف أراد كثرت وتزايدت ، من قولهم : قَلَصَتِ البئر ، أى ارتفع ماؤها إلى رأسها أودونه ، وهو ماء قالِص وقَلِيص ، ومن روى : « إذا قلصت عن حربكم » أراد إذا انكشفت كرائه الأمور وحوازب الخطوب عن حربكم ، أى انكشفت عنها ، والمضارع من قلص يقلِص ، بالكسر .

قوله : « وشمّرت عن ساق » ، استعارة وكناية ، يقال للجادّ فى أمره : قد شمّر عن ساق ، وذلك لأنّ سبوغ الذيل معثِرة . ويمكن أن يجرى اللفظ على حقيقته ، وذلك أن قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾[2] فسّروه فقالوا : الساق : الشدّة ، فيكون قد أراد بقوله : « وشمرت عن ساق » ، أى كشفت عن شدّة ومشقة .

ثم قال : « تستطيلون أيام البلاء » ، وذلك لأنّ أيام البؤس طويلة ، قال الشاعر :

---

(١) لا شوى له ؛ أى لا إبقاء له ؛ قال الكميت :

أجيبوا رُقَى الآسِي النِّطَاسِيّ وَاحْذَرُوا ... مطفّئةَ الرَّضْفِ التى لا شَوَى لهـا

(٢) سورة القلم ٤٢ .

فأيّام الهموم مقصّصاتٌ وأيامُ السرور تطير طيرا

وقال أبو تمام :

ثم انبرت أيامُ هجرٍ أردفتْ بجوًى أسًى فكأنّها أعوامُ[1]

قوله عليه السلام : « إن الفتن إذا أقبلت شَبَّهت » ، معناه أن الفتن عند إقبالها وابتداء حدوثها ، يلتبس أمرها ولا يُعلم الحق منها من الباطل ، إلى أن تنقضي وتدبر ، فحينئذ ينكشف حالها ، ويعلم ما كان مشتبها منها . ثم أكد عليه السلام هذا المعنى بقوله : « ينكّرن مقبلات ، ويعرّفن مدبرات » ، ومثال ذلك فتنة الجمل ، وفتنة الخوارج ، كان كثير من الناس فيها في مبدأ الأمر متوقفين ، واشتبه عليهم الحال ، ولم يعلموا موضع الحق إلى أن انقضت الفتنة ، ووضعت الحرب أوزارها ، وبان لهم صاحبُ الضلالة من صاحب الهداية .

ثم وصف الفتن ، فقال : إنها تحوم حوم الرياح ، يصبن بلداً ، ويخطئن بلدا . حام الطائر وغيرُه حول الشيء ، يحوم حَوْماً وحَوَماناً ، أي دار .

ثم ذكر أن أخوف ما يخاف عليهم فتنة بني أمية . ومعنى قوله « عمّت خطتها ، وخصت بليتها » ، أنها عمّت الناس كافة من حيث كانت رياسة شاملة لكل أحد ، ولكن حظ أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم من بليتها أعظم ، ونصيبهم فيها أوفر .

ومعنى قوله : « وأصاب البلاء مَنْ أبصر فيها ، وأخطأ البلاء من عمي عنها » ، أن العالم بارتكابهم المنكر مأثوم إذا لم ينكر ، والجاهل بذلك لا إثم عليه إذا لم ينههم عن المنكر ، لأن من لا يعلم المنكر مُنكَرا لا يلزمه إنكاره ، ولا يعني بالمنكر هاهنا

(١) ديوانه ٣ : ١٥٢ .

ما كان منكرا من الاعتقادات ، ولا مايتعلق بالأمانة ، بل الزنا وشرب الخمر ونحوهما من الأفعال القبيحة.

فإن قلت : أيّ فرق بين الأمرين ؟

قلت : لأن تلك يلحق الإثمُ مَنْ لايعلمها إذا كان متمكنا من العلم بها ، وهذه لايجب إنكارها إلا مع العلم بها ، ومن لايعلمها لايلحقه الإثم إذا كان متمكنا من العلم بها ؛ فافترق الموضوعان .

ثم أقسم عليه السلام فقال : « وايم الله » ، وأصله : وايمنُ الله ، واختلف النحويون في هذه الكلمة فعند الأكثرين منهم أن ألفها ألف وصل ، وأن « ايمن » اسم وضع للقسم هكذا بألف وصل ، وبضم الميم والنون ، قالوا : ولم يأت في الأسماء ألف وصل مفتوحة غيرها ، وتدخل عليها اللام لتأكيد الابتداء ، فتقول : لَيْمن الله فتذهب الألف ؛ قال الشاعر :

فقال فريقُ القوم لما نشدتهم نعم ، وفريقٌ لَيْمُنُ الله ماندرى[1]

وهذا الاسم مرفوع بالابتداء وخبره محذوف ، والتقدير لَيْمنُ الله قسمى ؛ فإذا خاطبت قلت « ليمنكَ » ؛ وفي حديث عروة بن الزبير : « لَيْمُنُكَ لَئِنْ كنت ابتليتَ ، لقد عافيت ، ولئن كنتَ أخذتَ لقد أبقيت »[2] . وتحذف نونه فيصير « ايم الله » بألف وصل مفتوحة وقد تكسر ، وربما حذفوا الياء ، فقالوا : « ام الله » ؛ وربما أبقوا الميم وحدها مضمومة ، فقالوا : « مُ الله » ، ثم يكسرونها لما صارت حرفا شبهوها بالباء ؛ وربما قالوا « مُنُ الله » بضم الميم والنون : « ومِنِ الله » بكسرهما : « ومَنَ الله » بفتحهما ، وذهب أبو عبيد وابن كيسان وابن دَرَسْتَوَيه إلى أنَّ « أيمن » جمع يمين ، والألف همزة قطع ، وإنما خففت

(١) اللسان ٧ : ٣٥٤ ؛ ونسبه إلى نصيب ص ١٧٨ .
(٢) النهاية لابن الأثير ٤ : ٢٦٨ .

وطرحت فى الوصل لكثرة الاستعمال ، قالوا : وكانت العرب تحلف باليمين فتقول : يمين الله لا أفعل ، قال امرؤ القيس :

فَقُلْتُ يمينَ اللهِ أبْرَحُ قاعداً وَلَوْ قطّعُوا رَأْسِي لَدَيْكِ وأوْصالِي[1]

قالوا : واليمين تجمع على « أيمن » ، قال زهير :

فتُجْمَعُ أيْمُنٌ مِنّا ومِنْكُمْ بمُقْسَمَةٍ تَمُور بها الدِّماء[2]

ثم حلفوا به ، فقالوا : أيمن الله ؛ ثم كثر فى كلامهم وخفّ على ألسنتهم ؛ حتى حذفوا منه النون كما حذفوا فى قوله « لم يكن » فقالوا « لم يك » . فأقسم عليه السلام لأصحابه أنهم سيجدون بنى أمية بعده لهم أرباب سوء ، وصدَقَ صلوات الله عليه فيما قال ، فإنّهم ساموهم سوء العذاب قتْلا وصلبا ، وحَبْسا وتشريدا فى البلاد .

ثم شبه بنى أمية بالنّاب الضّروس ، والنّاب : الناقة المسنة ، والجمع نِيب ؛ تقول : لا أفعله ما حَنّت النِّيب ، والضّروس : السيئة الخلق تعضّ حالبها .

وتعذِم بفيها : تكدم ، والعذْم : الأكل بجفاء ، وفرس عَذُوم : يعضّ بأسنانه . والزَّبْن : الدفع ؛ زبنتِ الناقة تزبِنُ ، إذا ضربت بثَفِناتها عند الحلب ، تدفع الحالب عنها . والدَّرّ : اللبن ، وفى المثل : « لادرّ دَرُّه » الأصل « لبنُه » ، ثم قيل لكل خير ، وناقة دَرُور ، أى كثيرة اللبن .

ثم قال : لا يزالون بكم قتلا وإفناء لكم حتى لا يتركوا منكم إلا من ينفعهم إبقاؤه ، أولا يضرهم ولا ينفعُهم ، قال : حتى يكون انتصار أحدكم منهم كانتصار العبد من مولاه ، أى لا انتصارَ لكم منهم ، لأنّ العبد لا ينتصر من مولاه أبدا . وقد جاء فى كلامه عليه

---

(١) ديوانه ٣٢ .

(٢) ديوانه ٧٨ مقسمة : موضع الحلف عند الأصنام ؛ وقال بعضهم : مكة ؛ لأنها تنحر بها البدن وتمور بها الدماء . وتمور : تسيل (من شرح الديوان) .

السلام فى غير هذا الموضع تتمة هذا المعنى : « إن حضر أطاعه ، وإن غاب سَبَّه » ، أى ثلبه وشتمه ، وهذه أمارة الذل ، كما قال أبو الطيب :

أَبْدُو فيسجدُ مَنْ بالسُّوء يذكرُنى ولا أعاتبه صَفْحاً وإهوانا[1]
وهكذا كنتُ فى أَهْلِى وفى وطنى إنّ النفيسَ غريبٌ أينما كانـا

قال عليه السلام : « والصاحب من مستصحبه » ، أى والتابع من متبوعه .

والشُّوه: جمع شَوْهاء، وهى القبيحة الوجه، شاهت الوجوه تشوه شَوْهاً [2]،قبُحت ، وشوّهه الله فهو مشوّه ، وهى شوهاء ، ولا يقال للذكر : أشوه . ومخشيّة : مخوفة .

وقطعا جاهلية ، شبهها بقطع السحاب لترا كبها على الناس ، وجعلها جاهلية لأنها كأفعال الجاهلية الذين لم يكن لهم دين يردعهم ، ويروى : « شوهاء » و « قطعاء » ، أى نكراء ، كالمقطوعة اليد .

قوله : « نحن أهل البيت منها بمنجاة » ، أى بمعزل ، والنجاة والنجوة : المكان المرتفع الذى تظن أنه نجاك ، ولا يعلوه السيل . ولسنا فيها بدعاة ، أى لسنا من أنصار تلك الدّعوة . و« أهلَ البيت » منصوب على الاختصاص ، كقولهم : نحن معشرَ العرب نفعل كذا ، ونحن آلَ فلان كرماء .

قوله : « كتفريج الأديم » : الأديم الجلد ، وجمعه أدُم مثل أفيق وأفُق ؛ ويجمع أيضا على « آدمة » ، كرغيف وأرغفة ، ووجه التشبيه أن الجلد ينكشف عما تحته ، فوعدهم عليه السلام بأنّ الله تعالى يكشف تلك الغماء كانكشاف الجلد عن اللحم ، بمن يسومهم خسفا ، ويوليهم ذلا .

---

(١) ديوانه ٤ : ٢٢٣ .
(٢) ساقطة من ب .

والعُنْف ، بالضم : ضدّ الرفق . وكأس مصبَّرة ممزوجة بالصَّبِر لهذا المرّ ؛ ويجوز أن يكون « مصبّرة » مملوءة إلى أصبارها ؛ وهى جوانبها ، وفى المثل : « أخذها بأصبارها » أى تامّة ، الواحد صُبر ، بالضم .

ويُحْلِسهم : يلبسهم ، أحلست البعير ألبسته الحِلْس ؛ وهو كساء رقيق يكون تحت البرذعة ، يقال : له حِلْس وحلَس ؛ مثل شِبْه وشَبَه .

والجَزُور من الإبل : يقع على الذَّكر والأنثى ، وجَزْرها : ذَبْحها .

* * *

وهذا الكلام إخبار عن ظهور المسوّدة ، وانقراض ملك بنى أمية . ووقع الأمر بموجب إخباره صلوات الله عليه ؛ حتى لقد صدق قوله : « لقد تودّ قريش ... » الكلام إلى آخره ، فإن أرباب السِّيَر كلهم نقلوا أن مروان بن محمد قال يوم الزّاب لما شاهد عبد الله بن علىّ بن عبد الله بن العباس بإزائه فى صفة خراسان : لوددت أن علىّ بن أبى طالب تحت هذه الراية بدلا من هذا الفتى ؛ والقصة طويلة وهى مشهورة[1] .

وهذه الخطبة ذكرها جماعة من أصحاب السير ، وهى متداولة منقولة مستفيضة ، خطب بها علىّ عليه السلام بعد انقضاء أمر النّهروان ، وفيها ألفاظ لم يوردها الرضىّ رحمه الله ، من ذلك قوله عليه السلام : « ولم يكن ليجترئ عليها غيرى ، ولو لم أكُ فيكم ما قوتل أصحاب الجمل والنهروان . وايمُ الله لولا أن تتكلوا فتدعُوا العمل لحدّثتكم بما قضى الله عزّ وجلّ على لسان نبيكم صلى الله عليه وآله : لمَنْ قاتلهم مبصراً لضلالتهم ، عارفا للهدى الذى نحن عليه ، سلونى قبل أن تفقدونى ، فإنّى ميّت من قريب أو مقتول ، بل قتلًا ما ينتظر أشقاها أن يخضِّب هذه بدم » . وضرب بيده إلى لحيته .

---

(١) تفصيل حوادثها فى الكامل لابن الأثير ٤ : ٣٢٧ — ٣٣١ .

ومنها فى ذكر بنى أمية : « يظهر أهلُ باطلها على أهل حقها ، حتى تُملَأ الأرض عدوانا وظلما وبدَعاً إلى أن يضع الله عز وجلّ جبروتها ، ويكسر عَمَدها ، وينزع أوتادها . ألا وإنكم مدركوها فانصروا قوماً كانوا أصحاب رايات بدر وحُنين ؛ تؤجروا ، ولا تمالئوا عليهم عدوّهم ، فتصرعكم البليّة ، وتحُلّ بكم النقمة » .

ومنها : « إلا مثل انتصار العبد من مولاه إذا رآه أطاعه ، وإن توارى عنه شتَمه . وايمُ الله لو فرّقوكم تحتَ كلّ حجر ؛ لجمعكم الله لشرّ يوم لهم » .

ومنها : « فانظروا أهل بيت نبيكم ، فإن لبَدُوا فالبدوا ، وإن استنصروكم فانصروهم ، فليفرجنّ الله الفتنة برجل منا أهلَ البيت ، بأبى ابن خيرة الإماء ؛ لا يعطيهم إلا السيف ، هَرْجاً هرجا ، موضوعا على عاتقه ثمانية أشهر ؛ حتى تقول قريش : لو كان هذا من ولد فاطمة لرحمنا ، يغريه الله ببنى أمية حتى يجعلهم حُطاما ورفاتا ، ملعونين أينما ثقفوا أُخذُوا وقُتلوا تقتيلا . سنّة الله فى الذين خَلَوْا من قبل ولن تجدَ لسنّة الله تبديلا » .

فإن قيل : لماذا قال : « ولو لم أكُ فيكم لما قوتل أهلُ الجمل وأهل النهروان » ؛ ولم يذكر صِفّين ؟ قيل : لأن الشبهة كانت فى أهل الجمل وأهل النهروان ظاهرة الالتباس ، لأنّ الزبير وطلحة مَوْعُودان بالجنة ، وعائشة موعودة أن تكون زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله فى الآخرة ؛ كما هى زوجته فى الدنيا ، وحال طلحة والزبير فى السَّبْق والجهاد والهجرة معلومة ، وحال عائشة فى محبة الرسول صلى الله عليه وآله لها وثنائه عليها ونزول القرآن فيها معلومة ؛ وأما أهل النهروان فكانوا أهلَ قرآن وعبادة واجتهاد ؛ وعزوف عن الدنيا وإقبال على أمور الآخرة ، وهم كانوا قرّاء أهل العراق وزهادهم ؛ وأما معاوية فكان فاسقا ، مشهورا بقلّة الدين والانحراف عن الإسلام ؛ وكذلك ناصره ومظاهره على أمره عمْرو بن العاص ؛ ومن اتّبعهما من طغام أهل الشام وأجلافهم وجهّال الأعراب ، فلم يكن أمرُهم خافياً فى جواز محاربتهم واستحلال قتالهم ؛ بخلاف حال من تقدّم ذكره .

فإن قيل : ومَنْ هذا الرجل الموعود به الذى قال عليه السلام عنه : « بأبي ابن خيرة الإماء » ؟ قيل : أما الإماميـة فيزعمون أنه إمامهم الثانى عشر ، وأنه ابن أمَة اسمها نرجس ، وأما أصحابنا فيزعمون أنه فاطمىٌ يولد فى مستقبل الزمان ، لأمّ ولد ، وليس بموجود الآن .

فإن قيل : فمن يكون من بنى أمية فى ذلك الوقت موجوداً ، حتى يقول عليه السلام فى أمرهم ما قال من انتقام هذا الرجل منهم ، حتى يودّوا لو أنّ عليا عليه السلام ، كان المتولّى لأمرهم عوَضاً عنه ؟

قيل : أما الإمامية فيقولون بالرجعة ، ويزعمون أنه سيعاد قوم بأعيانهم من بنى أميّة وغـيرهم ، إذا ظهر إمامهم المنتظَر ، وأنه يقطع أيدى أقوام وأرجلهم ، ويسمُل عيون بعضهم ، ويصلُب قوما آخرين ، وينتقم من أعداء آل محمد عليه السلام المتقدّمين والمتأخرين . وأما أصحابنا فيزعمون أنه سيخلق الله تعالى فى آخر الزمان رجلا من ولد فاطمة عليها السلام ليس موجودا الآن ، وأنه يملأ الأرض عدلا كما ملئت جوْرا وظلما ، وينتقم من الظالمين وينكّل بهم أشدّ النّكال ، وأنه لأم ولد ، كما قد ورد فى هـذا الأثر وفى غيره من الآثار ، وأن اسمه محمد ، كاسم رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنه إنما يظهر بعد أن يستولى على كثير من الإسلام ملك من أعقاب بنى أميّة ، وهو السفيانىّ الموعود به فى الخبر الصحيح ، من ولد أبى سفيان بن حرب بن أمية ، وأنّ الإمام الفاطمىّ يقتله ويقتل أشياعه من بنى أمية وغيرهم ، وحينئذ ينزل المسيح عليه السلام من السماء ، وتبدو أشراطُ الساعة ، وتظهر دابة الأرض ، ويبطل التكليف ، ويتحقّق قيام الأجساد عند نفخ الصور ، كما نطق به الكتاب العزيز .

فإن قيل : فإنكم قلتم فيما تقدّم : إن الوعد إنما هو بالسفّاح وبعمّه عبد الله بن عليّ ، والمسوّدة ، وما قلتموه الآن مخالف لذلك !

قيل : إن ذلك التفسير هو تفسير ما ذكره الرضيّ رحمه الله تعالى من كلام أمير المؤمنين عليه السلام فى " نهج البلاغة " وهـذا التفسير هو تفسير الزيادة التى لم يذكرها الرضيّ ، وهى قوله بأبى ابن خِيرة الإماء . وقوله : « لو كان هذا من ولد فاطمة لرحمنا » ، فلا مناقضةَ بين التفسيرين .



(٩٣)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصْـلُ :

فَتَبَارَكَ ٱللهُ ٱلَّذِى لَا يَبْلُغُهُ بُعْدُ ٱلْهِمَمِ ، وَلَا يَنَالُهُ حَدْسُ ٱلْفِطَنِ ؛ ٱلْأَوَّلُ ٱلَّذِى لَا غَايَةَ لَهُ فَيَنْتَهِى ، وَلَا آخِرَ لَهُ فَيَنْقَضِى .

* * *

الشَّـرْحُ :

البَرَكة : كثرة الخير وزيادته ، وتبارك الله منه ، وبرّكتُ ، أى دعوتُ بالبَرَكة ، وطعام بريك أى مبارك . ويقال : بارك الله لزيد وفى زيد وعلى زيد ؛ وبارك الله زيدا ، يتعدّى بنفسه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِى النَّارِ ﴾[٢] . ويحتمل « تبارك الله » معنيين : أحدُهما أنْ يُراد : تبارك خيْره وزادت نعمته وإحسانه ، وهذا دعاء . وثانيهما أن يُراد[١] به : تزايد وتعالى فى ذاته وصفاته عن أن يُقاس به غيره ، وهذا تمجيد .

قوله عليه السلام : « لا يبلغه بعدُ الهمم » أى بعد الأفكار والأنظار ، عبّر عنها بالهمم لمشابهتها إياها . وحَدْس الفِطَن : ظنها وتخمينها ، حَدَسْت أحدِس ، بالكسر .

ويُسأل عن قوله : « لا غاية له فينتهى ، ولا آخر له فينقضى » ، فيقال : إنما تدخل الفاء فيما إذا كان الثانى غير الأول ، كقولهم : ما تأتينا فتحدثَنا ، وليس الثانى هاهنا غير الأول ، لأن الانقضاء هو الآخرية بعينها ، فكأنه قال : لا آخر له ، فيكون له آخر ، وهذا لغو ، وكذلك القول فى اللفظة الأولى .

وينبغى أن يقال فى الجواب : إن المراد : لا آخر له بالإمكان والقوّة فينقضى بالفعل فيما

(١) سورة النمل ٢٧ (٢) ساقط من ب .

لا يزال ، ولا هو أيضا ممكن الوجود فيما مضى ، فيلزم أن يكون وجوده مسبوقا بالعدم ، وهو معنى قوله : « فينتهي » بل هو واجب الوجود في حالين : فيما مضى وفي المستقبل، وهذان مفهومان متغايران ، وهما العدم وإمكان العدم ، فاندفع الإشكال .

* * *

منها :

الأصلُ :

فَاسْتَوْدَعَهُمْ فِي أَفْضَلِ مُسْتَوْدَعٍ ، وَأَقَرَّهُمْ فِي خَيْرِ مُسْتَقَرٍّ ، تَنَاسَخَتْهُمْ كَرَائِمُ الْأَصْلَابِ إِلَى مُطَهَّرَاتِ الْأَرْحَامِ ؛ كُلَّمَا مَضَى مِنْهُمْ سَلَفٌ ، قَامَ مِنْهُمْ بِدِينِ اللهِ خَلَفٌ ، حَتَّى أَفْضَتْ كَرَامَةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ ؛ فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْمَعَادِنِ مَنْبِتاً، وَأَعَزِّ الْأَرُومَاتِ مَغْرِساً؛ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي صَدَعَ مِنْهَا أَنْبِيَاءَهُ؛ وَانْتَجَبَ مِنْهَا أُمَنَاءَهُ ، عِتْرَتُهُ خَيْرُ الْعِتَرِ ، وَأُسْرَتُهُ خَيْرُ الْأُسَرِ ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ الشَّجَرِ ، نَبَتَتْ فِي حَرَمٍ ، وَبَسَقَتْ فِي كَرَمٍ ؛ لَهَا فُرُوعٌ طِوَالٌ ، وَثَمَرٌ لَا يُنَالُ ؛ فَهُوَ إِمَامُ مَنِ اتَّقَى ، وَبَصِيرَةُ مَنِ اهْتَدَى .

سِرَاجٌ لَمَعَ ضَوْءُهُ ، وَشِهَابٌ سَطَعَ نُورُهُ ، وَزَنْدٌ بَرَقَ لَمْعُهُ ؛ سِيرَتُهُ الْقَصْدُ ، وَسُنَّتُهُ الرُّشْدُ ، وَكَلَامُهُ الْفَصْلُ، وَحُكْمُهُ الْعَدْلُ؛ أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ؛ وَهَفْوَةٍ عَنِ الْعَمَلِ ، وَغَبَاوَةٍ مِنَ الْأُمَمِ .

* * *

الشّرحُ :

تناسختهم بأي تناقلتهم، والتناسخ في الميراث: أنْ يموت ورثة بعد ورثة ، وأصل الميراث

قائم لم يقسّم ، كأن ذلك تناقل من واحد إلى آخر ، ومنه : نسخت الكتاب وانتسخته واستنسخته ، أى نقلت ما فيه . ويروى : « تناسلهم » .

والسّلَف : المتقدمون ، والخلف : الباقون، ويقال : خَلَف صدق بالتحريك ، وخَلْف سوء بالتسكين .

وأفضت كرامة الله إلى محمد صلى الله عليه ، أى انتهت . والأرومات : جمع أرومة وهى الأصل ، ويقال أروم بغير هاء : وصدع : شقّ ، وانتجب : اصطفى . والأسرة : رهط الرجل .

وقوله : « نبتت فى حرم » يجوز أن يعنى به مكة ، ويجوز أن يعنى به المنعة والعزّ .

وبسقت : طالت . ومعنى قوله : « وثمر لاينال » ليس على أن يريد به أن ثمرها لاينتفع به ، لأن ذلك ليس بمدح بل يريد به أن ثمرها لاينال قهرا ، ولايجنى غصبا . ويجوز أن يريد بثمرها نفسه عليه السلام ، ومَن يجرى مجراه من أهل البيت عليهم السلام ، لأنهم ثمرة تلك الشجرة .

ولا ينال ، أى لا ينال مساعيهم ومآثرهم ولا يباريهم أحد ، وقد روى فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وآله فى فضل قريش وبنى هاشم الكثير المستفيض، نحو قوله عليه السلام : « قدّموا قريشا ولا تقدّموها » ، وقوله : « الأئمة من قريش » ، وقوله : « إن الله اصطفى من العرب مَعَدّا ، واصطفى من معدّ بنى النضر بن كنانة ، واصطفى هاشما من بنى النضر ، واصطفانى من بنى هاشم » ، وقوله : « إن جبرائيل عليه السلام قال لى : يا محمد قد طفتُ الأرض شرقا وغربا فلم أجدّ فيها أكرم منك ، ولا بيتا أكرم من بنى هاشم » ، وقوله : « نقلنا من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية » ، وقوله عليه السلام : « إن الله تعالى لم يمسسّنى بسفاح فى أرومتى منذ إسماعيل بن إبراهيم إلى عبدالله

ابن عبد المطلب » ، وقوله صلى الله عليه وآله : « سادة أهل محشر ، سادة أهل الدنيا : أنا وعلى وحسن وحسين وحمزة وجعفر » ، وقوله وقد سمع رجلا ينشد :

يا أيها الرجلُ المحوِّل رحلَه   هلّا نزلتَ بآل عبد الدار ؟

أهكذا قال يا أبا بكر؟ منكراً لما سمع ، فقال أبو بكر : لا يارسول الله ، إنه لم يقل هكذا ولكنه قال :

يأيها الرجلُ المحوِّل رَحْلَهُ   هلا نزلتَ بآل عبد مناف[1] ؟

عمرو العُلا هَشَم الثريد لقومه   وَرِجالُ مكة مُسْنِتونَ عِجافُ

فسرّ صلى الله عليه وآله بذلك ، وقوله : « أذلّ الله من أذلّ قريشا » ، قالها ثلاثا ، وكقوله : « أنا النبيّ لا كذب، أنا ابن عبد المطلب » وكقوله : « الناس تبع لقريش، برّهم لبرهم ، وفاجرهم لفاجرهم » ، وكقوله : « أنا ابنُ الأكرمين »، وقوله لبني هاشم : « والله لا يُبغضُكم أحد إلا أكبّه الله على منخريه في النار » ، وقوله : « ما بال رجال يزعمون أنّ قرابتي غير نافعة ! بل إنها لنافعة ، وإنه لا يُبغِضُ أحدٌ أهلي إلا حرّمه الله الجنة » .

والأخبار الواردة فى فضائل قريش وبنى هاشم وشرفهم كثيرة جدا ، ولا نرى الإطالة ها هنا باستقصائها .

وسطع الصبح يسطع سطوعا ، أى ارتفع، والسَّطيع : الصبح. والزَّند : العود تقدح به النار ، وهو الأعلى، والزَّنْدة: السفلى فيها ثقب، وهى الأنثى، فإذا اجتمعا قيل : زَنْدان ولم يقل : « زندتان » ، تغليبا للتذكير ، والجمع زناد وأزنُد وأزناد .

والقصد : الاعتدال . وكلامه الفصل، أى الفاصل، والفارق بين الحق والباطل وهو مصدر بمعنى الفاعل ، كقولك : رجل عَدْل ، أى عادل .

والهفوة: الزّلة، هفا يهفو. والغباوة: الجهل وقلة الفطنة، يقال: غبيت عن الشيء وغبيت

---

(١) لمطرود بن كعب الخزاعي أمالي المرتضى ٢ : ٢٦٨

الشيء، أيضاً، أي عبارة إذا لم يفطن له، وفهي على الشيء كذلك، إذا لم تعرفه، وفلان فهي على «فعيل»، أي قليل الفطنة.

* * *

الأصل:

أعْمَلُوا – رَحِمَكُمُ اللهُ – عَلَى أَعْلَامٍ بَيِّنَةٍ، فَالطَّرِيقُ نَهْجٌ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ، وَأَنْتُمْ فِي دَارِ مُسْتَعْتَبٍ عَلَى مَهَلٍ وَفَرَاغٍ؛ وَالصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ، وَالْأَقْلَامُ جَارِيَةٌ، وَالْأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ، وَالْأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ، وَالتَّوْبَةُ مَسْمُوعَةٌ، وَالْأَعْمَالُ مَقْبُولَةٌ.

* * *



الشرح:

الطريق: يذكر ويؤنث، يقال: هذا الطريق الأعظم، وهذه الطريق العظمى، والجمع أطرقة وطرق.

وأعلام بيّنة، أي منار واضح. ونهج، أي واضح. ودار السلام: الجنة، ويروى: «والطريق نهج» بالواو، واو الحال.

وأنتم في دار مستعتب، أي في دار يمكنكم فيها استرضاء الخالق سبحانه، واستعتابه.

ثم شرح ذلك فقال: أنتم ممهلون متفرّغون، وصحف أعمالكم لم تطوّ بعد، وأقلام الحفظة عليكم لم تجفّ بعد، وأبدانكم صحيحة، وألسنتكم ما اعتقلت كاعتقال ألسنة المحتضرين عند الموت، وتوبتكم مسموعة وأعمالكم مقبولة، لأنكم في دار التكليف لم تخرجوا منها.

(٩٤)

الأصْـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

بَعَثَهُ وَالنَّاسُ ضُلَّالٌ فِي حَيْرَةٍ ، وَحَاطِبُونَ فِي فِتْنَةٍ ، قَدِ اسْتَهْوَتْهُمُ الْأَهْوَاءُ وَاسْتَزَلَّتْهُمُ الْكِبْرِيَاءُ، وَاسْتَخَفَّتْهُمُ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلَاءُ ؛ حَيَارَى فِي زَلْزَالٍ مِنَ الْأَمْرِ، وَبَلَاءٍ مِنَ الْجَهْلِ ، فَبَالَغَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ فِي النَّصِيحَةِ ، وَمَضَى عَلَى الطَّرِيقَةِ ، وَدَعَا إِلَى الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ [1] .



الشَّـرْحُ :

حاطبون في فتنة : جمع حاطب ؛ وهو الذي يجمع الحطب ، ويقال لمن يجمع بين الصواب والخطأ ، أو يتكلم بالغث والسمين : حاطب ليل ، لأنه لا يبصر ما يجمع في حَبْله .

وروى : « خابطون » .

واستهوتهم الأهواء : دعتهم إلى نفسها .

واستزلتهم الكبرياء : جعلتهم ذوى زلل وخطأ . واستخفتهم الجاهلية: جعلتهم ذوى خِفّة وطَيْش وخُرْق .

والزلزال ، بالفتح : الاسم ، وبالكسر : المصدر ، والزلازل : الشدائد ، ومثله في الكسر عند الاسمية والفتح عند المصدر « القَلْقال »

---

(١) ساقطة من مخطوطة النهج .

(٩٥)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

ٱلْحَمْدُ لِلهِ ٱلْأَوَّلِ فَلَا شَيْءَ قَبْلَهُ ، وَٱلْآخِرِ فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ ، وَٱلظَّاهِرِ فَلَا شَيْءَ فَوْقَهُ ، وَٱلْبَاطِنِ فَلَا شَيْءَ دُونَهُ .

الشرح

تقدير الكلام : والظاهر فلا شيء أجلى منه ، والباطن فلا شيء أخفى منه ؛ فلما كان الجلاء يستلزم العلوّ والفوقية ، والخفاء يستلزم الانخفاض والتحتيّة ، عبّر عنهما بلازمهما ، وقد تقدم الكلامُ في معنى الأول والآخر والظاهر والباطن .

وذهب أكثر المتكلّمين إلى أن الله تعالى يعدم أجزاء العالم ثم يعيدها ؛ وذهب قوم منهم إلى أنّ الإعادة إنما هي جمع الأجزاء بعد تفريقها لا غير .

واحتجّ الأولون بقوله تعالى :﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ ﴾[1]، قالوا :لما كان أولا بمعنى أنّه الموجود ولا موجود معه ، وجب أن يكون آخرا بمعنى أنه سيؤول الأمر إلى عدم كلّ شيء إلا ذاته تعالى ، كما كان أولا ، والبحث المستقصى في هــذا الباب مشروح في كتبنا الكلاميّة .

* * *

(١) سورة الحديد ٣

الأصل :

ومنها في ذكر الرسول صلى الله عليه وآله :

مُسْتَقَرُّهُ خَيْرُ مُسْتَقَرٍّ ، وَمَنْبِتُهُ أَشْرَفُ مَنْبِتٍ ؛ فِي مَعَادِنِ الْكَرَامَةِ ، وَمَمَاهِدِ السَّلَامَةِ ؛ قَدْ صُرِفَتْ نَحْوَهُ أَفْئِدَةُ الْأَبْرَارِ ، وَثُنِيَتْ إِلَيْهِ أَزِمَّةُ الْأَبْصَارِ ؛ دَفَنَ اللَّهُ بِهِ الضَّغَائِنَ ، وَأَطْفَأَ بِهِ النَّوَائِرَ ؛ أَلَّفَ بِهِ إِخْوَاناً ، وَفَرَّقَ بِهِ أَقْرَاناً ، وَأَعَزَّ بِهِ الذِّلَّةَ ، وَأَذَلَّ بِهِ الْعِزَّةَ ؛ كَلَامُهُ بَيَانٌ ، وَصَمْتُهُ لِسَانٌ .

• • •

الشرح

المهاد : الفراش ، ولما قال : « في معادن » ، وهي جمع معدن ، قال بحكم القرينة والازدواج : « ومماهد » وإن لم يكن الواحد منها « ممهداً » ، كما قالوا : الغدايا والعشايا ، ومأجورات ومأزورات ، ونحو ذلك . ويعني بالسلامة هاهنا البراءة من العيوب ، أي في نسب طاهر غير مأفون ولا معيب .

ثم قال : « قد صُرفت نحوه » ، أي نحو الرسول صلى الله عليه وآله ، ولم يقل مَنْ صرفها ، بل جعله فعلا لم يُسمَّ فاعله ، فإن شئت قلت : الصارف لها هو الله تعالى لا بالجبر كما يقوله الأشعرية ، بل بالتوفيق واللطف ، كما يقوله أصحابنا ، وإن شئت قلت : صرفها أربابها .

والضغائن : جمع ضغينة ، وهي الحقد . ضَغِنت على فلان بالكسر ضِغْناً والضِّغْن الاسم ، كالضغينة ، وقد تضاغنوا واضطغنوا : انطوَوْا على الأحقاد . ودَفَنَها : أكمنها وأخفاها . وألّف به إخوانا ، لأن الإسلام قد ألّف بين المتباعدين ، وفرق بين المتقاربين ، وقال

تعالى : ﴿ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [1] ، قطع ما بين حمزة وأبي لهب مع تقاربهما ، وألّف بين علي عليه السلام وعمّار مع تباعدهما .

قوله عليه السلام : « وَصَمْتُهُ لسان » ، لا يعني باللسان هاهنا الجارحة نفسها ، بل الكلام الصادر عنها ، كقول الأعشى [2] :

• إني أتتني لِسَانٌ لا أُسرّ بها •

قالوا في تفسيره : أراد الكلمة ، وجمعه على هذا ألسن ، لأنه مؤنث ، كقولك : ذراع وأذرع ، فأمّا جمع لسان الجارحة فألسنة ، لأنه مذكّر ، كقولك : حمار وأحمرة ، يقول عليه السلام : إن كلامَ الرّسول صلى الله عليه وآله بيان ، والبيان إخراج الشيء من حَيِّز الخفاء إلى حَيِّز الوضوح ، وصمته صلى الله عليه وآله كلام وقول مفيد ، أي أنّ صمته لا يخلو من فائدة ، فكأنه كلام ، وهذا من باب التشبيه المحذوف الأداة ، كقولهم : يده بَحْرٌ ، ووجهه بدر .

---

(١) سورة آل عمران ١٠٣

(٢) هو أعشى باهلة ؛ وتتمته :

• مِنْ عَلْوَ لا كَذِبٌ فيها وَلا سَخَرُ •

ديوان الأعشى ٢٦٦ .

(٩٦)

ومن كلام له عليه السلام :

الأصل :

ولئن أمهل الله الظالم فلن يفوت أخذه ، وهو له بالمرصاد ، على مجاز طريقه ، وبموضع[1] الشجا من مساغ ريقه .

أما والذي نفسي بيده ؛ ليظهرن هؤلاء القوم عليكم ؛ ليس لأنهم أولى بالحق منكم ؛ ولكن لإسراعهم إلى باطلهم[2] ، وإبطائكم عن حقي ، ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها ، وأصبحت أخاف ظلم رعيتي .

استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا ، وأسمعتكم فلم تسمعوا ، ودعوتكم سرا وجهرا فلم تستجيبوا ، ونصحت لكم فلم تقبلوا .

شهود[3] كغياب ، وعبيد كأرباب ! أتلو عليكم الحكم فتنفرون منها ، وأعظكم بالموعظة البالغة فتتفرقون عنها ، وأحثكم على جهاد أهل البغي فما آتي على آخر قولي حتى أراكم متفرقين أيادي سبا . ترجعون إلى مجالسكم ، وتتخادعون عن مواعظكم . أقومكم غدوة وترجعون إلي عشية ؛ كظهر الحنية عجز المقوم ، وأعضل المقوم .

أيها القوم ، الشاهدة أبدانهم ، الغائبة عنهم عقولهم ، المختلفة أهواؤهم ، المبتلى بهم أمراؤهم ؛ صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه ، وصاحب أهل الشام يعصي الله وهم يطيعونه ! لوددت والله أن معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم ، فأخذ مني عشرة منكم وأعطاني رجلا منهم !

---

(١) مخطوطة النهج : « وموضع » .

(٢) مخطوطة النهج : « باطل صاحبهم » .

(٣) مخطوطة النهج : « أشهود » .

يا أَهْلَ الْكُوفَةِ ، مُنِيتُ مِنْكُمْ بِثَلَاثٍ وَاثْنَتَيْنِ : صُمٌّ ذَوُو أَسْمَاعٍ ، وَبُكْمٌ ذَوُو كَلَامٍ ، وَعُمْيٌ ذَوُو أَبْصَارٍ ؛ لَا أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ ، وَلَا إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ الْبَلَاءِ .

تَرِبَتْ أَيْدِيكُمْ ! يَا أَشْبَاهَ الْإِبِلِ غَابَ عَنْهَا رُعَاتُهَا ! كُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ تَفَرَّقَتْ مِنْ آخَرَ .

وَاللهِ لَكَأَنِّي بِكُمْ فِيمَا إِخَالُكُمْ أَنْ لَوْ حَمِسَ الْوَغَى ، وَحَمِيَ الضِّرَابُ ، قَدِ انْفَرَجْتُمْ عَنِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ انْفِرَاجَ الْمَرْأَةِ عَنْ قُبُلِهَا . وَإِنِّي لَعَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ، وَمِنْهَاجٍ مِنْ نَبِيِّي ، وَإِنِّي لَعَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ أَلْقُطُهُ لَقْطاً .

•••

الشرح

أسهله : أخره ، وأخذُه فاعل ، والمفعول محذوف تقديره : «فلن يفوته» . والمرصاد[1] : الطريق ، وهي من ألفاظ الكتاب العزيز .

ومجاز طريقه : مسلكه وموضع جوازه . والشَّجا : ماينشَب في الحلق من عظم أو غيره ، وموضع الشَّجا : هو الحلق نفسه . ومساغُ ريقه : موضع الإساغة ، أسغت الشراب : أوصلتُه إلى المعدة . ويجوز : سغت الشراب أسُوغه وأسيغه ، وساغ الشرابُ نفسُه يسوغ سَوْغا ، أي سَهُل مدخله في الحلق ، يتعدّى ولا يتعدّى . وهذا الكلام من باب التوسّع والمجاز ، لأنّ الله تعالى لايجوز عليه الحصول في الجهات ، ولكنه كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ﴾ [2] . وقوله : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [3] .

---

(١) وهو من قوله تعالى في سورة الفجر ٨٩ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ .

(٢) سورة الحديد ٤ . (٣) سورة ق ١٦ .

ثم أقسم عليه السلام أنّ أهل الشام لابدّ أن يظهروا على أهل العراق ، وأنّ ذلك ليس لأنّهم على الحقّ وأهلُ العراق على الباطل ، بل لأنّهم أطوَعُ لأميرهم ، ومدَار النّصرة فى الحرب إنّما هو على طاعة الجيش وانتظام أمره ، لاعلى اعتقادالحقّ ، فإنه ليس يُغني فى الحرب أن يكون الجيش محقّا فى العقيدة إذا كان مختلف الآراء ، غير مطيع لأمر المدبّر له ، ولهذا تجدُ أهل الشرك كثيرا ماينتصرون على أهل التوحيد .

ثم ذكر عليه السلام نكتة لطيفة فى هذا المعنى ، فقال : العادة أنّ الرعيَّة تخاف ظلم الوالى ، وأنا أخاف ظلم رعيتى ، ومَنْ تأمّل أحواله عليه السلام فى خلافته ، علم أنّه كان كالمحجور عليه ، لا يتمكّن من بلوغ مافى نفسه ، وذلك لأنّ العارفين بحقيقة حاله كانوا قليلين ، وكان السواد الأعظم ، لايعتقدون فيه الأمر الذى يجب اعتقادُه فيه ، ويرون تفضيلَ مَنْ تقدّمه من الخلفاء عليه ، ويظنّون أن الأفضليّة إنما هى الخلافة ، ويقـــلّد أخلافُهم أسلافَهم ، ويقولون : لولا أنّ الأوائل علموا فضل المتقدّمين عليه لما قدموهم ، ولا يرونه إلا بعين التبعيّة لمن سبقه ، وأنه كان رعيّة لهم ، وأ كثرهم إنمايحارب معه بالحميّة وبنخوة العربية لا بالدين والعقيدة ، وكان عليه السلام مدفوعا إلى مداراتهم ومقاربتهم ؛ ولم يكن قادرا على إظهـار ما عنـده ، ألا ترى إلى كنايه إلى قضاته فى الأمصار . وقوله : « فاقضوا كما كنتم تقضون ، حتى تكون للناس جماعة ، وأموتَ كما مات أصحابى » ؛ وهذا الكلام لا يحتاج إلى تفسير ، ومعناه واضح ، وهو أنه قال لهم : أتبعُوا عادتكم الآن بعاجل الحال فى الأحكام والقضايا التى كنتم تقضون بها إلى أن يكون للناس جماعة ؛ أى إلى أن تُسْفر هذه الأمور والخطوب عن الاجتماع وزوال الفرقة وسكون الفتنة ، وحينئذ أعرفكم ما عنـــــدى فى هذه القضايا والأحكام التى قد استمررتم عليها .

ثم قال : « أو أموت كما مات أصحابى » ، فمن قائل يقول : عنى بأصحابه الخلفاء المتقدّمين

ومن قائل يقول: عنّى بأصحابه شيعته كسلمان، وأبى ذرّ، والمقداد، وعمّار، ونحوهم، ألا ترى إلى قوله على المنبر فى أمهات الأولاد: «كان رأيى ورأى عمر ألّا يُبَعْن، وأنا أرى الآن يبعن» ؛ فقام عليه عبيدة السلمانى فقال له: رأيكَ مع الجماعة أحبّ إلينا من رأيك وحدك، فما أعاد عليه حرفًا، فهل يدلّ هذا على القوة والقهر، أم على الضعف فى السلطان والرخاوة! وهل كانت المصلحة والحكمة تقتضى فى ذلك الوقت غير السكوت والإمساك! ألا ترى أنه كان يقرأ فى صلاة الصبح وخلفه جماعة من أصحابه، فقرأ واحد منهم رافعًا صوته، معارضًا قراءة أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِي بِٱلْحَقِّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَاصِلِينَ ﴾. فلم يضطرب عليه السلام، ولم يقطع صلاته ولم يلتفت وراءه، ولكنه قرأ معارضًا له على البديهة: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾[1]. وهذا صبر عظيم وأناة عجيبة وتوفيق بيّن، وبهذا ونحوه استدلّ أصحابنا المتكلّمون على حُسْن سياسته وصحة تدبيره، لأنّ مَنْ مُنِيَ بهذه الرعية المختلفة الأهواء، وهذا الجيش العاصى له، المتمرّد عليه، ثم كسر بهم الأعداء، وقتل بهم الرؤساء، فليس يبلغ أحد فى حسن السياسة وصحة التدبير مبلغه، ولا يقدر أحدٌ قدره، وقد قال بعض المتكلّمين من أصحابنا: إنّ سياسة علىّ عليه السلام إذا تأمّلها المنصف متدبرًا لها بالإضافة إلى أحواله التى دفع إليها مع أصحابه، جرت مجرَى المعجزات، لصعوبة الأمر وتعذّره فإن أصحابه كانوا فرقتين: إحداهما تذهب إلى أن عثمان قتل مظلومًا وتتولاه وتبرأ من أعدائه، والأخرى — وهم جمهور أصحاب الحرب وأهل الغناء والبأس — يعتقدون أنّ عثمان قُتِل لأحداث أوجبت عليه القتل، وقد كان منهم مَنْ يصرح بتكفيره، وكلٌّ من هاتين الفرقتين يزعُم أن عليا عليه السلام موافق لها على رأيها، وتطالبه فى كل وقت بأن يبدى مذهبه فى عثمان، وتسأله أن يجيب بجواب واضح فى أمره، وكان عليه السلام،

(١) سورة الروم ٦٠ ، وهذه قراءة على ، وقراءة المصحف : ﴿ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ﴾ ، وانظر تفسير القرطبى ٦ : ٤٣٩ .

يعلم أنه متى وافق إحدى الطائفتين باينته الأخرى، وأسلمته وتولت عنه وخذلته، فأخذ عليه السلام يتمسك في جوابه ويستعمل في كلامه ما تظن به كل واحدة من الفرقتين أنه يوافق رأيها ويماثل اعتقادها، فتارة يقول: الله قتله وأنا معه، وتذهب الطائفة الموالية لعثمان إلى أنه أراد أن الله أماته وسيميتني كما أماته؛ وتذهب الطائفة الأخرى إلى أنه أراد أنه قتل عثمان مع قتل الله له أيضا، وكذلك قوله تارة أخرى: «ما أمرت به ولا نهيت عنه»، وقوله: «لو أمرت به لكنت قاتلا، ولو نهيت عنه لكنت ناصرا»، وأشياء من هذا الجنس مذكورة مروية عنه، فلم يزل على هذه الوتيرة حتى قبض عليه السلام، وكل من الطائفتين مواليه له معتقد أن رأيه في عثمان كرأيها، فلو لم يكن له من السياسة إلا هذا القدر — مع كثرة خوض الناس حينئذ في أمر عثمان والحاجة إلى ذكره في كل مقام — لكفاه في الدلالة على أنه أعرف الناس بها، وأحذقهم فيها، وأعلمهم بوجوه مخارج الكلام، وتدبير أحوال الرجال.

* * *

ثم نعود إلى الشرح:

قوله عليه السلام: «ونصحت لكم»، هو الأفصح، وعليه، ورد لفظ القرآن[1]، وقول العامة: «نصحتك» ليس بالأفصح.

قوله: «وعبيد كأرباب» يصفهم بالكبر والتيه.

فإن قلت: كيف قال عنهم إنهم عبيد وكانوا عربا صلبية؟ قلت: يريد أن أخلاقهم كأخلاق العبيد؛ من الغدر والخلاف ودناءة الأنفس؛ وفيهم مع ذلك كبر السادات والأرباب وتيههم؛ فقد جمعوا خصال السوء كلها.

وأيادي سبأ: مثل يضرب للمتفرقين، وأصله قوله تعالى عن أهل سبأ: ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ

(1) من قوله تعالى في سورة الأعراف ٧٩: ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾.

كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾[1] وسبأ مهموز ؛ وهو سبأ بن يشجُب بن يعرب بن قحطان ؛ ويقال : ذهبوا أيدى سبا وأيادى سبا ، الياء ساكنة ؛ وكذلك الألف ؛ وهكذا نقل المثل ، أى ذَهَبوا متفرّقين ، وهما اسمان جعلا واحداً ؛ مثل معدى كرب .

قوله : « تتخادَعُون عن مواعظكم » ، أى تمسكون عن الاتّعاظ والازدجار ، وتُقْلِعون عن ذلك ؛ من قولهم : كان فلان يُعطى ثم خدع ، أى أمسك وأقلع . ويجوز أن يريد : تتلوّنون وتختلفون فى قبول الموعظة ؛ من قولهم : خلق فلان خُلُق خادع ، أى متلوّن ، وسوق خادعة أى مختلفة متلوّنة ، ولا يجوز أن يريد باللفظة المعنى المشهور منها ؛ لأنه إنما يقال : فلان يتخادع لفلان ؛ إذا كان يُريه أنّه منخدع له وليس بمنخدع فى الحقيقة ؛ وهذا لا يطابق معنى الكلام .

والحَنية : القوس . وقوله : « كظهر الحنية » ، يريد اعوجاجهم ؛ كما أن ظهر القوس معوج . وأعضل القومُ ، أى أعضل داؤه ، أى أعيا . ويروى : « أيّها الشاهدةُ أبدانهم » بحذف الموصوف .

ثم أقسم أنّه يودّ أنّ معاوية صارَفه بهم ، فأعطاه من أهل الشام واحداً ، وأخذ منه عشرة ، صَرْف الدينار بالدراهم ؛ أخذ هذا اللفظ عبدُ الله بن الزبير لمّا وفد إليه أهلُ البصرة ، وفيهم الأحنف ، فتكلّم منهم أبو حاضر الأسدى ، وكان خطيباً جميلا ، فقال له عبد الله بن الزّبير : اسكتْ ؛ فو الله لوَدِدْتُ أنّ لى بكلّ عشرة من أهل العراق واحداً من أهل الشام صَرْف الدينار بالدراهم ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن لنا ولك مثَلا ، أفتأذن فى ذكره ؟ قال : نعم . قال : مَثَلُنا ومثلُك ومثل أهل الشام قولُ الأعشى :

عُلِّقْتُهَا عَرَضاً وَعُلِّقَتْ رَجُـــــلا غَيْرِى ، وَعُلِّقَ أُخْرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ[2]

---

(١) سورة سبأ ١٩ .　　(٢) هو أعشى قيس ، ديوانه ١٣ .

أحبك أهلُ العراق وأحببتَ أهل الشام وأحبّ أهل الشام عبدَ الملك فما تصنع ؟ ثم ذكر عليه السلام أنهُ مني ، أي بُلِيَ منهم بثلاث واثنتين ، إنما لم يقل بخمس ، لأن الثلاث إيجابية ، الاثنتين سَلْبية ، فأحبّ أن يفرق بين الإثبات والنفي .

ويروى : « لا أحرار صدْق عند اللقاء » جمع صادق . ولا إخوان ثقة عند البلاء ، أي موثوق بهم .

تربتْ أيديكم ، كلمة يدعى على الإنسان بها ، أي لا أصبتُمْ خيرا ، وأصل « ترب » أصابه التراب ، فكأنه يدعو عليه بأن يفتقر حتى يلتصق بالتراب .

قوله : « فما إخالكم » أي فما أظنُّكم ؛ والأفصح كسر الألف وهو السماع ؛ وبنو أسد يفتحونها وهو القياس .

قوله : « ألّا » أصله « أن لا » ثم أدغمت النون في الألف فصارت كلمة واحدة .

يحمس الوغى ، بكسر الميم : اشتد وعظم ، فهو حمس وأحمس ؛ بيّن الحمَس والحماسة . والوغى في الأصل : الأصوات والجلبة ، وسميت الحرب نفسها وغى لما فيها من ذلك .

وقوله : « انفراج المرأة عن قُبُلها » ، أي وقت الولادة .

قوله : « أنفذه لقَطا » يريد أن الضلال غالب على الهدى ؛ فأما النفط طريق الهدى من بين طريق الضلال لقطا من ها هنا وها هنا كما يسلك الإنسان طريقاً دقيقة ، قد اكتنفها الشوك والعوسج من جانبيها كليهما ، فهو يلتقط النَّهْج التقاطا .

* * *

الأصـلُ :

انظُرُوا أَهْلَ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ فَالْزَمُوا سَمْتَهُمْ وَاتَّبِعُوا أَثَرَهُمْ ، فَلَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ هُدًى ، وَلَنْ يُعِيدُوكُمْ فِي رَدًى ، فَإِنْ لَبَدُوا فَالْبُدُوا ، وَإِنْ نَهَضُوا فَانْهَضُوا ، وَلَا تَسْبِقُوهُمْ فَتَضِلُّوا ، وَلَا تَتَأَخَّرُوا عَنْهُمْ فَتَهْلِكُوا .

لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ فَمَا أَرَى أَحَداً يُشْبِهُهُمْ مِنْكُمْ ، لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ شُعْثاً غُبْراً،وَقَدْ بَاتُوا سُجَّداً وَقِيَاماً،يُرَاوِحُونَ بَيْنَ جِبَاهِهِمْ وَخُدُودِهِمْ، وَيَقِفُونَ عَلَى مِثْلِ ٱلْجَمْرِ مِنْ ذِكْرِ مَعَادِهِمْ ، كَأَنَّ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ رُكَبَ ٱلْمِعْزَى ، مِنْ طُولِ سُجُودِهِمْ ! إِذَا ذُكِرَ ٱللهُ هَمَلَتْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّى تَبُلَّ جُيُوبَهُمْ ، وَمَادُوا كَمَا يَمِيدُ ٱلشَّجَرُ يَوْمَ ٱلرِّيحِ ٱلْعَاصِفِ ، خَوْفاً مِنَ ٱلْعِقَابِ ، وَرَجَاءً لِلثَّوَابِ .

الشَّرْحُ

السَّمْت : الطريق ، ولَبَدَ الشيء بالأرض ، يلبُد بالضم لُبودا : التصق بها . و يصبحون شعثا غبرا ، من قَشَف العبادة وقيام الليل وصوم النهار وهجر الملاذّ ، فيراوحون بين جباههم وخدودهم ، تارة يسجدون على الجباه ، وتارة يضعون خدودهم على الأرض بعد الصلاة تذللا وخضوعا . والمراوحة بين العمل : أن يعمل هذا مرة وهذا مرة ، ويراوح بين رجليه : إذا قام على هذه تارة وعلى هذه أخرى .

ويقال معزى لهذا الجنس من الغنم ومِعْز ومعيز وأمعوز ومِعْز ، بالتسكين ، وواحد المعز ماعز ، كصَحْب وصاحب ، والأنثى ماعزة والجمع مواعز .

وهملتْ أعينُهم : سالت ، تَهمُل وتهمِل .

ويروى « حتى تبلّ جباههم » ، أي يبلّ موضع السجود فتبتل الجبهة بملاقاته . ومادُوا : تحرّكوا واضطربوا ، إما خوفا من العقاب كما يتحرك الرجل ويضطرب ، أو رجاء للثواب كما يتحرك النشوان من الطرب ، وكما يتحرك الجذِل المسرورُ من الفَرَح .

(٩٧)

الأصل

ومن كلام له عليه السلام:

وَاللهِ لَا يَزَالُونَ حَتَّى لَا يَدَعُوا لِلهِ مُحَرَّمًا إِلَّا اسْتَحَلُّوهُ، وَلَا عَقْدًا إِلَّا حَلُّوهُ، وَحَتَّى لَا يَبْقَى بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا دَخَلَهُ ظُلْمُهُمْ، وَنَبَا بِهِ سُوءُ رِعَتِهِمْ[1]، وَحَتَّى يَقُومَ الْبَاكِيَانِ يَبْكِيَانِ: بَاكٍ يَبْكِي لِدِينِهِ، وَبَاكٍ يَبْكِي لِدُنْيَاهُ، وَحَتَّى تَكُونَ نُصْرَةُ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كَنُصْرَةِ الْعَبْدِ مِنْ سَيِّدِهِ، إِذَا شَهِدَ أَطَاعَهُ، وَإِذَا غَابَ اغْتَابَهُ، وَحَتَّى يَكُونَ أَعْظَمُكُمْ فِيهَا غَنَاءً أَحْسَنُكُمْ بِاللهِ ظَنًّا، فَإِنْ أَتَاكُمُ اللهُ بِعَافِيَةٍ فَاقْبَلُوا، وَإِنِ ابْتُلِيتُمْ فَاصْبِرُوا[2]، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ.

الشرح

تقدير الكلام: لايزالون ظالمين؛ فحذف الخبر وهو مراد، وسدّت «حتى» وما بعدها مسدّ الخبر؛ ولا يصحّ ماذهب إليه بعض المفسرين من أنّ «زال» بمعنى تحرك وانتقل؛ فلا تكون محتاجة إلى خبر، بل تكون تامة في نفسها، لأنّ تلك مستقبلها يزول بالواو، وهاهنا بالألف لايزالون؛ فهي الناقصة التي لم تأت تامة قطّ؛ ومثلها في أنّها لاتزال ناقصة: ظلّ وما فتىء وليس.

والمحرّم: مالا يحلّ انتهاكه، وكذلك الحرمة بفتح الراء وضمها.

وبيوت المَدَر: هي البيوت المبنية في القُرى، وبيوت الوبر: ما يتخذ في البادية من وبر الإبل والوبر لها كالصوف للضأن، وكالشعر للمعز.

---

(١) زاد في مخطوطة النهج بعدها: «ونزل به فيهم».　　(٢) مخطوطة النهج: «فإذا».

وقد وَبَر البعيرُ بالكسر ، فهو وَبِر ، وأوبر ، إذا كثُر وبرُه . ونبا به منزله : إذا ضرّه ولم يوافقه ، وكذلك نبا به فراشُه ، فالفعل لازم ، فإذا أردت تعديتَه بالهمزة قلتَ : قد أنبى فلان على منزلى ، أى جعله نابياً ، وإنْ عدّيته بحرف الجر قلت : قد نبا بمنزلى فلان ، أى أنباه علىّ ، وهو فى هذا الموضع معدًّى بحرف الجرّ .

وسوء رِعتهم أى سوء ورعهم ، أى تقواهم . والورِع بكسر الراء : الرّجُل التقىّ ، ورع يرِع بالكسر فيهما ورِعاً ورِعَة ، ويروى : « سوء رَعْيهم » ، أى سوء سياستهم وإمْرتهم . ونصرة أحدكم من أحدهم ؛ أى انتصاره منه وانتقامه ، فهو مصدر مضاف إلى الفاعل ؛ وقد تقدم شرح هذا المعنى ؛ وقد حمل قوم هذا المصدر على الإضافة إلى المفعول وكذلك نُصرة العبد وتقدير الكلام : حتى يكون نصرةُ أحد هؤلاء الولاة لأحدكم كنصرة سيّد العبد السيّئ الطريقة إياه ، « ومن » فى الموضعين مضافة إلى محذوف تقديره مِنْ جانب أحدهم ومن جانب سيده ؛ وهذا ضعيف لما فيه من الفصل بين العبد وبين قوله : « إذا شهد أطاعه » ؛ وهو الكلام الذى إذا استمرّ المعنى جعل حالا من العبد بقوله : « من سيده » . والضمير فى قوله : « فيها » يرجع إلى غير مذكور لفظا ؛ ولكنه كالمذكور ؛ يعنى الفتنة ، أى حتى يكون أعظمكم فى الفتنة غناء .

ويروى برفع : « أعظمكم » ونصب « أحسنكم » والأول أليق ؛ وهذا الكلام كله إشارة إلى بنى أمية .

(٩٨)

الأصـل :

ومن خطبة له عليه السلام :

نَحْمَدُهُ عَلَى مَا كَانَ ، وَنَسْتَعِينُهُ مِنْ أَمْرِنَا عَلَى مَا يَكُونُ ، وَنَسْأَلُهُ الْمُعَافَاةَ فِي الْأَدْيَانِ ، كَمَا نَسْأَلُهُ الْمُعَافَاةَ فِي الْأَبْدَانِ .

أُوصِيكُمْ بِالرَّفْضِ لِهَذِهِ الدُّنْيَا التَّارِكَةِ لَكُمْ وَإِنْ لَمْ تُحِبُّوا تَرْكَهَا ، وَالْمُبْلِيَةِ لِأَجْسَامِكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ تَجْدِيدَهَا ؛ فَإِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُهَا كَسَفْرٍ سَلَكُوا سَبِيلاً فَكَأَنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوهُ ، وَأَمُّوا عَلَماً فَكَأَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوهُ ؛ وَكَمْ عَسَى الْمُجْرِي إِلَى الْغَايَةِ أَنْ يَجْرِيَ إِلَيْهَا حَتَّى يَبْلُغَهَا ! وَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَقَاءُ مَنْ لَهُ يَوْمٌ لَا يَعْدُوهُ ، وَطَالِبٌ حَثِيثٌ مِنَ الْمَوْتِ يَحْدُوهُ ، وَمُزْعِجٌ فِي الدُّنْيَا عَنِ الدُّنْيَا حَتَّى يُفَارِقَهَا رَغْماً !

فَلَا تَنَافَسُوا فِي عِزِّ الدُّنْيَا وَفَخْرِهَا ، وَلَا تَعْجَبُوا بِزِينَتِهَا وَنَعِيمِهَا ، وَلَا تَجْزَعُوا مِنْ ضَرَّائِهَا وَبُؤْسِهَا ، فَإِنَّ عِزَّهَا وَفَخْرَهَا إِلَى انْقِطَاعٍ ، وَزِينَتَهَا وَنَعِيمَهَا إِلَى زَوَالٍ ، وَضَرَّاءَهَا وَبُؤْسَهَا إِلَى نَفَادٍ ، وَكُلُّ مُدَّةٍ فِيهَا إِلَى انْتِهَاءٍ ، وَكُلُّ حَيٍّ فِيهَا إِلَى فَنَاءٍ .

أَوَ لَيْسَ لَكُمْ فِي آثَارِ الْأَوَّلِينَ مُزْدَجَرٌ ، وَفِي آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ تَبْصِرَةٌ وَمُعْتَبَرٌ ؛ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ !

أَوَ لَمْ تَرَوْا إِلَى الْمَاضِينَ مِنْكُمْ لَا يَرْجِعُونَ ، وَإِلَى الْخَلَفِ الْبَاقِينَ لَا يَبْقَوْنَ ! أَوَ لَسْتُمْ تَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُمْسُونَ وَيُصْبِحُونَ عَلَى أَحْوَالٍ شَتَّى : فَمَيِّتٌ يُبْكَى ، وَآخَرُ يُعَزَّى ، وَصَرِيعٌ مُبْتَلًى ، وَعَائِدٌ يَعُودُ ، وَآخَرُ بِنَفْسِهِ يَجُودُ ، وَطَالِبٌ لِلدُّنْيَا

وَٱلْمَوْتُ يَطْلُبُهُ ، وَغَافِلٌ وَلَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْهُ ؛ وَعَلَى أَثَرِ ٱلْمَاضِي مَا يَمْضِي ٱلْبَاقِي !
أَلَا فَاذْكُرُوا هَاذِمَ ٱللَّذَّاتِ ، وَمُنَغِّصَ ٱلشَّهَوَاتِ ، وَقَاطِعَ ٱلْأُمْنِيَّاتِ ، عِنْدَ ٱلْمُسَاوَرَةِ لِلْأَعْمَالِ ٱلْقَبِيحَةِ ، وَٱسْتَعِينُوا ٱللَّهَ عَلَى أَدَاءِ وَاجِبِ حَقِّهِ ، وَمَا لَا يُحْصَى مِنْ أَعْدَادِ نِعَمِهِ وَإِحْسَانِهِ .

• • •

الشرح :

لما كان الماضي معلوماً جعل الحمد بإزائه ؛ لأنّ المجهول لا يحمد عليه ؛ ولما كان المستقبل غيرَ معلوم جعل الاستعانة بإزائه ؛ لأنّ الماضيَ لا يُستعان عليه ، ولقد ظَرُف وأبدع عليه السلام في قوله : « ونسأله المعافاة في الأديان ، كما نسأله المعافاة في الأبدان » ، وذلك أنّ للأديان سُقْماً وطبّاً وشفاء ، كما أنّ للأبدان سُقْماً وطبّاً وشفاء ، قال محمود الوراق :

وإذا مرضتَ من الذُّنوبِ فداوِها ... بالذِّكْرِ إنّ الذِّكْرَ خيرُ دواء
والسُّقْم في الأبدان لَيْسَ بضائرٍ ... والسُّقْم في الأديان شرّ بَلاءِ

وقيل لأعرابيّ : ما تشتكي ؟ قال : ذنوبي ، قيل : فما تشتهي ؟ قال : الجنّة ، قيل : أفلا ندعُو لك طبيباً ؟ قال : الطبيب أمرضني .

سمعتْ عفيرة بنت الوليد البَصْريّة العابدة رجلًا يقول : ما أشدّ العمَى على من كان بصيراً ! فقالت : عبدَ الله ، غَفَلْتَ عن مرض الذنوب ، واهتممت بمرض الأجساد ؛ عمَى القلوب عن الله أشدّ من عمى العين عن الدنيا ، وددْت أن الله وهب لي كُنْه محبّته ، ولم يُبق منّي جارحة إلا تَبَلها[1] .

قيل لحسان بن أبي سنان في مرضه : ما مرضُك ؟ قال : مرض لا يفهمه الأطباء ؛ قيل:

---

(١) تبلها : أسقمها .

وما هو ؟ قال: مرض الذنوب؛ فقيل : كيف تجدُك الآن ؟ قال: بخير إن نجوتُ من النار، قيل : فما تشتهي ؟ قال : ليلة طويلةٌ بعيدةٌ ما بين الطرفين أُحْيِيها بذكر الله .

ابن شُبْرُمة : عجبتُ ممن يحتمي من الطعام مخافة الداء ، كيف لا يحتمي من الذنوب مخافة النار !

قوله عليه السلام : « الدنيا التاركة لكم وإن لم تحبُّوا تركها » معنى حسن ؛ ومنه قول أبي الطّيِّب :

كلّ دَمْعٍ يسيلُ منها عليها ... وبفكّ اليدين عنها تُخَلَّى[1]

والرفض : التَّرْك ؛ وإبل رَفْض : متروكة ترعى حيث شاءت ، وقوم سَفْر ، أي مسافرون . وأمُّوا : قصدوا ، والعَلَم : الجبل أو النار في الطريق يهتدى به .

وكأن في هذه المواضع كهي في قوله : « كأنك بالدنيا لم تكن ، وكأنك بالآخرة لم تزل ، ما أقرب ذلك وأسرعه » ، وتقدير الكلام هاهنا: كأنهم في حال كونهم غير قاطعين له قاطعون له ، وكأنهم في حال كونهم غير بالغين له بالغون له، لأنه لاقرب زمان إحدى الحالتين من زمان الأخرى شُبِّهوا وهم في الحال الأولى بهم أنفسهم وهم على الحال الثانية .

قوله عليه السلام : « وكم عسى المجري » أجْرَى فلان فرسه إلى الغاية، إذا أرسلها ؛ ثم نقل ذلك إلى كل مَنْ يقصد بكلامه معنًى أو بفعله غرضاً ،فقيل : فلان يجري بقوله إلى كذا ، أو يجري بحركته الفلانية إلى كذا ، أي يقصد وينتهي بإرادته وأغراضه ولا يعدوه ولا يتجاوزه .

والحثيث : السريع. ويحدوه : يسوقه. والمنافسة : المحاسدة، ونفست عليه بكذا ، أي ضَننت . والبُؤْس : الشدّة . والنفاد : الفناء .

---

(١) ديوانه ٣ : ١٣١ .

وما فى قوله : « على أثر الماضى مايمضى الباقى » إمّا زائدة أو مصدرية ، وقد أخذهذا اللفظ الوليد بن يزيد بن عبد الملك يوم مات مَسْلَمة بن عبدالملك ؛ قيل : لمامات مسلمة بن عبد الملك ، واجتمع بنو أمية ورؤساء العرب ينظرون جنازته ، خرج الوليد بن يزيد على الناس وهو نَشْوان ثَمِل يجرّ مُطْرَف خَزّ ؛ وهو يندب مسلمة ومواليه حوله ، فوقف على هشام ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ؛ إن عُقْبَى مَنْ بقى لحوق مَنْ مَضَى ؛ وقد أقفر بعد مسلمة الصّيدُ لمن رمى ، واختلّ الثغر فوهَى ، بوارِحُ الطود فهوى ؛ وعلى أثر مَنْ سلف مايمضى من خَلَفَ ، فتزوّدُوا فإن خير الزاد التقوى .

قوله عليه السلام : « عند مساورة الأعمال القبيحة » العامل فى « عند » قوله : « اذكروا» أى ليكن ذِكْرُكم الموت وقت مساورتكم ، والمساورة :المواثبة ، وسارَ إليه يَسُور سَوْراً : وثب ، قال الأخطل يصف خمراً :

لما أتوها بمصباحٍ ومِبْزَلِهِم ... سارت إليهم سُؤُورَ الأبجل الضارى (١)

أى كوثوب العِرْق الذى قد فُصِد أو قطع فلا يكاد ينقطع دمه ؛ ويقال: إنّ لغَضَبه لَسَوْرة ، وهو سَوّار ، أى وثّاب مُعَرْبِد .

---

(١) ديوانه ١١٨ . المبزل : الثقب فى جانب الخابية تجرى منه الخمر صافية . والأبجل : عرق يكون فى الدواب . وانظر اللسان (سور) .

(٩٩)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصل :

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ النَّاشِرِ فِي الْخَلْقِ فَضْلَهُ ، وَالْبَاسِطِ فِيهِمْ بِالْجُودِ يَدَهُ . نَحْمَدُهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ ، وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى رِعَايَةِ حُقُوقِهِ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ غَيْرُهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، أَرْسَلَهُ بِأَمْرِهِ صَادِعاً ، وَبِذِكْرِهِ نَاطِقاً ، فَأَدَّى أَمِيناً ، وَمَضَى رَشِيداً ، وَخَلَّفَ فِينَا رَايَةَ الْحَقِّ ؛ مَنْ تَقَدَّمَهَا مَرَقَ ، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا زَهَقَ ، وَمَنْ لَزِمَهَا لَحِقَ . دَلِيلُهَا مَكِيثُ الْكَلَامِ ، بَطِيءُ الْقِيَامِ ، سَرِيعٌ إِذَا قَامَ ، فَإِذَا أَنْتُمْ أَلَنْتُمْ لَهُ رِقَابَكُمْ ، وَأَشَرْتُمْ إِلَيْهِ بِأَصَابِعِكُمْ ، جَاءَهُ الْمَوْتُ فَذَهَبَ بِهِ ، فَلَبِثْتُمْ بَعْدَهُ مَا شَاءَ اللّٰهُ ؛ حَتَّى يُطْلِعَ اللّٰهُ لَكُمْ مَنْ يَجْمَعُكُمْ وَيَضُمُّ نَشْرَكُمْ ، فَلَا تَطْمَعُوا فِي غَيْرِ مُقْبِلٍ ، وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ مُدْبِرٍ ، فَإِنَّ الْمُدْبِرَ عَسَى أَنْ تَزِلَّ بِهِ إِحْدَى قَائِمَتَيْهِ ، وَتَثْبُتَ الْأُخْرَى فَتَرْجِعَا حَتَّى تَثْبُتَا جَمِيعاً .

أَلَا إِنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ كَمَثَلِ نُجُومِ السَّمَاءِ ؛ إِذَا خَوَى نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ ؛ فَكَأَنَّكُمْ قَدْ تَكَامَلَتْ مِنَ اللّٰهِ فِيكُمُ الصَّنَائِعُ ، وَأَرَاكُمْ مَا كُنْتُمْ تَأْمُلُونَ .

* * *

الشرح :

يده هاهنا : نعمته ؛ يقال : لفلان عندي يد ؛ أي نعمة وإحسان ، قال الشاعر :

فَإِنْ تَرْجِعِ الْأَيَّامُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا … فَإِنَّ لَهَا عِنْدِي يَداً لَا أُضِيعُهَا

وصادعا ، أى مظهرا ومجاهرا للمشركين ، قال تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ [١] .
وراية الحقّ : الثقلان المخلّفان بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ وهما الكتاب والعترة .

ومَرَق : خرج ، أى فارق الحقّ ، ومرق السهم عن الرميّة : خرج من جانبها الآخر ؛ وبه سُمّيت الخوارج مارقة .

وزهَقَت نفسه ، بالفتح زُهوقا ، أى خرجت ، قال تعالى : ﴿ وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [٢] . وزهَقَت الناقة ؛ إذا سبقت وتقدّمت أمام الرّكاب ، وزهقَ الباطل : اضمحلّ ، يقول عليه السلام : مَنْ خالفها متقدّما لها أو متأخرا عنها فقد خرج عن الحق ، ومن لازمها فقد أصاب الحق .

ثم قال : « دليلها مَكيثُ الكلام » ، يعنى نفسَه عليه السلام ، لأنه المشارُ إليه من العترة ، وأعلمُ الناس بالكتاب . ومَكيثُ الكلام : بطيئه ، ورجل مَكيث ؛ أى رزين ، والمُكث : اللّبث والانتظار ، مَكَثَ ومَكُث بالفتح والضم ، والاسم المُكث والمُكثة بالضم وكسرها ، بمعنى أنه ذو أناة وتؤدة ، ثم أكّد ذلك بقوله : « بطىء القيام » .

ثم قال : « سريع إذا قام » ، أى هو متأنّ متثبّت فى أحواله ؛ فإذا نهض جدّ وبالغ ؛ وهذا المعنى كثير جدا ؛ قال أبو الطيب :

وما قلتُ للبدرِ أنت اللُّجَيْنُ ولا قلتُ للشمسِ أنتِ الذهبْ [٣]
فيَقْلَقَ منهُ البعيدُ الأناةِ ويَغضَبُ منـــــه البطيءُ الغضبْ

يعنى سيف الدولة .

---

(١) سورة الحجر ٩٤ .
(٢) سورة التوبة ٨٥ .
(٣) ديوانه ١ : ٩٢ .

[أقوال مأثورة فى مدح الأناة وذمّ العجلة]

ومن أمثالهم : « يريك الهوينى والأمور تطير » ؛ يضرب لمن ظاهره الأناة وباطنه إبرام الأمور وتنفيذها والحاضرون لا يشعرون ؛ ويقولون لمن هو كذلك : ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾[1] .

ووقّع ذُو الرّياستين إلى عامل له : إنّ أسرع النار التهاباً أسرعُها خمودا ، فتأنّ فى أمرك . ويقال : إن آدم عليه السلام أوصى ولده عند موته فقال : كلّ عمل تريدون أن تعملوه فتوقّفُوا فيه ساعة ، فإنّى لو توقفت لم يصبنى ما أصابنى .

بعض الأعراب يوصى ولده : إياكم والعجلة ، فإن أبى كان يكنيها : أمّ الندم .

وكان يقال : مَنْ ورد عَجِلا صدر خجلا .

وقال ابن هانى المغربى :

وكلُّ أناة فى المواطن سؤدد — ولا كأناةٍ من قدير مُحَكَّمِ[2]

ومن يتبيّن أنّ للصفح موضعاً — من السيف يَصْفَحْ عن كثير ويحلُمِ

وما الرأىُ إلا بعد طول تثبُّتٍ — ولا الحزمُ إلا بعد طول تَلَوُّمِ[3]

وقوله عليه السلام : « بطىء القيام ، سريع إذا قام » فيه شَبَهٌ من قول الشَّنْفَرَى :

مسبل فى الحىّ أحْوَى رِفَلٌّ — وإذا يغزو فسِمْعٌ أزَلُّ

ومن أمثالهم فى مدح الأناة وذمّ العجلة : أخطأ مستعجل أو كاد ، وأصاب متثبت أو كاد .

---

(١) سورة النمل ٨٨ .

(٢) ديوانه ٦٧٠ .

(٣) تلوّم فى الأمر : تمكث فيه وانتظر .

ومنها :

* وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ[1] *

ومنها : ربَّ عجلة تهب ريثًا[2] :

وقال البحترى :

حَلِيمٌ إذا القـــومُ استخفّتْ حُلُومُهُمْ ... وَقُورٌ إذا ما حادثُ الدهر أجْلَبَا[3]

قال الأحنف لرجل سَبّه فأفرط : ياهذا، إنّك منذ اليوم تحدو بجمل ثقال .

وقال الشّاعر :

أحلامُنَا تَزِنُ الجبالَ رَجَاحَةً ... وتخالُنـــا جِنًّا إذا ما نجهَلُ

[فصل فى مدح قلة الكلام وذم كثرته]

فأمّا قوله عليه السلام : « سكيتُ الكلام » ، فإنّ قلة الكلام من صفات المدح وكثرته من صفات الذمّ . قالت جارية ابن السمّاك له : ما أحسنَ كلامَك لولا أنك تكثر ترداده ! فقال : أردِّده، حتى يفهمه من لم يفهمه ، قالت : فإلى أن يفهمه مَن لم يفهمه قد مَلّه مَنْ فهمه .

بعث عبدُ العزيز بن مروان بن الحكم إلى ابن أخيه الوليد بن عبد الملك قطيفةً حمراء ، وكتب إليه : أما بعدُ ، فقد بعثتُ إليك بقطيفة حمراء ، حمراء ، حمراء ؛ فكتب إليه الوليد : أما بعد ، فقد وصلت القطيفة ، وأنت ياعمّ أحمق ، أحمق ، أحمق .

---

(١) للقطامى وصدره :

* قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّى بَعْضَ حَاجَتِهِ *

وبعده :

وَرُبَّمَا فَاتَ قومًا جلَّ أمرهمُ ... إذا توانَوْا وَكَانَ الرَّأْىُ لَوْ عَجِلُوا

وانظر جمهرة أشعار العرب ٣١٣ (الطبعة الرحمانية) .

(٢) أول من قاله مالك بن عوف الشيبانى . مجمع الأمثال ١ : ٢٩٤ .

(٣) ديوانه ١ : ٥٥ .

وقال المتضيد لأحمد بن الطيب السرخسيّ : طول لسانك دليلٌ على قِصَر عقلك .

قيل للعتّابيّ : ما البلاغة ؟ قال : كلّ مَنْ أفهمَك حاجتَه من غير إعادة ولا حُبْسة ولا استعانة فهو بليغ . قيل له : ما الاستعانة ؟ قال : ألا ترى الرجل إذا حدّث قال : يا هناه ، واستمِعْ إليّ ، وافهم ، وألست تفهم ؟ .. هذا كلّه عِيّ وفساد .

دخل على المأمون جماعة من بنى العبّاس ؛ فاستنطقهم فوجدهم لُكْناً، مع يسار وهيئة، ومَنْ تكلّم منهم أكثر وَهذر ، فكانت حاله أخسّ من حال الساكتين ، فقال : ما أبين الخلّة فى هؤلاء ! لا خلّة الأيدى بل خلّة الألسنة والأحلام .

وسئل علىّ عليه السلام عن اللّسان فقال : معيارٌ أطاشه الجهل ، وأرجحه العقل .

سمع خالد بن صفوان مكثاراً يتكلّم ، فقال له : ياهذا ، ليست البلاغة بخفّة اللّسان ، ولا بكثرة الهذَيان ، ولكنّها إصابة المعنى والقصد إلى الحجّة .

قال أبو سفيان بن حرب لعبد الله بن الزِّبَعْرَى : مالك لا تُسْهِب فى شعرك ؟ قال : حسبك من الشعر غرّة لائحة ، أو وصمة فاضحة .

وفى خطبة كتاب «البيان والتبيين» [1] ؛ لشيخنا أبى عثمان : « ونعوذ بك من شرّ السّلاطة والهذْر ، كما نعوذ بك من العِيّ والحصر » ، قال أُحَيحة بن الجُلاح :

والصمتُ أجملُ بالفتى ما لم يكنْ عِيٌّ يَشِينُهْ
والقول ذو خَطَلٍ إذا ما لَمْ يَكُنْ لُبٌّ يعينُهْ

وقال الشاعر يرثى رجلا :

لَقَدْ وارى المقابرُ من شُرَيْكٍ كثيرَ تَحَلُّمٍ وقليلَ عابِ [2]

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٥ .
(٢) البيان والتبيين ٢ : ٢٤٦ ، ونسبهما إلى محرز بن علقمة .

صموتا فى المجالس غير عىٍّ   جديراً حين ينطق بالصواب

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يكره التشادق والإطالة والهذر، وقال: «إياك والتشادق»، وقال صلى الله عليه وآله: «أبغضكم إلىّ الثرثارون المتفيهقون».

وروى عمرو بن عبيد رحمه الله تعالى، عن النبى صلى الله عليه وآله: «إنّا معاشر الأنبياء بكاءون قليلو الكلام»، رجل بكىء على «فعيل».

قال: وكانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله.

وقيل للخليل، وقد اجتمع بابن المقفع: كيف رأيته؟ فقال: لسانه أرجح من عقله، وقيل لابن المقفع: كيف رأيت الخليل؟ قال: عقله أرجح من لسانه. فكان عاقبتهما أن عاش الخليل مصوناً مكرّماً، وقتل ابن المقفع تلك القتلة.

وسأل حفص بن سالم عمرو بن عبيد عن البلاغة؟ فقال: ما بلّغك الجنة، وباعدك عن النار، وبصّرك مواقع رشدك، وعواقب غيّك. قال: ليس عن هذا أسأل، فقال: كانوا يخافون من فتنة القول، ومن سقطات الكلام، ولا يخافون من فتنة السكوت وسقطات الصمت.

قال أبو عثمان الجاحظ: وكان عمرو بن عبيد رحمه الله تعالى: لا يكاد يتكلم، فإن تكلّم لم يكد يطيل، وكان يقول: لا خير فى المتكلم إذا كان كلامه لمن شهده دون نفسه، وإذا أطال المتكلم الكلام عرضت له أسباب التكلف، ولا خير فى شىء يأتيك بالتكلف.

وقال بعض الشعراء:

وإذا خطبت على الرّجال فلا تكن   خَطِلَ الكلام تقوله مختالا

واعلمْ بأنّ من السكوتِ إبانةً ومن التكلّفِ مالا يكونُ خبالا[1]

وكان يقال : لسان العاقل من وراء قلبه ، فإذا أراد الكلام تفكّر ، فإن كان له قال ، وإن كان عليه سكت ، وقلبُ الجاهل من وراء لسانه ، فإن همّ بالكلام تكلّم به .

وقال سعد بن أبي وقّاص لعمرو ابنه حين نطق مع القوم فبذّهم ، وقد كان غضب عليه ، فكلّموه في الرضا عنه : هذا الذي أغضبني عليه ، سمعت رسول الله صلى عليه وآله يقول : « يكون قوم يأكلون الدنيا بألسنتهم كما تلحسُ الأرضَ البقرُ بألسنتها » .

وقال معاوية لعمرو بن العاص في أبي موسى : قد ضُمّ إليك رجلٌ طويل اللسان قصير الرأي فأجِد الحزّ ، وطبّق المفصل ، ولا تلقه برأيك كلّه .

وكان يقال : لو كان الكلامُ من فضة لكان السكوت من ذهب .

وكان يقال : مقتل الرجل بين فكّيه ، وقيل : بين لحييه .

وكان يقال : ما شيء بأحقّ بسجن من لسان .

وقالوا : اللسان سبع عَقُور .

وأخذ أبو بكر بطرف لسانه ، وقال : هذا الذي أوردني الموارد .

لما أنكح ضرار بن عمرو ابنته من معبد بن زرارة ، أوصاها حين أخرجها إليه فقال : أمسكي عليك الفَضْلَيْن ، قالت : وما هما ؟ قال : فضل الغُلْمة ، وفضل الكلام .

وسئل أعرابيّ كان يجالس الشعبيّ عن طول صمته ، فقال : أسمع فأعلم ، وأسكت فأسلم .

وقال النبي صلى الله عليه وآله : « وهل يُكبّ الناسَ في النار على مناخرهم إلّا حصائدُ ألسنتهم ! »[2] .

---

(١) البيان والتبيين ١ : ١٣٥ ، ونسبهما إلى بعض الكلبيين .

(٢) النهاية لابن الأثير ١ : ٢٣٣ ؛ قال في شرحه : « أي ما يقتطعونه من الكلام الذي لا خير فيه ، واحدتها حصيدة ، تشبيهاً بما يحصد من الزرع ، وتشبيهاً بالسان وما تقتطعه بحد المنجل الذي يحصد به » .

تكلّم رجل في مجلس النبي صلى الله عليه وآله فخطل في كلامه ، فقال عليه السلام :
« ما أعطيَ العبد شراً من ذلاقة لسان »

قال عمر بن عبد العزيز يوم بويع بالخلافة خالد بن عبد الله القسري ، وقد أنشده متمثلا :

وإذا الدرّ زانَ حُسْنَ نُحورٍ كان للدرّ حسن نحرك زينًا

إن صاحبكم أعطيَ مَقُولاً ، وحُرِم معقولا .

وقيل لإياس بن عمر : ادعُ لنا ، فقال : اللهم ارحمنا وعافنا وارزقنا ، فقالوا : زدنا يا أبا الرحمن ، فقال : أعوذ بالله من الإسهاب .

وكان القُباع — وهو الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي — مسهابًا ، سريع الحديث كثيره ، فقال فيه أبو الأسود الدؤلي :

أميرَ المؤمنين جُزِيتَ خيرًا أرحنا من قُباعِ بني المغيرةْ (١)
بلوناهُ ولمناه فأعيا علينا ما يُمِرّ لنا مريرةْ
على أن الفتى نِكحٌ أكولٌ ومسهاب ، مذاهبُه كثيرةْ

وقال أبو العتاهية :

كلّ امرئٍ في نفسه أعلى وأشرفُ من قرينه (٢)
والصمتُ أجملُ بالفتى من منطقٍ في غير حينه

وقال الشاعر :

وإياك إياك المراء فإنه إلى الشرّ دَعّاء وللشرّ جالب

وكان يقال : العجلة قيْد الكلام .

---

(١) ملحق ديوانه ٤٧ .
(٢) ديوانه ٢٨٢

أطال خطيب بين يدى الإسكندر فزبَرَه ، قال : ليس حُسْن الخطابة على حَسَب طاقة الخاطب ؛ ولكن على حسب طاقة السامع .

محمد الباقر عليه السلام : إنى لأكره أن يكون مقدارُ لسان الرجل فاضلا على مقدار علمه ؛ كما أكره أن يكونَ مقدارُ علمه فاضلا على مقدار عقله .

أطال ربيعة الرأى الكلام ، وعنده أعرابيٌّ ، فلما فرغ من كلامه ، قال للأعرابى: ماتعدُّون العِىَّ والفهاهة فيكم ؟ قال : ما كنتَ فيه أصلحك الله منذ اليوم !

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام : إذا تمَّ العقلُ نقص الكلام .

واصل بن عطاء :لأن يقولَ الله لى يوم القيامة : هَلَّا قلتَ ! أحبُّ إلىَّ من أن يقول لى : لِمَ قلت ؟ لأنى إذا قلتُ طالبنى بالبرهان ؛ وإذا سكتُّ لم يطالبنى بشىء .

نزل النعمان بن المنذر رابية ، فقال له رجل من أصحابه :أبيت اللعن ! لو ذُبح رجلٌ على رأس هذه الرابية ، إلى أين كان يبلغ دمُه ؟ فقال النعمان : المذبوح والله أنت ، ولأنظرنَّ إلى أين يبلغ دمُك ! فذبحه . فقال رجل : رُبَّ كلمة تقول : دَعْنى .

أعرابىٌّ : رب منطق صَدَع جَمْعاً ، وربَّ سكوت شَعَب صدْعا .

قالت امرأة لبعلها : مالك إذا خرجت نطقْتَ وتحدّثت ، وإذا دخلت قعدت وسكت ؟ قال : لأنى أدِقُّ عن جليلك ، وتجلّين عن دقيقى .

النَّخَعِىُّ : كانوا يتعلمون السكوتَ كما يتعلّمون الكلام .

علّى بن هشام :

لعمرك إن الحلم زَيْنٌ لأهله ... وما الحلم إلا عادة وتحلُّمُ

إذا لم يكن صمتُ الفتى من بلادة ... وعِىٍّ ،فإن الصمت أهدى وأسلمُ

وهيب بن الورْد : إنّ الحكمة عشرة أجزاء ، تسعة منها فى الصمت ، والعاشرة العزلة عن الناس .

مكث الربيع بنُ خثيم عشرين سنة لا يتكلّم إلى أن قُتل الحسين عليه السلام ، فسمعتُ منه كلمةً واحدة ، قال لما بلغه ذلك : أوقد فعلوها؟ ثم قال : « اللّهمّ فاطرَ السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون » . ثم عاد إلى السكوت حتى مات .

الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب :

زعمَ ابنُ سلمَى أنّ حلمى ضَرّنى ... ما ضَرّ قبلى أهلَهُ الحِلْمُ
إنّا أناس من سجيّتِهِمْ ... صِدْقُ الحديث ورأيهم حَتْمُ
لبِسُوا الحياء فإن نظرت حسبتهمْ ... سقموا ولم يَمَسّهمُ سُقْمُ
إنى وجدتُ العُدْم أكبرُهُ ... عُدْم العقول وذاك العُدْمُ
والمرء أكثرُ عيبه ... ضررًا خطلُ اللسانِ وصَمْتُهُ حُكْمُ

جاء فى الحديث المرفوع عن النبى صلى الله عليه وآله : « إذا رأيتم المؤمنَ صموتًا فادنوا منه ، فإنه يلقّى الحكمة » .

سفيان بن عيينة : من حُرِم العلم فليصمت ، فإن حُرِمَهما فالموت خير له .

وكان يقال : إذا طلبتَ صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ لسانك .

* * *

واعلم أن هذه الخطبة خطبَ بها أمير المؤمنين عليه السلام فى الجمعة الثالثة من خلافته ، وكنّى فيها عن حال نفسه ، وأعلمهم فيها أنهم سيفارقونه ويفقدونه بعد اجتماعهم عليه وطاعتهم له ؛ وهكذا وقع الأمر ، فإنه نقل أن أهل العراق لم يكونوا أشدَّ اجتماعاً عليه من الشهر الذى قُتل فيه عليه السلام .

وجاء فى الأخبار أنه عَقَد للحسن ابنه عليه السلام على عَشَرة آلاف ، ولأبى أيوب

الأنصاريّ على عشرة آلاف ، ولفلان وفلان ؛ حتى اجتمع له مائة ألف سَيْف ، وأخرج مقدّمته أمامه بريد الشام فضربه اللعينُ ابن ملجم ؛ وكان من أمره ما كان ، وانفضّت تلك الجموع ، وكانت كالغنم فقد راعيها .

ومعنى قوله : « ألقم له رقابَكم » أطعتموه ؛ ومعنى « أشرتم إليه بأصابعكم » أعظمتموه وأجللتموه ، كالملك الذى يشار إليه بالإصبع ، ولا يخاطب باللسان . ثم أخبرهم أنهم يلبثون بعده ما شاء الله ؛ ولم يحدّد ذلك بوقت معين ؛ ثم يطلع الله لهم مَنْ يجمعهم ويضمهم ، يعنى من أهل البيت عليه السلام ؛ وهذا إشارة إلى المهدى الذى يظهر فى آخر الوقت . وعند أصحابنا أنه غيرُ موجود الآن وسيوجد ، وعند الإمامية أنه موجود الآن .

قوله عليه السلام : « فلا تطمعوا فى غير مقبل ، ولا تيأسوا من مدبر » ؛ ظاهر هذا الكلام متناقض ؛ وتأويله أنه نهاهم عن أن يطمعوا فى صلاح أمورهم على يد رئيس غير مستأنف الرياسة ؛ وهو معنى مقبل ، أى قادم ؛ تقول : سوف أفعل كذا فى الشهر المقبل ، وفى السنة المقبلة ، أى القادمة ؛ يقول : كلّ الرياسات التى تشاهدونها فلا تطمعوا فى صلاح أموركم بشيء منها ، وإنما تنصلح أموركم على يد رئيس يقدم عليكم ، مستأنف الرياسة خامل الذكر ، ليس أبوه بخليفة ، ولا كان هو ولا أبوه مشهورين بينكم برياسة ، بل يتبع ويعلو أمرُه ؛ ولم يكن قبل معروفا هو ولا أهله الأدنون ، وهذه صفة المهدىّ الموعود به .

ومعنى قوله : « ولا تيأسوا من مدبر » ، أى وإذا مات هذا المهدىّ وخلفه بنوه بعده ، فاضطرب أمر أحدهم فلا تيأسوا وتتشككوا وتقولوا : لعلنا أخطأنا فى اتباع هؤلاء ؛ فإنّ المضطرب الأمر منّا ستثبتُ دعائمه وتنتظمُ أموره ، وإذا زلّت إحدى رجليه ثبتت

الأخرى فثبتت الأولى أيضاً . ويروى : « فلا تطعنوا فى عين مقبل » ، أى لا تحاربوا أحداً منا ولا تيأسوا من إقبال مَنْ يدبر أمره منا .

ثم ذكر عليه السلام أنّهم كنجوم السماء ، كلمّا خوى نجم طلع نجم . خوى : مال للمغيب .

ثم وعدهم بقرب الفرج ، فقال : إنّ تكامل صنائع الله عندكم ، ورؤية ما تأملونه أمر قد قرُب وقته ، وكأنكم به وقد حضر وكان ، وهذا على نمط المواعيد الإلهية بقيام الساعة ، فإنّ الكتب المنزلة كلّها صرحت بقربها ، وإن كانت بعيدة عندنا ، لأنّ البعيد فى معلوم الله قريب ، وقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ .



الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام ، وهي من الخُطب التي تشتمل على ذكر الملاحم

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْأَوَّلِ قَبْلَ كُلِّ أَوَّلٍ ، وَالْآخِرِ بَعْدَ كُلِّ آخِرٍ ، وَبِأَوَّلِيَّتِهِ وَجَبَ أَنْ لَا أَوَّلَ لَهُ ، وَبِآخِرِيَّتِهِ وَجَبَ أَنْ لَا آخِرَ لَهُ .

* * *

الشرح :

يقول : الباريء تعالى موجود قبل كلّ شيء ، يشير العقل إليه ويفرضه أول الموجودات ؛ وكذلك هو موجود بعد كلّ شيء ، يشير العقل إليه ويفرضه آخر ما يبقى من جميع الموجودات ؛ فإن الباريء سبحانه بالاعتبار الأول يكون أولا قبل كلّ ما يفرض أولا ، وبالاعتبار الثاني يكون آخرا بعد كلّ ما يفرض آخرا .

فأما قوله : « بأوليته وجب أن لا أول له . . . . » ، إلى آخر الكلام ، فيمكن أن يفسّر على وجهين :

أحدُهما أنّه تعالى لما فرضناه أولا مطلقا ، تبع هذا الفرض أن يكون قديما أزليًّا ، وهو المعنيّ بقوله : « وجب أن لا أول » وإنما تبعه ذلك ، لأنّه لو لم يكن أزليا لكان محدَثا فكان له محدِث ، والمحدِث متقدّم على المحدَث ؛ لكنا فرضناه أولا مطلقا ، أي لا يتقدّم عليه شيء ، فيلزم المحال والخلف . وهكذا القول في آخريته ، لأنا إذا فرضناه آخرا مطلقا ؛ تبع هذا الفرض أن يكون مستحيل العدم ، وهو المعنيّ بقوله : « وجب أن لا آخر له »

وإنما تبــــــه ذلك ؛ لأنه لو لم يستحل عدمه لصح عدمه ؛ لكن كل صحيح وممكن فليفرض وقوعه ، لأنه لا يلزم من فرض وقوعه محال ، مع فرضنا إياه صحيحا وممكنا ؛ لكن فرض تحقق عدمه محال ، لأنه لو عدم لما عدم بعد استمرار الوجودية إلا بضد ، لكن الضد المعدم يبقى بعد تحقق عدم الضد المعدوم لاستحالة أن يعدمه ، ويعدم معه في وقت واحد ؛ لأنه لو كان وقت عدم الطارئ هو وقت عدم الضد المطروء عليه ، لامتنع عدم الضد المطروء عليه ؛ لأن حال عدمه الذي هو الأثر المتجدد تكون العلة الموجبة للأثر معدومة ، والمعدوم يستحيل أن يكون مؤثرا ألبتة ؛ فثبت أن الضد الطارئ لابد أن يبقى بعد عدم المطروء عليه ولو وقتا واحدا ، لكن بقاءه بعده ولو وقتا واحداً يناقض فرضنا كون المطروء عليه آخرا مطلقا ، لأن الضد الطارئ قد بقي بعده ، فيلزم من الخلف والمحال ما لزم في المسألة الأولى .

والتفسير الثاني : ألا تكون الضمائر الأربعة راجعة إلى البارئ سبحانه ، بل يكون منها ضميران راجعين إلى غيره ، ويكون تقدير الكلام بأولية الأول الذي فرضنا كون البارئ سابقا عليه ، علمنا أن البارئ لا أول له ، وبآخرية الآخر الذي فرضنا أن البارئ متأخر عنه ؛ علمنا أن البارئ لا آخر له ، وإنما علمنا ذلك لأنه لو كان سبحانه أولا لأول الموجودات وله مع ذلك أول لزم التسلسل ، وإثبات محدثين ومحدثين إلى غير نهاية ، وهذا محال .

ولو كان سبحانه آخراً لآخر الموجودات وله مع ذلك آخر لزم التسلسل ، وإثبات أضداد تعدم وبعدمها غيرها إلى غير نهاية ، وهذا أيضا محال .

* * *

الأصــل :
وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ شَهَادَةً يُوَافِقُ فِيهَا ٱلسِّرُّ ٱلْإِعْلَانَ ، وَٱلْقَلْبُ ٱللِّسَانَ .

أَيُّهَا النَّاسُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ عِصْيَانِي ، وَلَا تَتَرَامَوْا بِالْأَبْصَارِ عِنْدَ مَا تَسْمَعُونَهُ مِنِّي ؛ فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ، إِنَّ الَّذِي أُنَبِّئُكُمْ بِهِ عَنِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ[1] صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ ؛ وَاللهِ[2] مَا كَذَبَ الْمُبَلِّغُ ، وَلَا جَهِلَ السَّامِعُ .

لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى ضِلِّيلٍ قَدْ نَعَقَ بِالشَّامِ ، وَفَحَصَ بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي كُوفَانَ ، فَإِذَا فَغَرَتْ فَاغِرَتُهُ ، وَاشْتَدَّتْ شَكِيمَتُهُ ، وَثَقُلَتْ فِي الْأَرْضِ وَطْأَتُهُ ، عَضَّتِ الْفِتْنَةُ أَبْنَاءَهَا بِأَنْيَابِهَا ، وَمَاجَتِ الْحَرْبُ بِأَمْوَاجِهَا ، وَبَدَا مِنَ الْأَيَّامِ كُلُوحُهَا ، وَمِنَ اللَّيَالِي كُدُوحُهَا ، فَإِذَا أَيْنَعَ زَرْعُهُ ، وَقَامَ عَلَى يَنْعِهِ[3] ، وَهَدَرَتْ شَقَاشِقُهُ ، وَبَرَقَتْ بَوَارِقُهُ ، عُقِدَتْ رَايَاتُ الْفِتَنِ الْمُعْضِلَةِ ، وَأَقْبَلْنَ كَاللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ، وَالْبَحْرِ الْمُلْتَطِمِ .

هَذَا وَكَمْ يَخْرِقُ الْكُوفَةَ مِنْ قَاصِفٍ ، وَيَمُرُّ عَلَيْهَا مِنْ عَاصِفٍ ! وَعَنْ قَلِيلٍ تَلْتَفُّ الْقُرُونُ بِالْقُرُونِ ، وَيُحْصَدُ الْقَائِمُ ، وَيُحْطَمُ الْمَحْصُودُ !

• • •

الشرح :

فى الكلام محذوف ، وتقديره : « لا يجرمنكم شقاقى على أن تكذبونى » ، والمفعول فضلة وحذفه كثير ؛ نحو قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾[4] ، فحذف العائد إلى الموصول ؛ ومنها قوله سبحانه : ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾[5] ، أى من رحمه ، ولا بد من تقدير العائد إلى الموصول ؛ وقد قرئ قوله : ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ ، و ﴿ مَا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾[6] بحذف المفعول .

لا يجرمنكم : لا يحملنكم ، وقيل : لا يكسبنكم . وهو من الألفاظ القرآنية[7] .

---

(١) فى مخطوطة النهج بعد هذه الكلمة « القرشى » .

(٢) ساقطة من مخطوطة النهج .

(٣) مخطوطة النهج : « ساقه » .

(٤) سورة العنكبوت ٦٢ .

(٥) سورة هود ٤٣ .

(٦) سورة يس ٣٥ .

(٧) من قوله تعالى فى سورة هود ٨٩ : ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ ... ﴾

ولا بسَهو بينكم ، أى لا بسَهيبنّكم بجعلكم هائمين .

ولا تترامَوْا بالأبصار ، أى لا يلحَظُ بعضكم بعضا ؛ فعلَ المنكِر المكذِّب .

ثم أقسم بالذى فَلَق الحبّة، وبرأ النسمة ، فَلْق الحبة من البُرّ ، أى شقّها وأخرج منها الوَرَق الأخضر ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ﴾[1] .

وبرأ النَّسمة؛ أى خلق الإنسان، وهذا القَسَم لا يزال أمير المؤمنين يُقسِم به، وهو من مبتكراته ومبتدعاته .

والمبلِّغ والسامع هو نفسه عليه السلام ، يقول : ما كذَبتُ على الرسول تعمّدا ، ولا جهلت ما قاله فأنقل عنه غلطا .

والضِّلّيل : الكثير الضلال ، كالشِّرِّيب والفِسِّيق ونحوهما .

وهذا كناية عن عبد الملك بن مروان ، لأنّ هذه الصفات والأمارات فيه أتمّ منها فى غيره ، لأنه قام بالشام حين دَعا إلى نفسه ، وهو معنى نعيقه ، وفَحَصت راياته بالكوفة، تارة حين شخص بنفسه إلى العراق ، وقتل مُصعبا ، وتارةً لمّا استخلَف الأمراء على الكوفة كبِشْر بن مروان أخيه وغيره ، حتى انتهى الأمر إلى الحجّاج ،وهو زمان اشتداد شكيمة عبد الملك وثقَل وطأته ، وحينئذ صَعُب الأمر جدًّا ، وتفاقمت الفتَن مع الخوارج وعبدالرحمن بن الأشعث، فلمّا كَمَل أمرُ عبدالملك ـ وهو معنى « أينع زرعه » هلك ، وعقدت رايات الفتن المعضلة من بعده ، كحروب أولاده مع بنى المهلّب، وكحروبهم مع زيد بن علىّ عليه السلام ، وكالفتن الكائنة بالكوفة أيام يوسف بن عمر وخالد القسرىّ وعمر بن هُبيرة وغيرهم ، وما جرى فيها من الظلم واستئصال الأموال ، وذهاب النفوس .

---

(١) سورة الأنعام ٩٥ .

وقد قيل : إنه كَنَّى عن معاوية وما حدث في أيامه من الفتن ، وما حدث بعده من فتنة يزيد وعبيدالله بن زياد ، وواقعة الحسين عليه السلام ، والأول أرجح ، لأنّ معاوية في أيام أمير المؤمنين عليه السلام كان قد نَعَق بالشام ، ودعاهم إلى نفسه ، والكلام يدلّ على إنسان ينعق فيما بعد ، ألا تراه يقولُ : لكأنّي أنظر إلى ضِلّيل قد نَعَق بالشام !

* * *

ثم نعود إلى تفسير الألفاظ والغريب .

النعيق : صوت الراعي بغنمه . وفحَص براياته . من قولهم : ماله مفحَص قطاة ، أي مجثمها ، كأنهم جعلوا ضواحيَ الكوفة مفحَصاً ومجثماً لراياتهم .

وكوفان : اسم الكوفة ، والكوفة في الأصل اسم الرملة الحمراء ، وبها سميت الكوفة .

وضواحيها : نواحيها القريبة منها البارزة عنها ؛ يريد رُستاقها .

وفغرت فاغرته : فتح فاه ، وهذا من باب الاستعارة ، أي إذا فتك فتح فاه وقتل ؛ كما يفتح الأسد فاه عند الافتراس والتأنيث للفتنة .

والشكيمة في الأصل : حديدة معترضة في اللجام في فم الدابة ، ثم قالوا : فلان شديدُ الشكيمة ، إذا كان شديدَ المراس شديد النفس عَسِر الانقياد .

وثقلت وطأته : عظم جَوْره وظلمه . وكلوح الأيام : عبوسها ؛ والكدوح : الآثار من الجراحات .

والقروح ، الواحد الكَدْح ، أي الخدش .

والمراد من قوله : «من الأيام» ، ثم قال : «ومن الليالي» أنّ هذه الفتنة مستمرة الزمان كله ؛ لأن الزمان ليس إلا النهار والليل .

وأينع الزرع : أدرك ونضج ؛ وهو اليَنْع واليُنْع ، بالفتح والضم ؛ مثل النَّضج والنُّضج ؛

ويجوز ينع الزرع بغير همز ، ينَع ينوعا ، ولم نسقط الياء فى المضارع لأنها تقوّت بأختها ، وزرع ينيع ويانع ؛ مثل نضيج وناضج . وقد روى أيضا هذا الموضع بحذف الهمز .

وقوله عليه السلام : « وقام على ينعه » الأحسن أن يكون « ينع » هاهنا جمع يانع كصاحب وصَحْب ، ذكر ذلك ابن كَيْسان ؛ ويجوز أن يكون أراد المصدر ، أى وقام على صفة وحالةٍ هى نضجه وإدراكه .

وهدرت شقاشقه ، قد مرّ تفسيره فى الشِّقْشِقية ورفت بوارقه : سيوفه ورماحه . والمعضلة : المعسرة العلاج داء معضل .

ويخرق الكوفة : يقطعها . والقاصف : الريح القوية تكسر كلّ ماتمر عليه وتقصفه.

ثم وعد عليه السلام بظهور دولة أخرى ، فقال : « وعن قليل تلتفّ القرون بالقرون » ؛ وهذا كناية عن الدولة العباسية التى ظهرت على دولة بنى أمية . والقُرون : الأجيال من الناس ، واحدها قَرْنٌ ، بالفتح .

ويحصد القائم ، ويحطم المحصود : كناية عن قتل الأمراء من بنى أمية فى الحرب ، ثم قتل المأسورين منهم صَبْراً ، فحصْد القائم قتل المحاربة ، وحَطْم الحصيد : القتل صبرا ؛ وهكذا وقعت الحال مع عبد الله بن علىّ ، وأبى العباس السفاح .

(١٠١)

ومن خطبة له عليه السلام تجرى هذا المجرى :

الأصْـلُ :

وَذَٰلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ ٱللهُ فِيهِ ٱلأَوَّلِينَ وَٱلآخِرِينَ لِنِقَاشِ ٱلْحِسَابِ وَجَزَاءِ ٱلأَعْمَالِ، خُضُوعاً قِيَاماً قَدْ أَلْجَمَهُمُ ٱلْعَرَقُ ، وَرَجَفَتْ بِهِمُ ٱلأَرْضُ ، فَأَحْسَنُهُمْ حَالاً مَنْ وَجَدَ لِقَدَمَيْهِ مَوْضِعاً ، وَلِنَفْسِهِ مُتَّسَعاً .

* * *

الشَّـرْحُ :

هذا شرح حال يوم القيامة ؛ والنقاش : مصدر ناقش ؛ أى استقصى فى الحساب ؛ وفى الحديث : « من نوقش الحساب عذب » .

وألجمهم العرق : سال منهم حتى بلغ إلى موضع اللجام من الدابة ؛ وهو الفم .

ورجفت بهم : تحركت واضطربت ، رجف يرجُفُ بالضم ؛ والرّجفة : الزلزلة والرجّاف من أسماء البحر ؛ سمّى بذلك لاضطرابه .

ثم وصف الزحام الشديد الذى يكون هناك ، فقال : أحسنُ الناس حالا هناك مَنْ وَجَد لقدميْه موضعا ، ومَنْ وجد مكانا يسعه .

* * *

الأصْـلُ :

ومنها :

فِتَنٌ كَقِطَعِ ٱللَّيْلِ ٱلْمُظْلِمِ ، لَا تَقُومُ لَهَا قَائِمَةٌ ، وَلَا تُرَدُّ لَهَا رَايَةٌ ، تَأْتِيكُمْ مَزْمُومَةً مَرْحُولَةً يَحْفِزُهَا قَائِدُهَا ، وَيَجْهَدُهَا رَاكِبُهَا ؛ أَهْلُهَا قَوْمٌ شَدِيدٌ كَلَبُهُمْ ، قَلِيلٌ

سَلَبِهُمْ ، يُجَاهِدُهُمْ فِي ٱللَّهِ قَوْمٌ أَذِلَّةٌ عِنْدَ ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ، فِي ٱلْأَرْضِ مَجْهُولُونَ ، وَفِي ٱلسَّمَاءِ مَعْرُوفُونَ ، فَوَيْلٌ لَكِ يَا بَصْرَةُ عِنْدَ ذَلِكِ مِنْ جَيْشٍ مِنْ نِقَمِ ٱللَّهِ ! لَا رَهَجَ لَهُ وَلَا حِسَّ ، وَسَيُبْتَلَى أَهْلُكِ بِٱلْمَوْتِ ٱلْأَحْمَرِ ، وَٱلْجُوعِ ٱلْأَغْبَرِ !

* * *

الشرح

قطع الليل : جمع قِطْع ؛ وهو الظلمة ، قال تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ ٱللَّيْلِ ﴾ [(١)] .

قوله : « لاتقوم لها قائمة » ، أي لا تنهض بحربها فئة ناهضة ، أو لاتقوم لتلك الفتن قائمة من قوائم الخيل ؛ يعنى لاسبيل إلى قتال أهلها ، ولا يقوم لها قلعة قائمة أو بنيّة قائمة بل تنهدم .

قوله : « ولا يردّ لها راية » ، أى لاتنهزم ولا تفرّ ، لأنها إذا فرت فقد رُدّتْ على أعقابها .

قوله : « مزمومة مرحولة » ، أى تامة الأدوات كاملة الآلات ، كالناقة التي عليها رَحْلها وزمامها قد استعدّت لأن تُركَب .

يحفزها : يدفعها . ويجهَدها : يحمل عليها في السّير فوق طاقتها ؛ جَهَدت دابتي ؛ بالفتح ، ويجوز : أجهدت ؛ والمراد أن أرباب تلك الفتن يجتهدون ويجدّون في إضرام نارها ، رَجْلا وفرسانا ، فالرّجل كنى عنهم بالقائد ، والفرسان كنى عنهم بالراكب .

والكَلَب : الشدّة من البرد وغيره ، ومثله الكُلْبة ؛ وقد كَلِب الشتاء ، وكَلِب القحط ، وكَلِب العدوّ ، والكَلَب أيضا : الشرّ ، دفعت عنك كَلَبَ فلان ، أى شرّه وأذاه .

(١) سورة هود ٨١ .

وقوله : « قليل سَلَبُهم » ، أى همُّهم القتل لا السلب ، كما قال أبو تمام .

إنّ الأسودَ أسودَ الغاب هِمَّتُها يومَ الكريهة فى المسلوب لا السَّلَبِ[١]

ثم ذكر عليه السلام أنّ هؤلاء أرباب الفتن يجاهدهم قوم أذلة ، كما قال الله تعالى : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [٢] ، وذلك من صفات المؤمنين .

ثم قال : هم مجهولون عند أهل الأرض لخمولهم قبل هذا الجهاد ؛ ولكنهم معروفون عند أهل السماء ، وهذا إنذار بملحمة تجرى فى آخر الزمان ؛ وقد أخبر النبى صلى الله عليه وآله بنحو ذلك ، وقد فسّر هذا الفصل قومٌ وقالوا : إنه أشار به إلى الملائكة لأنهم مجهولون فى الأرض ، معروفون فى السماء ، واعتذروا عن لفظة « قوم » ، فقالوا : يجوز أن يقال فى الملائكة قوم كما قيل فى الجن قوم ؛ قال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ [٣] ؛ إلا أن لفظ « أذلة عند المتكبرين » يبعد هذا التفسير .

ثم أخبر بهلاك البصرة بجيش من نقم الله لا رهج له ولا حسّ ، الرَّهج : الغبار ، وكنّى بهذا العيش عن جدْب وطاعون يصيب أهلها حتى يبيدهم . والموت الأحمر ، كناية عن الوباء والجوع .

الأغبر : كناية عن المحْل ، وسمّى الموت الأحمر لشدّته ؛ ومنه الحديث : « كنا إذا احمرّ البأس اتقينا برسول الله » ووصف الجوع بأنه أغبر ، لأن الجائع يرى الآفاق كأنّ عليها غبرة وظلاما ؛ وفسر قوم هذا الكلام بوقعة صاحب الزّنج ، وهو بعيد ، لأنّ جيشه كان ذا حسّ ورهج ، ولأنه أنذر البصرة بهذا الجيش عند حدوث تلك الفتن ؛ ألا تراه قال : « فويل لك يا بصرة عند ذلك » ، ولم يكن قبل خروج صاحب الزّنج فتن شديدة على الصفات التى ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام .

---

(١) ديوانه ١ : ٧١ .
(٢) سورة المائدة ٥٤ .
(٣) سورة الأحقاف ٢٩ .

(١٠٢)

الأصلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

انْظُرُوا إِلَى الدُّنْيَا نَظَرَ الزَّاهِدِينَ فِيهَا ؛ الصَّادِفِينَ عَنْهَا ؛ فَإِنَّهَا وَاللهِ عَمَّا قَلِيلٍ تُزِيلُ الثَّاوِيَ السَّاكِنَ ؛ وَتَفْجَعُ الْمُتْرَفَ الْآمِنَ ؛ لَا يَرْجِعُ مَا تَوَلَّى مِنْهَا فَأَدْبَرَ ، وَلَا يُدْرَى مَا هُوَ آتٍ مِنْهَا فَيُنْتَظَرُ .

سُرُورُهَا مَشُوبٌ بِالْحُزْنِ ، وَجَلَدُ الرِّجَالِ فِيهَا إِلَى الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ ؛ فَلَا يَغُرَّنَّكُمْ كَثْرَةُ مَا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا .

رَحِمَ اللهُ امْرَأً تَفَكَّرَ فَاعْتَبَرَ ، وَاعْتَبَرَ فَأَبْصَرَ ، فَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الدُّنْيَا عَنْ قَلِيلٍ لَمْ يَكُنْ ، وَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الْآخِرَةِ عَمَّا قَلِيلٍ لَمْ يَزَلْ ، وَكُلُّ مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ ، وَكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ ، وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ دَانٍ .

• • •

الشَّرْحُ :

الصادفين عنها ، أي المعرضين ، وامرأة صدوف : التي تعرض وجهها عليك ثم تصدف عنك .

وعمّا قليل : عن قليل ، وما زائدة .

والثاوي : المقيم ، ثوى يثوي ثواء وثُويًّا ، مثل مضى يمضي مضاء ومُضيًّا ، ويجوز : ثويتُ بالبصرة وثويت البصرة ، وجاء « أثويتُ بالمكان » ، لغة في « ثويت » ، قال الأعشى :

أنوَى وَقصَّر ليـــله ليزوَّدا فَمَضَتْ وأخلف من قُتيلة مَوْعِدَا[١]

والمترَف : الذى قد أترفته النعمة ، أى أطغته ؛ يقول عليه السلام : لا يعود على الناس ماأدبر وتولّى عنهم من أحوالهم الماضية ، كالشباب والقوة ، ولا يُعلم حال المستقبل من صحة أو مرض ، أو حياة أو موت لينتظر ، وينظر إلى هذا المعنى قول الشاعر :

وأضيَعُ العمرَ ، لا الماضى انتفعتُ بهِ ولا حَصَلْتُ على علمٍ من الباقى

ومشوب : مخلوط ، شُبْته أشوبه فهو مشوب ، وجاء « مشيب » فى قول الشاعر :

* وماء قدور فى القِصاع مشيب *

فبناه على « شِيب » لم يسمَّ فاعله ، وفى المثل : « هو يشوب ويروب » ، يضرب لمن يخلط فى القول أو العمل .

والجلَد : الصلابة والقوة . والوهَن : الضعف نفسه ، وإنما عطف للتأكيد ، كقوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[٢] ، وقوله : ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾[٣] .

ثم نهى عن الاغترار بكثرة المُعْجِب من الدنيا ، وعلّل حسنَ هــذا النهى ، وقبح الاغترار بما نشاهده عيانا من قلّة مايصحب مفارقيها منها . وقال الشاعر :

فَمَا تَزَوّد مما كانَ يجمعُه إلا حَنُوطاً غداة البين فى خِرَقِ

وغــــير نفحة أعوادٍ شببن له وقلّ ذلك من زادٍ لمنطلقِ

ثم جعل التفكّر علة الاعتبار ، وجعل الاعتبار علّة الإبصار ؛ وهــذا حقٌ ، لأنّ الفكر يوجب الاتّعاظ ، والاتّعاظ يُوجب الكشف ، والمشاهدة بالبصيرة التى نورها الاتّعاظ .

(١) ديوانه ١٥٠ ، وروايته : « ومضى » .
(٢) سورة المائدة ٤٨ .
(٣) سورة فاطر ٣٥ .

ثم ذكر أنّ ما هو كائن وموجود من الدنيا سيصير عن قليل — أى بعد زمان قصير — معدوماً ، والزمان القصير هاهنا : انقضاء الأجل وحضور الموت .

ثم قال : إنّ الذى هو كائن وموجود من الآخرة سيصير عن قليل — أى بعد زمان قصير أيضاً — كأنّه لم يزل ؛ والزمان القصير هاهنا هو حضور القيامة ؛ وهى وإن كانت تأتى بعد زمان طويل ، إلّا أنّ الميت لا يحسّ بطوله ، ولا فرقَ بين ألف ألف سنة عنده إذا عاد حيّاً ، وبين يوم واحد ، لأن الشعور بالبطء فى الزمان مشروط بالعلم بالحركة ، ويدلّ على ذلك حال النائم . ثم قال : كلّ معدود منقضٍ ، وهذا تنبيه بطريق الاستدلال النظرى على أنّ الدنيا زائلة ومنصرفة ، وقد استدلّ المتكلّمون بهذا على أنّ حركات الفلك يستحيل ألّا يكون لها أول ، فقالوا لأنها داخلة تحت العدد ، وكلّ معدود يستحيل أن يكون غير متناهٍ ، والكلام فى هذا مذكور فى كتبنا العقلية .

ثم ذكر أن كلّ ما يتوقع لابدّ أن يأتيَ ، وكلّ ما سيأتى فهو قريب وكأنه قد أتى ، وهـذا مثل قول قُسّ بن ساعدة الإيادىّ : مالى أرى الناس يذهبون ثم لا يرجعون ! أرَضُوا بالمقام فأقاموا ، أم تركوا هناك فناموا ! أقسم قُسٌ قسماً ، إنّ فى السماء لخبراً ، وإنّ فى الأرض لعبراً ؛ سقفٌ مرفوع ، ومهاد موضوع ، ونجوم تمور ، وبحار لا تفور . اسمعوا أيّها الناس وعوا ! مَنْ عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آتٍ آتٍ .

* * *

الأصْـلُ :

ومنها :

الْعَالِمُ مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ ، وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلاً أَلَّا يَعْرِفَ قَدْرَهُ ؛ وَإِنَّ مِنْ أَبْغَضِ الرِّجَالِ إِلَى اللّٰهِ تَعَالَى لَعَبْداً وَكَلَهُ اللّٰهُ إِلَى نَفْسِهِ ، جَائِراً عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ ، سَائِراً بِغَيْرِ

دَلِيلٌ ؛ إِنْ دُعِيَ إِلَى حَرْثِ الدُّنْيَا عَمِلَ ، وَإِنْ دُعِيَ إِلَى حَرْثِ الْآخِرَةِ كَسِلَ ؛ كَأَنَّ مَا عَمِلَ لَهُ وَاجِبٌ عَلَيْهِ ؛ وَكَأَنَّ مَا وَنَى فِيهِ سَاقِطٌ عَنْهُ .

* * *

الشَّرْحُ

قوله عليه السلام : « العالم مَنْ عرف قدره » ، من الأمثال المشهورة عنه عليه السلام، وقد قال الناس بعده فى ذلك فأكثروا، نحو قولهم : إذا جهلت قدر نفسك فأنت لقدر غيرك أجهل . ونحو قولهم : مَنْ لم يعرف قَدْرَ نفسه ، فالناس أعذَرُ منه إذا لم يعرفوه ، ونحو قول الشاعر أبى الطيب :

وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُه قَدْرَه رَأَى غيرُه منهُ مالَا يَرَى[1]

ثم عَبّر عن هذا المعنى بعبارة أخرى ، فصارت مثلا أيضا ، وهى قوله : « كفى بالمرء جهلا ألّا يعرف قدره » ، ومن الكلام المروىّ عن أبى عبد الله الصادق عليه السلام مرفوعا : « ماهلك امرؤ عرف قدره » ، رواه أبو العباس المبرد عنه فى الكامل .

قال : ثم قال أبو عبد الله عليه السلام : وما إخالُ رجلًا يرفع نفسه فوق قدرها إلا من خلل فى عقله .

وروى صاحب " الكامل " أيضا عن أبى جعفر الباقر عليه السلام ، قال : لما حضرت الوفاةُ علىّ بن الحسين عليه السلام أبى ضمّنى إلى صدره ، ثم قال : يابنىّ أوصيك بما أوصانى به أبى يوم قُتِل ، وبما ذكر لى أنّ أباه عليا عليه السلام أوصاه به : يابنىّ عليك ببَذْلِ نفسك ، فإنه لا يسرّ أباك بذُلّ نفسه حمر النعم .

وكان يقال : مَنْ عرف قدرَه استراح .

(١) ديوانه ١ : ٤٤

وفى الحديث المرفوع : « مارفع امرؤ نفسه فى الدنيا درجة إلا حطّه الله تعالى فى الآخرة درجات » .

وكان يقال : مَنْ رضِيَ عن نفسه كَثُرَ الساخطون عليه . ثم ذكر عليه السلام أنَّ مِنْ أبغض البَشَر إلى الله عبداً وكَلَه الله إلى نفسه ، أى لم يمدّه بمعونته وألطافه ، لعلمه أنه لاينجع ذلك فيه، وأنه لاينجذب إلى الخير والطاعة ، ولا يؤثر شيء مافى تحريك دواعيه إليها ، فيكِلُهُ الله حينئذ إلى نفسه .

والجائر : العادل عن السَّمت ، ولما كان هــذا الشقىّ خابطا فيا يعتقده ويذهب إليه مستندا إلى الجهل وفساد النّظر جعله كالسائر بغير دليل .

والحرث هاهنا : كلّ مايفعل لبثمر فائدة ، فحرث الدنيا كالتجارة والزراعة ، وحرث الآخرة فعل الطاعات واجتناب القبيحات والمعاصى ، وسمى حرثا على جهة المجاز ، تشبيها بحرث الأرض ، وهو من الألفاظ القرآنية .

وكَسِل الرجل بكسر السين ، يكسَل ، أى يتثاقل عن الأمور ، فهو كسلان ، وقوم كُسالى وكَسالى بالفتح والضم .

قال عليه السلام : حتّى كأن ماعمله من أمور الدنيا هو الواجب عليه ، لحرصه وجدّه فيه ، وكأنّ ماونى عنه ـ أى فتر فيه من أمور الآخرة ـ ساقط عنه ، وغير واجب عليه لإهماله وتقصيره فيه .

* * *

الأصل :

ومنها :

وذلِكَ زَمانٌ لَا يَنْجُو فِيهِ إلّا كلُّ مُؤمِنٍ نُوَمَةٍ ، إنْ شَهِدَ لَمْ يُعْرَفْ ، وَإنْ غابَ

أمْ مُعْتَقَدٌ؛ أُولَئِكَ مَصَابِيحُ الْهُدَى وَأَعْلامُ السُّرَى، لَيْسُوا بِالْمَسَابِيحِ وَلا الْمَذَايِيعِ الْبُذُرِ، أُولَئِكَ يَفْتَحُ اللهُ لَهُمْ أَبْوَابَ رَحْمَتِهِ، وَيَكْشِفُ عَنْهُمْ ضَرَّاءَ نِقْمَتِهِ.

أَيُّهَا النَّاسُ؛ سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ يُكْفَأُ فِيهِ الْإِسْلَامُ كَمَا يُكْفَأُ الْإِنَاءُ بِمَا فِيهِ.

أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّ اللهَ قَدْ أَعَاذَكُمْ مِنْ أَنْ يَجُورَ عَلَيْكُمْ، وَلَمْ يُعِذْكُمْ مِنْ أَنْ يَبْتَلِيَكُمْ، وَقَدْ قَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾[1].

* * *

قال الرضيّ رحمه الله تعالى:

أمّا قوله عَلَيْهِ السَّلام: «كُلُّ مُؤمِنٍ نُوَمَةٍ» فإنما أراد به الخامل الذِّكر القليل الشرّ، والمَسَايِيحُ: جمعُ مِسْيَاحٍ، وهو الذي يَسِيحُ بين الناس بالفساد والنمائم، والمَذَايِيعُ: جمعُ مِذْيَاعٍ، وهو الذي إذا سمع لغيره بفاحشةٍ أذاعها، ونَوَّهَ بها. والبُذُرُ: جمع بَذُورٍ، وهو الذي يكثر سَفَهُهُ ويلغو مَنطِقُهُ.

* * *

الشرح:

شهد: حضر، وكفأت الإناء، أي قلبتُه وكببته. وقال ابن الأعرابي: يجوز أكفأته أيضاً. والبُذُر: جمع بَذُور مثل صَبُور وصُبُر؛ وهو الذي يذيع الأسرار؛ وليس كما قال الرضيّ رحمه الله تعالى، فقد يكون الإنسان بَذُوراً وإن لم يكثر سفهه ولم يَلْغُ منطقه؛ بأن يكون عُلَنَة مذياعاً من غير سفه ولا لغو. والضَّرَّاء: الشدّة، ومثلها البأساء؛ وهما اسمان مؤنثان من غير تذكير، وأجاز الفرّاء أن يجمع على آضُر وأبؤس، كما يُجمع النعماء على أنعُم.

* * *

(١) سورة المؤمنين ٣٠

واعلم أنه قد جاء في التواضع وهَضْم النفس شيء كثير ؛ ومن ذلك الحديث المرفوع : « مَنْ تواضع لله رفعه الله ، ومن تكبّر على الله وضعه » .

ويقال : إنّ الله تعالى قال لموسى : إنما كلمتك لأنّ في أخلاقك خُلُقاً أحبه الله ، وهو التواضع .

ورأى محمد بن واسع ابنه يمشي الخُيَلاء ، فناداه فقال : ويلك ! أتمشي هذه المِشية ، وأبوك أبوك ، وأمك أمك ! أما أمك فأَمة ، ابتعتُها بمائتي درهم ؛ وأما أبوك فلا كثّر الله في الناس مثله .

ومثل قوله عليه السلام : « كل مؤمن نُوَمة إنْ شَهِد لم يعرَف وإن غاب لم يفتقد » ، قولُ رسول الله صلى الله عليه وآله : « رب أشعثَ أغبرَ ذي طِمْرين لا يُؤْبه له ، لو أقسم على الله لأبرَّ قسمه » .

وقال عمر لابنه عبدالله : التمس الرِّفعة بالتواضع والشرف بالدين ، والعفو من الله بالعفو عن الناس ، وإياك والخُيَلاء ، فتضع من نفسك ، ولا تحقرنّ أحداً فإنك لا تدري لعلّ مَنْ تزدريه عيناك أقربُ إلى الله وسيلةً منك .

وقال الأحنف : عجبتُ لمن جرى في مَجْرى البول مرتين ، من فَرْجين ، كيف يتكبّر !

وقد جاء في كلام رسول الله صلى الله عليه وآله ما يناسب كلام أمير المؤمنين عليه السلام هذا : « إن الله يحبُّ الأخفياء الأتقياء الأبرياء ، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ؛ يخرجون من كلّ غبراء مظلمة » .

* * *

وأما إفشاء السرّ وإذاعته ، فقد ورد فيه أيضاً ما يكثر ، ولو لم يرد فيه إلا قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ‌• هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ [1] لكفى .

(١) سورة القلم ١٠ ، ١١

وفى الحديث المرفوع : « مَنْ أكل بأخيه أكلة أطعمه الله مثلها من نار جهنم » قيل فى تفسيره : هو أن يسعى بأخيه ويجرّ نفعا بسعايته .

الجنيد : سَتْر ما عاينتَ أحسنُ من إشاعة ما ظننت .

عبد الرحمن بن عوف : من سمع بفاحشة فأفشاها فهو كالذى أتاها .

قال رجل لعمرو بن عُبيد : إن عليا الأسوارى لم يزل منذ اليوم يذكرك بسوء ويقول : الضالّ . فقال عمرو : يا هذا ، ما رعيت حقّ مجالسة الرجل حين نقلتَ إلينا حديثه ، ولا وفيتنى حقى حين أبلغتنى عن أخى ما أكرهه ! اعلم أنّ الموت يعمّنا ، والبعث يحشرُنا ، والقيامة تجمعنا ، والله يحكم بيننا .

وكان يقال : مَنْ نمّ إليك نمّ عليك .

وقالوا فى السعاة : يكفيك أن الصدق محمود إلا منهم ، وإن أصدقهم أخبثهم .

وشى واش برجل إلى الإسكندر ، فقال له : أتحبّ أن أقبل منك ما قلتَ فيه ، على أن أقبل منه ما قال فيك ؟ قال : لا ، قال : فكُفَّ عن الشر يكفَّ عنك .

قال رجل لفيلسوف : عابك فلان بكذا ، قال : لقيتَنى اقحتك بما لم يلقنى به لحيائه .

عاب مصعب بن الزبير الأحنفَ عن شىء بلغه عنه ، فأنكره ، فقال : أخبرَنى بذلك الثقة ، فقال : كلّا أيها الأمير ، إن الثقة لا يَنِمّ .

عرض بعضُ عمال الفضل بن سهل عليه رقعة ساع فى طىّ كتاب كتبه إليه ، فوقّع الفضل : قبول السعاية شرٌّ من السعاية ، لأن السعاية دلالة ، والقبول إجازة ، وليس مَنْ دلّ على قبيح كمن أجازه وعمل به ، فاطرُدْ هذا الساعىَ عن عملك ، وأقْصِه عن بابك ، فإنه لو لم يكن فى سعايته كاذباً لكان فى صدقه لئيما ، إذ لم يَرْعَ الحرمة ، ولم يستر العورة ، والسلام .

صالح بن عبد القدوس :

مَنْ يخــبِّرك بشتمٍ عن أخٍ   فهو الشــاتمُ ، لامَنْ شتَمَكْ
ذاك شيء لم يواجهْك به   إنما اللوم عَلَى مَنْ أعْلَمكْ
كيف لم ينصرك إن كان أخــا   ذا حفاظ عنـد مَنْ قد ظلمك ؟

طريح بن إسماعيل الثقفي[1] :

إن يعلمُوا الخـير يخفُوه وإن علموا   شرًّا أذاعوا ، وإن لم يعلموا كَذَبُوا

ومعنى قوله عليه السلام : « وإن غاب لم يفتقد » ، أي لايقال : ماصنع فلان،ولاأين هو ؟ أي هو خامل لايعرف .

وقوله : « أولئك يفتح الله بهم أبواب الرحمة ، ويكشف بهم ضراء النقمة »؛وروى: « أولئك يفتح الله بهم أبواب رحمته، ويكشف بهم ضرّاء نقمته » ، أي ببركاتهم يكون الخير ويندفع الشر .

ثم ذكر عليه السلام أنه سيأتى على الناس زمانٌ تنقلب فيه الأمور الدينية إلى أضدادها ونقائضها ، وقد شهدنا ذلك عيانا .

ثم أخبر عليه السلام أن الله لايجور على العباد ، لأنه تعالى عادل[2] ولا يظلم ولكنه يبتلى عباده أى يختبرهم ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾[3]، والمراد أنه تعالى ، إذا فسد الناس لايلجئهم إلى الصلاح ؛ لكن يتركهم واختيارهم امتحانا لهم ، فمن أحسن أثيب ، ومن أساء عوقب .

---

(١) ساقطة من ب   (٢) ب : « عال » .
(٣) سورة « المؤمنون » ٣٠

(١٠٣)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وَتَعالَى بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتاباً ، وَلا يَدَّعِي نُبُوَّةً وَلا وَحْياً ؛ فَقاتَلَ بِمَنْ أَطاعَهُ مَنْ عَصاهُ ؛ يَسُوقُهُمْ إِلَى مَنْجاتِهِمْ ؛ وَيُبادِرُ بِهِمُ السَّاعَةَ أَنْ تَنْزِلَ بِهِمْ ؛ يَحْسِرُ الْحَسِيرُ ، وَيَقِفُ الْكَسِيرُ ، فَيُقِيمُ عَلَيْهِ حَتَّى يُلْحِقَهُ غايَتَهُ ؛ إِلَّا هالِكاً لا خَيْرَ فِيهِ . حَتَّى أَراهُمْ مَنْجاتَهُمْ ، وَبَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ ، فَاسْتَدارَتْ رَحاهُمْ ، وَاسْتَقامَتْ قَناتُهُمْ . وَايْمُ اللهِ لَقَدْ كُنْتُ مِنْ ساقَتِها حَتَّى تَوَلَّتْ بِحَذافِيرِها ، وَاسْتَوْسَقَتْ فِي قِيادِها ؛ ماضَعُفْتُ وَلا جَبُنْتُ ، وَلا خُنْتُ وَلا وَهَنْتُ . وَايْمُ اللهِ لَأَبْقُرَنَّ الْباطِلَ حَتَّى أُخْرِجَ الْحَقَّ مِنْ خاصِرَتِهِ .

* * *

قال الرضيّ رحمه الله تعالى :

وقد تقدّم مختارهذه الخطبة ؛ إلاّ أنني وجدتها في هذه الرواية على خلاف ماسبق من زيادة ونقصان ؛ فأوجبت الحال إثباتها ثانية .

* * *

الشّرْحُ :

لقائل أن يقول : ألم يكن في العرب نبيّ قبل محمد ؛ وهو خالد بن[1] سنان العبسي ؛ وأيضا فقد كان فيها هود وصالح وشعيب .

(١) هو خالد بن سنان بن عبث العبسي ، ذكره الرسول عليه السلام ؛ وقال : « ذلك نبي أضاعه قومه » . وانظر أخباره في مروج الذهب ١ : ١٣١ (طبع أوربا) .

ويجيب هذا القائل بأنّ مراده عليه السلام أنّه لم يكن في زمان محمد صلى الله عليه وآله وما قاربه مَن ادعى النبوّة ، فأما هود وصالح وشعيب ، فكانوا في دَهْرٍ قديم جدا ، وأما خالد بن سنان فلم يقرأ كتابا ، ولا يدّعي شريعة وإنما كانت نبوّة مشابهة لنبوّة جماعة من أنبياء بني إسرائيل الذين لم يكن لهم كتب ولا شرائع ، وإنما ينهون عن الشرك ، ويأمرون [1] بالتوحيد .

ومنجاتهم : مجاتهم ، نجوت من كذا نجاء ، ممدود ، ونجاً مقصور . ومنجاة على « مَفْعَلة » ، ومنه قولهم : « الصدق مَنجاة » .

قوله عليه السلام : « ويبادر بهم الساعة » ، كأنه كان يخاف أن تسبقه القيامة ، فهو يبادرها بهدايتهم وإرشادهم قبل أن تقوم ، وهم على ضلالهم .

والحسير : المعيا ، حَسَر البعير بالفتح ، يحسِر بالكسر حُسورا ، واستحسر مثله ، وحسرته أنا ، يتعدّى ولا يتعدّى ، حَسْرا فهو حسير ، ويجوز أحسرته ، بالهمزة ، والجمع حَسْرى ، مثل قتيل وقَتْلَى ، ومنه حَسَر البصر ، أي كَلَّ ، بحسير ، قال تعالى : ﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [2] . وهذا الكلامُ من باب الاستعارة والمجاز ، يقول عليه السلام : كان النبيّ صلى الله عليه وآله لحِرْصه على الإسلام وإشفاقه على المسلمين ، ورأفته بهم ، يلاحظ حالَ من تزلزل اعتقاده ، أو عرضتْ له شبهة ، أو حدثت عنده ريب ، ولا يزال يوضّح له ويرشده حتى يزيل ما خامر سرَّه من وساوس الشيطان ، ويلحقه بالمخلصين من المؤمنين ، ولم يكن ليقصّر في مراعاة أحد من المكلّفين في هذا المعنى إلاّ مَنْ كان يعلم أنّه لا خير فيه أصلا ، لعناده وإصراره على الباطل ، ومكابرته للحقّ .

ومعنى قوله : «حتى يلحقه غايتَه» ، حتى يوصّله إلى الغاية التي هي الغرض بالتكليف ، يعني اعتقاد الحقّ وسكون النفس إلى الإسلام ، وهو أيضا معنى قوله : «وبوّأهم محلّتهم» .

(١) ساقطة من ب .
(٢) سورة الملك ٤ .

ومعنى قوله :« فاستدارت رحاهم » ، انتظم أمرُهم ، لأن الرّحا إنّما تدور إذا تكاملت أدواتها وآلاتها كلّها ، وهو أيضا معنى قوله : « واستقامت قناتهم » ، وكلٌّ هذا من باب الاستعارة .

ثم أقسم أنه عليه السلام كان من ساقتها ، الساقة : جمع سائق ، كقادة جمع قائد ، وحاكة جمع حائك، وهذا الضمير المؤنث يرجع إلى غير مذكور لفظا، والمراد الجاهلية، كأنه جعلها مثلَ كتيبة مصادمة لكتيبة الإسلام ، وجعل نفسه من الحاملين عليها بسيفه ، حتى فرّت وأدبرت ، واتبعها يسوقها سوقا وهي مولّية بين يديه .

حتى أدبرت بحذافيرها ، أي كلها عن آخرها.

ثم أتى بضمير آخر إلى غير مذكور لفظا ، وهو قوله : « واستوسقت في قيادها » يعني الملّة الإسلامية أو الدعوة ، أو ما يجري هذا المجرى ، واستوسقت : اجتمعت ، يقول : لما ولّت تلك الدعوة الجاهلية استوسقت هذه في قيادها كما تستوسق الإبل المقودة إلى أعطانها . ويجوز أن يعود هذا الضمير الثاني إلى المذكور الأول وهو الجاهلية ، أي ولّت بحذافيرها واجتمعت كلُّها تحت ذلّ المقادة .

ثم أقسم أنّه ما ضعف يومئذ ولا وَهَن ولا جَبُن ولا خان ، وليبقرنّ الباطل الآن حتى يخرج الحقّ من خاصرته ، كأنّه جعل الباطل كالشيء المشتمل على الحق غالبا عليه ، ومحيطا به ، فإذا بُقر ظهر الحق الكامن [1] فيه ، وقد تقدم منّا شرح ذلك .

---

(١) ب : « الكائن » .

(١٠٤)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

حَتَّى بَعَثَ اللهُ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ شَهِيداً وَبَشِيراً وَنَذِيراً ، خَيْرَ الْبَرِيَّةِ طِفْلاً ، وَأَنْجَبَهَا كَهْلاً ، وَأَطْهَرَ الْمُطَهَّرِينَ شِيمَةً ، وَأَجْوَدَ الْمُسْتَمْطَرِينَ دِيمَةً ، فَمَا احْلَوْلَتْ لَكُمُ الدُّنْيَا فِي لَذَّتِهَا[1] ، وَلَا تَمَكَّنْتُمْ مِنْ رَضَاعِ أَخْلَافِهَا ، إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ . صَادَفْتُمُوهَا جَائِلاً خِطَامُهَا ، قَلِقاً وَضِينُهَا ؛ قَدْ صَارَ حَرَامُهَا عِنْدَ أَقْوَامٍ بِمَنْزِلَةِ السِّدْرِ الْمَخْضُودِ ، وَحَلَالُهَا بَعِيداً غَيْرَ مَوْجُودٍ ، وَصَادَفْتُمُوهَا وَاللهِ ظِلّاً مَمْدُوداً إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ .

فَالْأَرْضُ لَكُمْ شَاغِرَةٌ ، وَأَيْدِيكُمْ فِيهَا مَبْسُوطَةٌ ؛ وَأَيْدِي الْقَادَةِ عَنْكُمْ مَكْفُوفَةٌ ، وَسُيُوفُكُمْ عَلَيْهِمْ مُسَلَّطَةٌ ، وَسُيُوفُهُمْ عَنْكُمْ مَقْبُوضَةٌ .

أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ دَمٍ ثَائِراً ، وَلِكُلِّ حَقٍّ طَالِباً ، وَإِنَّ الثَّائِرَ فِي دِمَائِنَا كَالْحَاكِمِ فِي حَقِّ نَفْسِهِ ، وَهُوَ اللهُ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ مَنْ طَلَبَ ؛ وَلَا يَفُوتُهُ مَنْ هَرَبَ . فَأُقْسِمُ بِاللهِ يَا بَنِي أُمَيَّةَ عَمَّا قَلِيلٍ لَتَعْرِفُنَّهَا فِي أَيْدِي غَيْرِكُمْ ، وَفِي دَارِ عَدُوِّكُمْ .

* * *

الشرح :

معنى كون النبيّ صلى الله عليه وآله شهيداً ، أنّه يشهد على الأمة بما فعلته من طاعة وعصيان . أنجبها : أكرمها ، ورجل نجيب ؛ أي كريم بيّن النَّجابة ، والنُّجَبة مثل الهُمَزة ؛

---

(١) مخطوطة النهج : « لذاتها » .

ويقال: هو نُجْبَةُ القوم؛ أى النجيب منهم ،وأنجب الرجل، أى ولد ولدا نجيبا ،وامرأة منجبة ومِنْجاب ، تلد النُّجَباء ، ونسوة مناجيب .

والشيمة : الْخلق . والديمة : مطر يدوم . والمستطرون : المستَجْدَوْنَ والسَّماحون. واحلولت : حلَت ، وقد عدّاهُ حيد بن ثور فى قوله[1] :

فَلَمَّا أَتَى عَامَانِ بَعْدَ انفِصَالِهِ عَنِ الضَّرْعِ ، واحْلَوْلَى دِمَاثًا يَرُودها[2]

ولم يجئ « افعوعل »متعديا إلا هذا الحرف وحرف آخر ، وهو اعرورت الفرس.

وهوالرَّضاع ، بفتح الراء : رضع الصبىُّ أمَّه، بكسر الضاد يرضعها رضاعا، مثل سمع يسمع سماعا ؛ وأهل نجد يقولون : رَضَع بالفتح يرضِع بالكسر ، مثل ضرَب يضرب ضربا .

وقال الأصمعىّ : أخبرنى عيسى بن عمر أنه سمع العرب تُنْشد هذا البيت :

وَذَمُّوا لَنَا الدُّنْيَا وَهُمْ يَرْضِعُونَهَا أَفَاوِيقَ حتى مايَدِرّ لها ثُعْلُ[3]

بكسر الضاد . والأخْلاف للناقة بمنزلة الأطباء للكلبة ، واحدها خِلْف بالكسر ، وهو حَلَمة الضَّرْع . والخطام : زمام الناقة ؛ خطمت البعير : زممته ، وناقة مخطومة ، ونوق مخطّمة .

والوَضِين للهودج : بمنزلة البطان للقَتَب ، والتصدير للرحْل ، والحزام للسرْج؛ وهو سُيور تُنْسج مضاعفة بعضها على بعض ،يشدّ بها الهودج منه إلى بطن البعير ، والجمع وُضُن.

والمخضود : الذى خُضِد شوكه ، أى قطع .

وشاغرة : خالية ، شَغَر المكان ، أى حلا ، وبلدة[4] شاغرة . إذا لم تمتنع من غارة أحد . والثائر : طالب الثأر ، لا يبقى على شىء حتى يدرك ثأره .

---

(١) ديوانه ٧٠٣ .

(٢) احلولى : استحلى واستمرأ ، والدماث : جمع دمث ؛ وهو السهل اللين الكثير النبات من الأرض، ويرودها : يأتيها للرعى .

(٣) اللسان ٩ : ٤٨٤ ، ونسبه إلى ابن همام السلولى .

(٤) ساقطة من ط .

يقول عليه السلام مخاطبا لمن فى عصره من بقايا الصحابة ولغيرهم من التابعين ، الذين لم يدركوا عَصْر رسول الله صلى الله عليه وآله : إن الله بعثَ محمدا ، وهو أكرم الناس شيمة ، وأنداهم يدا ، وخيرهم طفلا ، وأنجبهم كَهْلًا ، فصانه الله تعالى فى أيام حياته عن أن يفتح عليه الدنيا ، وأكرمه عن ذلك فلم تُفْتَح عليكم البلاد ، ولا دَرّت عليكم الأموال ، ولا أقبلت الدنيا نحوكم ، وما دالت الدولة لكم إلا بعده ، فتمكنتم من أكلها والتمتع بها ، كما يتمكّن الحالب من احتلاب الناقة فيحلبها ، وحلت لذّاتها لكم ، واستطبتم العيشة ، ووجدتموها حُلْوة خضرة .

ثم ذكر أنهم صادفوها ـ يعنى الدنيا ـ وقد صُعِّبت على مَنْ يليها ولاية حق ، كما تستصعبُ الناقة على راكبها إذا كانت جائلة الخطام ، ليس زمامها بممكّن راكبها من نفسه ، قلقة الوضين ، لايثبت هودجُها تحت الراكب ، حرامها سهل التناول على من يريده ، كالسِّدْر الذى خُضِد عنه شوكه ، فصار ناعما أملس ، وحلالها غير موجود لغلبة الحرام عليه ، وكونه صار مغمورا مُسْتَهلَكاً بالنسبة إليه ، وهذا إشارة إلى ما كان يقوله دائما من استبداد الخلفاء قبله دونه بالأمر ، وأنه كان الأولى والأحقّ .

* * *

فإن قلت : إذا كانت الدنيا قَلِقة الوضين ، جائلة الخطام ، فهى صَعْبة الركوب ، وهذا ضدّ قوله : « حرامها بمنزلة السدر المخضود » ، لأنه من الأمثال المضروبة للسهولة !

قلت : فحوى كلامه أنّ الدنيا جمحت به عليه السلام ، فألقته عن ظهرها بعد أن كان راكبا لها أو كالراكب لها لاستحقاقه ركوبها ، وأنها صارت بعده كالناقة التى خَلَعَتْ زمامها ، أو أجالته فلا يتمكّن راكبها من قبضه ، واسترخى وَضِينُها لشدّة ما كان صدر عنها من النفار والتقحّم ، حتى أذْرَتْ راكبها ، فصارت على حال لا يركبها إلا من هو موصوف بركوب غير طبيعى ، لأنه ركب مالا ينبغى أن يركب ، فالذين وَلُوا أمرها وَلُوه

على غير الوجه ، كما أن راكب هذه الناقة يركبها على غير الوجه ، ولهذا لم يقل : « فصار حرامها بمنزلة السدر المخضود » بل قال « عند أقوام » ، فخصّص .

وهذا الكلام كلّه محمول عند أصحابنا على التألّم من كون المتقدمين تركوا الأفضل، كما قدمناه فى أول الكتاب .

ثم ذكر عليه السلام أنّ الدنيا فانية ، وأنها ظِلٌّ ممدود إلى أجل معدود . ثم ذكر أنّ الأرض بهؤلاء السكان فيها صورة خالية من معنى ، كما قال الشاعر :

ما أكثرَ النّاسَ ، لابل ما أقلَّهُمُ ... اللهُ يَعْلَمُ أنّى لم أقُلْ فَنَدَا[1]

إنّى لأفْتَحُ عَيْنِى ثم أغْمِضُها ... عَلَى كَثيرٍ ، ولكنْ لا أرى أحدَا

* * *

ثم أعاد الشكوى والتألم فقال : أيديكم فى الدنيا مبسوطة ، وأيدى مستحقّى الرّياسة ومستوجبى الأمر مكفوفة ، وسيوفكم مسلّطة على أهل البيت الذين هم القادة والرؤساء ، وسيوفهم مقبوضة عنكم ، وكأنّه كان يرمز إلى ماسيقع من قتل الحسين عليه السلام وأهله ، وكأنّه يشاهد ذلك عيانا ، ويخطب عليه ويتكلّم على الخاطر الذى سَنَح له ، والأمر الذى كان أخبر به ، ثم قال : إنّ لكل دمٍ ثائرا يطلب القَوَدَ ، والثائر بدمائنا ليس إلا الله وحدَه ، الذى لا يُعجزه مطلوب ، ولا يفوته هارب .

ومعنى قوله عليه السلام : « كالحاكم فى حقّ نفسه » ، أنّه تعالى لا يقصّر فى طلب دمائنا كالحاكم الذى يحكم لنفسه ، فيكون هو القاضى وهو الخصم ، فإنه إذا كان كذلك يكون مبالغاً جدا فى استيفاء حقوقه .

ثم أقسم وخاطب بنى أمية ، وصرح بذكرهم أنّهم ليعرفنّ الدنيا عن قليل فى أيدى غيرهم وفى دورهم ، وأنّ الملك سينتزعه منهم أعداؤهم ، ووقع الأمر بموجب إخباره عليه

---

(١) البيتان لدعبل ، ديوانه ٥٧ ، وهما أيضاً فى العقد لابن عبد ربه ٢ : ٢٩٥ .

السلام ، فإنّ الأمر بقىّ فى أيدى بنى أمية قريبا من تسعين سنة ؛ ثم عاد إلى البيت الهاشمىّ ، وانتقم الله تعالى منهم على أيدى أشدّ الناس عداوة لهم .

* * *

[هزيمة مراون بن محمد فى موقعة الزاب ، ثم مقتله بعد ذلك]

سار عبد الله بن علىّ بن عبد الله بن العباس فى جمع عظيم للقاء مروان بن محمد ابن مروان ، وهو آخر خلفاء الأمويين ، فالتقيا بالزّاب[1] من أرض الموصل ، ومروان فى جموع عظيمة وأعداد كثيرة ، فهزم مروان ، واستولى عبد الله بن على على عسكره ، وقتل من أصحابه خلقا عظيما ، وفرّ مروان هاربا حتى أتى الشام وعبد الله يتبعه ، فصار إلى مصر ، فاتبعه عبدُ الله بجنوده ، فقتله ببوصير الأشمونين من صعيد مصر ، وقتل خواصّه وبطانته كلّها ، وقد كان عبد الله قتل من بنى أمية على نهر أبى فُطْرُس[2] من بلاد فلسطين قريبا من ثمانين رجلا ، مثّل بهم مُثْلة[3] واحتذى أخوه داود بن علىّ بالحجاز فعله ، فقتل منهم قريبا من هذه العدّة بأنواع المُثَل .

وكان مع مروان حين قُتِل ابناه عبد الله وعبيد الله — وكانا وليّى عهده — فهرّبا فى خواصّهما إلى أسْوان من صعيد مصر ثم صارا إلى بلاد النوبة ونالهم جَهْدٌ شديد وضُرٌّ عظيم ، فهلك عبد الله بن مروان فى جماعة ممّن كان معه قتلا وعطشا وضُرًّا ، وشاهد من بقىّ منهم أنواع الشدائد وضروب المكاره ، ووقع عبيد الله فى عدّة ممّن نجا معه فى أرض البُجَه[4] وقطعوا البحر إلى ساحل جُدّة ، وتنقل فيمن نجا معه من أهله ومواليه فى البلاد مستترين راضين أن يعيشوا سُوقة بعد أن كانوا ملوكا فظُفِر بعبد الله أيام السفاح ، فحبس

(١) هو الزاب الأعلى ، بين الموصل وإربل .

(٢) فطرس ، ضبطه صاحب مراصد الاطلاع بضم الفاء وسكون الطاء وضم الراء وسين مهملة ؛ وقال : موضع قرب الرملة من أرض فلسطين .

(٣) يقال : مثل فلان بالقتيل مثلة ومثلا ، أى جدعه وظهرت آثار فعله عليه .

(٤) انظر تاريخ الطبرى ٣ : ١٤٢٨ (طبع أوربا) .

فلم يزل فى السجن بقية أيام السفّاح ، وأيام المنصور ، وأيام المهدى ، وأيام الهادى وبعض أيام الرشيد ، وأخرجه الرشيد وهو شيخ ضرير ، فسأله عَنْ خبره ، فقال : يا أمير المؤمنين ، حُبست غلاما بصيرا ، وأخرجْت شيخاً ضريرا ! فقيل : إنّه هلك فى أيام الرشيد ، وقيل : عاش إلى أن أدرك خلافة الأمين .

• • •

شهد يوم الزّاب مع مَرْوان فى إحــدى الروايتين إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك المخلوع ، الذى خُطب له بالخلافة بعد أخيه يزيد بن الوليد بن عبد الملك فقتل فيمنْ قُتِل . وفى الرواية الثانية إنّ إبراهيم قتله مَرْوان الحمار قبل ذلك .

• • •

لمـا انهزمَ مَرْوان يوم الزّاب مضى نحو الموصــل ، فمنعه أهلُها من الدخول ؛ فأتى حَرّان ، وكانت داره ومقامه ، وكان أهل حَرّان حين أزيل لعن أمير المؤمنين عن المنابر فى أيام الجمع امتنعوا من إزالته ، وقالوا : لا صلاة إلا بلعن أبى تراب ، فاتبعه عبد الله بن علىّ بجنوده ، فلما شارفه خرج مروان من حَرّان هاربا بين يديه وعبر الفرات ، ونزل عبد الله ابن علىّ على حَرّان ، فهدم قصر مروان بها ، وكان قد أنفق على بنائه عشرة آلاف ألف درهم ، واحتوى على خزائن مَرْوان وأمواله ، فسار مَرْوانُ بأهله وعِترته من بنى أميــة وخواصه ، حتى نزل بنهر أبى فُطْرس ، وسار عبدالله بن علىّ حتى نزل دمشق ، فحاصرها وعليها مِنْ قِبَل مَرْوان الوليد بن معاوية بن عبد الملك بن مَرْوان فى خمسين ألف مقاتل ، فألقى الله تعالى بينهم العصبية فى فَضْل نزار على اليمن ، وفَضْل اليمن على نزار ، فقتِل الوليد — وقيــل بل قُتِل فى حرب عبــد الله بن على — وملَك عبــدُ الله دمشق ، فأتى يزيد ابن معاوية بن عبد الملك بن مروان وعبد الجبار بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ، فحملهما مأسورين إلى أبى العباس السفاح ، فقتلهما وصلبهما بالحيرة ، وقتَل عبد الله بن علىّ بدمشق خلقا كثيرا من أصحاب مَرْوان وموالى بنى أمية وأتباعهم ، ونزل عبد الله على نهر

أبى فُطْرس ، فقتل من بنى أمية هناك بضعا وثمانين رجلا ، وذلك فى ذى القعدة من سنة ثنتين وثلاثين ومائة .

***

[شعر عبد الله بن عمرو العبلىّ فى رثاء قومه]

وفى قتلى نهر أبى فُطْرس وقتلى الزاب يقول أبو عدىّ عبد الله بن عمرو العبلىّ ، وكان أموىّ الرأى :

تقول أمامةُ لمّا رأتْ ... نشوزِى عن المضجع الأملسِ (١)
وقلّةَ نومِى على مضجعِى ... لدَى هَجْعَة الأعين النُّعَّسِ :
أبى ، ما عراكَ ؟ فقلت : الهمومُ ... عَرَيْنَ أباكِ فلا تُبْلِسِى (٢)
عَرَيْنَ أباكِ فَحَبَّسْنَهُ ... مِنَ الذلّ فى شرّ ما محبس
لِفَقْدِ الأحبّةِ إذْ نالَها ... سهامٌ من الحدَث المُبْئِسِ (٣)
رمتْها المنون بلا نُكّلٍ ... ولا طائشاتٍ ولا نُكَّسِ
بأسْهُمِها المتلفاتِ النفو ... سَ متَى ما تصب مهجة تُخْلَسِ
فَصَرْعَى منهمْ بنواحى البلا ... دِ تُلقَى بأرض ولم يُرْمَسِ (٤)
نَقِىّ أصيب وأثوابُهُ ... مِنَ العَيْبِ والعار لم تَدْنَسِ (٥)
وآخرُ قد رُسّ فى حفرةٍ ... وآخرُ طار فلم يُحْسَسِ (٦)
أفاض المدامعَ قتلى كُدَى ... وقَتْلَى بِكُثْوةَ لم تُرْمَسِ (٧)
وقَتْلَى بِوَجٍّ وباللّابَتَيْـ ... ـنِ من يثرب خيرُ ما أنْفُسِ (٨)

(١) الأغانى ٤ : ٣٤٠ (طبعة الدار) ؛ وروايته : « المضجع الأنفس » .
(٢) لا تبلسى : لا تحزنى . (٣) فى الأصل « المبلس » وأثبت رواية الأغانى .
(٤) الأغانى : « ولم يرمس » ، والرس والرمس : الدفن .
(٥) الأغانى : « تقى » . (٦) الأغانى : « قد دس » .
(٧) كدى : موضع بالطائف ، وكثوة : موضع بعينه .
(٨) وج : اسم واد بالطائف .

وبالزابيَيْن نفوسٌ ثوَتْ ... وَقَتْلَى بنهرِ أبى فُطْرُسِ [١]

أولئك قومى أناخَتْ بهمْ ... نوائبُ من زمن مُتْعِسِ

إذا ركبوا زينُوا الموكِبَـ ... ـيْنِ وإنْ جلسوا زينةُ المجلسِ [٢]

وإنْ عنَ ذِكْرُهُمُ لم ينَمْ ... أبوكِ ، وأوْحش فى المأتمِ

فذاكِ الذى غالنِى فاعْلَمِى ... ولا تسألى بامرىءٍ متعَسِ

هُمُ أضرعونى لريب الزما ... نِ وهم ألصقوا الخدّ بالمَعْطِسِ [٣]

* * *

[أنفة ابن مسلمة بن عبد الملك]

وروى أبو الفرج الأصفهانى فى كتاب الأغانى ، قال : نظر عبدالله بن علىّ فى الحرب إلى فتى عليه أُبهة الشَّرف ، وهو يحارب مستقتلاً [٤] ، فناداه : يافتى ، لك الأمان ، ولو كنتَ مَرْوان بن محمد ! قال : إلّا أكنه فلست بدونه ! فقال : ولك الأمان ، ولو كنتَ من كنت ، فأطرق ، ثم أنشد :

لَذُلُّ الحياة وكُرْهُ المما [٥] ... تِ وكُلاًّ أراهُ طعاماً وبيلا [٦]

وإنْ لم يكنْ غيرُ إحداهما ... فَسَيْراً إلى الموت سَيْراً جميلا

ثم قاتل حتى قتل ، فإذا هو ابن مسلمة بن عبد الملك [٧] .

---

(١) الزابيان : تثنية زاب ، وهو الزاب الأعلى والزاب الأسفل ؛ ويريد به الأعلى ؛ وبه كانت الوقعة

(٢) الأغانى : « الزين فى المجلس » .

(٣) رواية الأغانى :

هُمُ أضرعونِى لريبِ الزما ... نِ وهُمُ ألصقوا الرَّغْمَ بالمعطسِ

(٤) الأغانى : « مستقتلا » ؛ وهو الخارج من الصف المتقدم على أصحابه .

(٥) الأغانى : « أذل الحياة » .

(٦) إحدى روايتى الأغانى :

« وكُلًّا أرى لك شرًّا وبيلا »

(٧) الأغانى ٤ : ٣٤٣ ، ٣٤٤ (طبعة الدار) .

[مما قيل من الشعر فى التحريض على قتل بنى أمية]

وروى أبو الفرج أيضاً ، عن محمد بن خلف وكيع ، قال : دخل سَديف مولى آل أبي[1] لهب على أبي العباس بالحيرة ، وأبو العباس جالس على سريره ، وبنو هاشم دونه على الكراسىّ وبنو أمية حوله على وسائد قد ثنيت لهم ، وكانوا فى أيام دولتهم يجلسونهم والخليفة[2] منهم على الأسرّة ، ويجلس بنو هاشم على الكراسىّ ، فدخل الحاجب ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، بالباب رجل حجازىّ أسود راكب على نجيب متلثم ، يستأذن ولا يخبر باسمه ، ويحلف لا يحسر اللثام عن وجهه حتى يرى أمير المؤمنين ! فقال : هذا سَديف مولانا ، أدخله ؛ فدخل فلما نظر إلى أبي العباس وبنو أمية حوله حَسَر اللثام عن وجهه ، ثم أنشد :

أصبح الملك ثابت الأساس   بالبهاليل من بنى العباس[3]
بالصدور المقدّمين قديماً   والبحور القماقم الرؤّاس
يا إمامَ المطهّرين من الذمّ   ويارأس منتهى كلّ راس
أنت مهدىُّ هاشم وفتاها[4]   كم أناس رجوك بعد أناس[5]
لا تُقيلنّ عبد شمس عثاراً   واقطعنْ كلّ رَقْلةٍ وغِرَاس

---

(١) الأغانى : « وهو مولى لآل أبي لهب » .
(٢) الأغانى : « والخلفاء » .
(٣) قال فى الكامل : الأساس : جمع أس ؛ وتقديرها « فعل » (بضم العين وسكون اللام) و « إفعال » ؛ وقد يقال للواحد أساس ، وجمعه أسس . والبهلول : الضحاك . وقال المرصفى : الأجود تفسيره بالعزيز الجامع لكل خير .
(٤) الأغانى : « وهداها » .
(٥) الأغانى : « بعد إياس » .

أنزلوها بحيثُ أنزلهـــا اللـــهُ بدارِ الهوانِ والإتعاس

خَوْفُهَا أظهرَ التودُّدَ منهـــا وبهـــا منكمْ كحزِّ المواسي[1]

أقصِهمْ أيها الخليفةُ واحْسِمْ عنك بالسَّيفِ شأفةَ الأرجاسِ

واذْكُرَنْ مصرعَ الحسينِ وزيدٍ وقتيـــلاً بجانبِ المِهْرَاسِ[2]

والقتيـــلَ الذى بحرّانَ أمسى ثاوياً بين غُرْبةٍ وتَنَاسِ[3]

فلقدْ ساءنى وساء سوائى قُرْبُهُمْ من نمارقٍ وكراسى[4]

نِعْمَ كلبُ الهِراشِ مولاكَ شِبْلٌ لو نجا من حبائلِ الإفلاسِ

قال : فتغيّر لونُ أبى العباس ، وأخذه زَمَعٌ[5] ورعدة ، فالتفت بعضُ ولد سليمان بن عبد الملك إلى آخرفيهم كان إلى جانبه، فقال : قتلنا والله العبد ! فأقبل أبو العباس عليهم، فقال : يابنى الزَّوانى[6] ؛ لا أرى قتلاكم من أهلى قد سلفوا وأنتم أحياء تتلذذون فى الدنيا ، خذوهم؛ فأخذتهم الخراسانية بالكافر كوبات فأهمِدوا، إلا ما كان من عبدالعزيز ابن عمر بن عبد العزيز ، فإنه استجار بداود بن علىّ ، وقال : إن أبى لم يكن كآبائهم ،

(١) رواية الأغانى :

خوفهم أظهرَ التودّد منهم وبهمْ منكمُ كحزّ المواسى

(٢) ذكر المبرد فى شرح هذا البيت قوله : « مصرع الحسين وزيد » ، يعنى زيد بن على بن الحسين ؛ كان خرج على هشام بن عبد الملك ، وقتله يوسف بن عمر الثقفى ؛ وصلبه بالكناسة هو وجماعة من أصحابه . ... وإنما نسب قتل حمزة إلى بنى أمية ؛ لأن أباسفيان بن حرب كان قائدالناس يوم أحد» .

(٣) القتيل الذى بحران هو إبراهيم بن محمد بن على ؛ وهو الذى يقال له الإمام ، وفى رواية الأغانى : « والإمام الذى » .

(٤) سوائى سواى ، والنمارق : واحدتها نُمرقة ؛ وهى الوسائد .

(٥) الزمع : شدة الرعدة .

(٦) الأغانى : « يا بنى الفواعل » .

وقد علمت صنيعه إليكم فأجاره واستوهبه من السفاح وقال له : قد علمت صنيع أبيه إلينا؟ فوهبه له ، وقال : لا يريني وجهه ، وليكن بحيث تأمنه ، وكتب إلى عماله في الآفاق بقتل بني أمية (١) .

* * *

فأما أبو العباس المبرد ، فإنه روى في الكامل (٢) هذا الشعر على غير هذا الوجه ؛ ولم ينسبه إلى سديف ، بل إلى شِبْل مولى بني هاشم .

قال أبو العباس : دخل شِبْل بن عبد الله مولى بني هاشم على عبد الله بن علي ، وقد أجلس ثمانين من بني أمية على سِمَط الطعام ، فأنشده :

أَصْبَحَ المُلْكُ ثابتَ الآساسِ ... بالبهالِيلِ من بني العَبّاسِ

طَلَبُوا وِترَ هاشمٍ وشَفَوْها ... بعد مَيْلٍ من الزّمان وياسِ (٣)

لا تُقِيلَنّ عَبْدَ شمسٍ عِثارًا ... واقطعنْ كلَّ رَقْلَةٍ وأَواسي (٤)

ذلّها أظهرَ التّودُّدَ منها ... وبها منكمُ كحزِّ المواسي (٥)

ولقد غاظني وغاظَ سوائي ... قُرْبُها من نمارقٍ وكَراسي

أنزلوها بحيثُ أنزلَها الله ... بدارِ الهوانِ والإتعاسِ

واذكُروا مصرعَ الحسين وزيدٍ ... وقتيلًا بجانبِ المِهْراسِ

والقتيلَ الّذي بحرّانَ أضحى ... ثاويًا بين غُرْبةٍ وتناسِ

نعم شِبْلُ الهِراش مولاكَ شِبْلٌ ... لو نجا من حبائلِ الإفلاسِ

فأمر بهم عبد الله فشُدِخوا بالعَمَد ، وبسطت البُسُط عليهم ، وجلس عليها ، ودعا

---

(١) الأغاني ٤ : ٣٤٤ — ٣٤٦

(٢) الكامل ٨ : ١٣٤ ، ١٣٥ بشرح المرصفي .

(٣) قال أبو العباس : يقال : « في فيك ميل علينا (بسكون الياء) ، وفي الحائط ميل بفتحها » .

(٤) قال أبو العباس : الأواسي : ياؤه مشددة في الأصل ، وتخفيفها يجوز ، ولو لم يجز في الكلام لجاز في الشعر » .

(٥) مروج الذهب ٣ : ٢٦١ وما بعدها ، مع تصرف في الرواية .

بالطّعام ، وإنه ليسمعُ أنينَ بعضهم حتى ماتوا جميعا . وقال لِشِبْل : لولا أنك خلطت شعرك بالمسألة لأغنمتك أموالهم ، ولعقدتُ لك على جميع موالى بنى هاشم .

قال أبو العباس : الزَّقْلة : النخلة الطويلة ، والأواسى : جمع آسية ؛ وهى أصل البناء كالأساس . وقتيل المِهْراس : حمزة عليه السلام ، والمِهْراس : ماء بأُحُد . وقتيل حَرّان : إبراهيم الإمام .

قال أبو العباس : فأما سَدِيف ، فإنه لم يشهد هذا المقام ، وإنّما قام مقاما آخر ، دخل على أبى العباس السَّفاح ؛ وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك ؛ وقد أعطاهُ يدَه فقبّلها وأدناه ، فأقبل على السفاح ، وقال له :

لَا يَغُرَّنْكَ مَاتَرى مِنْ رِجالٍ إنَّ تَحْتَ الضُّلوعِ داءً دَوِيَّا
فضعِ السَّيفَ وارفعِ السَّوطَ حَتّى لا تَرى فَوْقَ ظهرِها أُمَوِيَّا

فقال سليمان : مالى ولك أيها الشيخ ! قتلتنى قتلك الله ! فقام أبو العباس ، فدخل وإذا المنديل قد ألقى فى عُنق سليمان ، ثم جرّ فقتل .

فأما سليمان بن يزيد بن عبد الملك بن مروان فقتل بالبلقاء ، وحمل رأسه إلى عبدالله ابن علىّ .

* * *

[أخبار متفرقة فى انتقال الملك من بنى أمية إلى بنى العباس]

وذكر صاحب مروج الذهب أنّه أرسلَ عبد الله أخاه صالح بن علىّ ومعه عامر بن إسماعيل أحدُ الشيعة الخراسانية إلى مصر ، فلحقوا مروان ببُوصِير ، فقتلوه وقتلوا كلَّ مَنْ كان معه من أهله وبطانته ، وهجموا على الكَنِيسة التى فيها بناته ونساؤه ، فوجدُوا خادما بيده سيف مشهور يسابقهم على الدخول ، فأخذُوه وسألوه عن أمره ، فقال : إنّ

أمير المؤمنين أمرني إنْ هو قُتِل أن أقتل بناتِه ونساءه كلهن ، قبل أن تصلوا إليهن ، فأرادوا قتله ، فقال : لا تقتلوني ، فإنكم إن قتلتموني فقدتم ميراثَ رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقالوا : وما هو؟ فأخرجهم من القرية إلى كُثبانٍ من الرمل ، فقال : اكشفوا هاهنا ، فإذا البردة والقضيب وقَعْب[1] مخضب قد دفنها مروان ضنًّا بها أنْ تصيرَ إلى بني هاشم . فوجّه به عامر بن إسماعيل إلى صالح بن عليّ ، فوجّه به صالح إلى أخيه عبد الله ، فوجّه به عبد الله إلى أبي العباس ، وتداوله خلفاء بني العباس من بعد .

وأدخِل بنات مروان وحرمه ونساؤه على صالح بن علي ، فتكلّمت ابنة مروان الكبرى ، فقالت : ياعمّ أمير المؤمنين ، حفظ الله لك من أمرك ما تحب حفظه ، وأسعدك في أحوالك كلّها ، وعمّك بخواصّ نعمه ، وشملك بالعافية في الدنيا والآخرة . نحن بناتك وبنات أخيك وابن عمّك ، فليسعنا من عدلكم ما وسعنا من جوركم . قال : إذاً لا نستبقي منكم أحدا ، لأنكم قد قتلتم إبراهيمَ الإمام ، وزيد بن عليّ ، ويحيى بن زيد ، ومسلم بن عقيل ؛ وقتلتم خيرَ أهل الأرض : حسينًا وإخوته وبنيه وأهل بيته ، وسقتم نساءه سبايا كما يُساق ذراريّ الروم على الأقتاب إلى الشام . فقالت : ياعمّ أمير المؤمنين ، فليسعنا عفوُكم إذاً . قال : أمّا هذا فنعم ؛ وإن أحببت زوجتكِ من ابني الفضل بن صالح ، قالت : ياعمّ أمير المؤمنين ، وأيّ ساعة عرس ترى ! بل تُلحِقنا بحرّان ، فحملهن إلى حرّان[2] .

• • •

كان عبد الرحمن بن حبيب بن مَسْلمة الفِهريّ ، عاملَ إفريقيّة لمروان ، فلمّا حدثت الحادثة ، هرب عبدُ الله والعاص ابنا الوليد بن يزيد بن عبد الملك إليه ، فاعتصما به تخاف

---

(١) مروج الذهب : « ومخصر » .

(٢) الخبر في مروج الذهب ٣ : ٢٦١ — ٢٦٣ مع اختصار وتصرف ، وفي آخره : « فعلت أصواتهن عند دخولهن بالبكاء على مروان ، وشققن جيوبهن ، وأعولن بالصياح والنحيب ؛ حتى ارتجّ العسكر بالبكاء منهن على مروان » .

على نفسه منهما، ورأى مَيْل الناس إليهما فقتلهما ؛ وكان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك يريد أن يقصده ويلتجىء إليه ، فلمّا علم ماجرى لابنى الوليد بن يزيد، خاف منه ، فقطع المجاز بين إفريقيّة والأندلس، وركب البحرَ حتى حصل بالأندلس ؛ فالأمراء الّذين وَلُوها كانوا من ولده .

ثم زال أمرُهم ودولتهم على أيدي بنى هاشم أيضا ، وهم بنو حَمُّود الحسنيُّون ، من ولد إدريس بن الحسن عليه السلام .

* * *

لما قتلَ عامر بن إسماعيل مَرْوانَ بِبُوصير ، واحتوى على عسكره، دخل إلى الكنيسة التى كان فيها ، فقعد على فِرَاشه ، وأكل من طعامه ، فقالت له ابنة مَرْوان الكبرى — وتعرف بأمّ مَرْوان — : ياعامر ، إنّ دهرا أنزل مَرْوان عن فُرُشه حتى أقعدك عليها، تأكل من طعامه ليلة قَتْله ، محتويا على أمره ، حاكما فى مُلْكه وحُرَمه وأهله ، لقادرٌ أن يغيّر ذلك . فأُنهِيَ هذا الكلامُ إلى أبى العباس السفّاح ، فاستهجن مافعله عامر بن إسماعيل وكتب إليه : أما كان لك فى أدب الله مايزجرك أنْ تقعد فى مثل تلك الساعة على مهاد مروان ، وتأكل من طعامه ! أما والله لولا أنّ أمير المؤمنين أنزل مافعلته على غير اعتقاد منك [لذلك][1] ولا نَهَمٍ[2] على طعامٍ ، لمسّك من غضبه وأليم أدبه ، مايكون لك زاجرا ، ولغيرك واعظا. فإذا أتاك كتابُ أمير المؤمنين : فتقرّب إلى الله بصدقة تطفئ بها غضبَه ، وصلاة تظهر فيها الخشوع والاستكانة ، وصُمْ ثلاثة أيام، وتُبْ إلى الله من جميع مايسخطه ويغضبه ، ومرْ جميعَ أصحابك أن يصوموا مثل صيامك .

ولما أتى أبو العباس برأس مَرْوان ، سجد فأطال ، ثم رفع رأسه ،وقال : الحمد لله الذى

(١) من مروج الذهب (٢) فى مروج الذهب : ولا شهوة .

لم يبق ثأرنا قِبَلك وقِبَل رهطك ، الحمد لله الذى أظفرنا بك ، وأظهرنا عليك . ما أبالى متى طرقنى الموت ، وقد قتلت بالحسين عليه السلام ألفاً من بنى أمية ، وأحرقت شِلْوَ هشام بابن عمى زيد بن علىّ ، كما أحرقوا شِلْوَه ، وتمثل[1] :

لَوْ يَشْرَبُونَ دَمِى لم يَرْوَ شارِبُهم ولا دماؤهمُ جَمْعاً تروّينى

ثم حوّل وجهه إلى القبلة فسجد ثانية ثم جلس ، فتمثل :

أبى قومُنا أن يُنْصِفُونا فأنصفت قواطعُ فى أيمانِنا تَقْطُرُ الدّما[2]

إذا خالطت هامَ الرجال تركتُها كبيض نَعامٍ فى الثرى قد تحطّما

ثم قال : أمّا مَرْوان فقتلناه بأخى إبراهيم ، وقتلنا سائر بنى أمية بحسين ، ومن قتل معه وبعده من بنى عمنا أبى طالب[3] .

• • •

وروى المسعودىّ فى كتاب « مروج الذهب » عن الهيثم بن عدىّ ، قال : حدثنى عمرو بن هانئ الطائىّ ، قال : خرجتُ مع عبد الله بن علىّ لنبش قبور بنى أميّة فى أيام أبى العباس السّفاح ، فانتهينا إلى قبر هشام بن عبد الملك ، فاستخرجناه صحيحا ، ما فقدنا منه إلا عِرْنينَ أنفه ؛ فضربه عبدُ الله بن علىّ ثمانين سوطا ثم أحرقه ، واستخرجنا سليمان بن عبد الملك من أرض دابق فلم نجد منه شيئا إلا صُلْبه ورأسه وأضلاعه فأحرقناه ، وفعلنا مثل ذلك بغيرهما من بنى أميّة ، وكانت قبورهم بقِنَّسْرين ، ثم انتهينا إلى دمشق ، فاستخرجنا الوليد بن عبد الملك ، فما وجدنا فى قبره قليلا ولا كثيرا ، واحتفرنا عن عبد الملك فما وجدنا إلا شئون[4] رأسه ، ثم احتفرنا عن يزيد بن معاوية فلم نجد منه إلا عظما واحدا ، ووجدنا

(١) فى مروج الذهب : « فتمثل بقول العباس بن عبد المطلب من أبيات له . . .

(٢) بعده فى مروج الذهب :

تُوَرِّثْنَ من أشياخِ صدقٍ تقرّبوا بهنّ إلى يومِ الوَغَى فتقــــــدّما

(٣) مروج الذهب ٣ : ٢٧١ – ٢٧٢ .

(٤) الشئون : موصل قبائل الرأس ، مفرده شأن .

من موضع نحره إلى قدمه خطاً واحداً أسود ، كأنما خُطّ بالرماد فى طول جلده ، وتتبعنا قبورهم فى جميع البلدان ، فأحرقنا ما وجدنا فيها منهم .

قلت : قرأت هذا الخبر على النقيب أبى جعفر يحيى بن أبى زيد العلوى بن عبد الله فى سنة خمس وستمائة ، وقلتُ له : أما إحراق هشام بإحراق زيد فمفهوم ، فما معنى جَلْده ثمانين سوطاً ؟ فقال رحمه الله تعالى : أظُنّ عبد الله بن على ذهب فى ذلك إلى حد القذف ، لأنه يقال : إنه قال لزيد : يابن الزانية ، لما سب أخاه محمدا الباقر عليه السلام ، فسبه زيد ، وقال له : سماه رسولُ الله صلى الله عليه وآله الباقر وتسميه أنت البقرة ! لشدّ ما اختلفتما ! ولتختلفنّ فى الآخرة كما خالفته فى الدنيا فيرد الجنة وترد النار .

وهذا استنباط لطيف .

***

قال مروان لكاتبه عبد الحميد بن يحيى حين أيقن بزوال ملكه : قد احتجت إلى أن تصير مع عدوى وتظهر الغدر بى ؛ فإن إعجابهم ببلاغتك ، وحاجتهم إلى كتابتك ، تدعوهم إلى اصطناعك وتقريبك ، فإن استطعت أن تنفعنى فى حياتى ، وإلا فلن تعجز عن حفظ حُرَمى بعد وفاتى . فقال عبد الحميد : إنّ الذى أشرتَ به هو أنفع الأمرين لى ، وأقبحهما بى ، وما عندى إلا الصبر معك حتى يفتح الله لك أو أقتل بين يديك ، ثم أنشد :

أسِرُّ وفاءً ثم أُظهِرُ غَـــدْرَةً فمن لى بعُذْرٍ يوسع الناسَ ظاهرُهْ !

فثبت على حاله ، ولم يصر إلى بنى هاشم حتى قتل مروان ، ثم قتل هو بعده صبراً[1] .

***

---

(١) مروج الذهب ٣ : ٢٦٣

وقال إسماعيلُ بن عبد الله القسريّ : دعاني مَرْوان ، وقد انتهت به الهزيمة إلى حَرّان ، فقال : يا أبا هاشم ــ وما كان يكنيني قبلها : قد ترى ما جاء من الأمر ، وأنت الموثوق به ، ولا عِطْرَ بعد عروس ؛ ما الرأيُ عندك ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، علامَ أجمعت ؟ قال : أرتحل بموالِيَّ ومَنْ تبعني حتى آتي الدرب[1] ، وأميل إلى بعض مدن الروم فأنزلها ، وأكاتب ملكَ الروم وأستوثق منه ، فقد فَعَل ذلك جماعة من ملوك الأعاجم ، وليس هذا عاراً على الملوك ، فلا يزال يأتيني من الأصحاب الخائفُ والهارب والطامع فيكثر مَنْ معي ، ولا أزال على ذلك حتى يكشفَ اللهُ أمري ، وينصرني على عدوّي ، فلما رأيتُ ما أجمعَ عليه من ذلك ، وكان الرأي ، ورأيت آثارَه في قومه من نِزار وعصبيته على قومي من قَحْطان ، غششته ، فقلت : أعيذك بالله يا أميرَ المؤمنين من هذا الرأي ؛ أن تُحكِّمَ أهلَ الشِّرْك في بناتك وحرمك ، وهم الروم لا وفاء لهم ، ولا يُدرَى ما تأتي به الأيام ، وإن حدث عليك حَدَثٌ من أرض النصرانية ــ ولا يحدثنّ الله عليك إلا خيراً ــ ضاع مَن بعدك ؛ ولكن اقطع الفرات ، واستنفر الشام جنداً جنداً ، فإنك في كَنَفٍ وعِدَّة ، ولك في كلِّ جند صنائع وأصحاب ، إلى أن تأتيَ مصر ، فهي أكثرُ أرض الله مالاً وخيلاً ورجالاً ، والشام أمامك ، وإفريقيّة خلفك ، فإن رأيتَ ما تُحبّ انصرفت إلى الشام ، وإن كانت الأخرى مضيت إلى إفريقية ، فقال : صدقت ، وأستخير الله . فقطع الفرات ، والله ما قطعه معه من قيس إلا رجلان : ابن حديد السُّلَميّ ــ وكان أخاه من الرضاعة ــ والكوثر بن الأسود الغنويّ ، وغدر به سائرُ النِّزارية مع نُصبه لهم ؛ فلما اجتاز بلاد قِنَّسرين وخُناصرة ، أوقعوا بساقته ، ووثب به أهلُ حِمْص ، وصار إلى دمشق ، فوثب به الحارث بن عبد الرحمن الحرشيّ ثم العقيليّ ، ثم أتى الأردنّ فوثب به هاشم بن عمرو التميميّ ، ثم مَرّ بفلَسْطين ، فوثب به أهلُها ، وعلم مروان أن إسماعيل بن عبد الله قد غشّه في الرأي ، ولم يَمْحَضْه النصيحة ، وأنه فرّط في مشورته إياه

(١) يطلق الدرب على ما بين طرطوس وبلاد الروم

إذ شاور رجلا من قحطان موتورا شانئاً له ، وإنّ الرأيَ كان أول الذى همّ به من قطع الدَّرْب والنزول ببعض مدن الروم ومكاتبته ملكها . ولله أمر هو بالغه [١] !

***

لما نزل مروان بالزّاب جرّد من رجاله ممّن اختاره من أهل الشام والجزيرة وغيرها مائة ألف فارس ، على مائة ألف قارح ، ثم نظر إليهم ، وقال : إنّها لعدّة ولا تنفع العدّة، إذا انقضت المدة [٢] .

***

لما أشرف عبدالله بن على يوم الزّاب فى المسوّدة ، وفى أوائلهم البنود السُّود ، تحملها الرجال على الجمال البُخْت [٣] ، وقد جعل لها بدلا من القَنَا خشب الصَّفصاف والغَرَب [٤] قال مَرْوان لمن قرب منه : أما ترون رماحهم كأنها النخلُ غلظا ! أما ترون أعلامهم فوق هذه الإبل كأنها قطع الغمام السُّود ! فبينا هو ينظرها ويعجب ، إذ طارت قطعة عظيمة من الغربان السود ، فنزلت على أوّل عسكر عبدالله بن على ، واتصل سوادها بسواد تلك الرايات والبنود ، ومرْوان ينظر ، فازداد تعجّبه ، وقال : أما ترون إلى السواد قد اتصل بالسواد ؟ حتى صار الكل كالسحب السُّود المتكاثفة ، ثم أقبل على رجل إلى جنبه فقال : ألا تعرّفنى مَنْ صاحب جيشهم ؟ فقال : عبد الله بن علىّ بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب . قال : ويحك أمِنْ ولد العباس هو ؟ قال : نعم ، قال : والله لوددتُ أنّ علىّ بن أبى طالب عليه السلام مكانه فى هذا الصفّ ، قال : يا أمير المؤمنين ، أتقول هذا لعلىّ مع شجاعته التى ملأ الدنيا ذكْرُها ! قال : ويحك ! إنّ عليا مع شجاعته صاحبُ دين ، وإنّ الدين غير الملك ، وإنّا نروى عن قديمنا أنّه لاشىء لعلىّ ولا لولده فى هذا . ثم قال : مَنْ هو من ولد العباس،

---

(١) مروج الذهب ٣ : ٢٦٤ ، ٢٦٥ (٢) مروج الذهب ٣ : ٢٦٥ مع اختصار وتصرف .
(٣) البخت : الإبل الخراسانية (٤) الغرب : شجرة حجازية ضخمة شاكة .

فإنى لا أثبت شخصه ؟ قال : هو الرجل الذى كان يخاصمُ بين يديك؛ عبد الله بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر . فقال أذكرْنى صورتَه وحليتَه ، قال : هو الرجل الأقنى الحديد المصْقل ، المعروق الوجه ، الخفيف اللحية ، الفصيح اللسان ، الذى قلت لمّا سمعت كلامه يومئذ : يرزق الله البيان مَنْ يشاء ، فقال : وإنه لهو ! قال : نعم ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ! أعلم لم صَيّرتُ الأمرَ بعدى لوادى عبد الله ، وابنى محمد أكبر سنا منه ؟ قال : لا ، قال : إن آباءنا أخبرُونا أنّ الأمر صائر بعدى إلى رجل اسمه عبد الله فوليته دونه.

ثم بعث مروان بعد أن حدّث صاحبه بهذا الحديث إلى عبدالله بن على سرًّا ، فقال: يابن عمّ ، إنّ هذا الأمر صائر إليك ، فاتق الله واحفظنى فى حُرَمى ، فبعث إليه عبدالله: إنّ الحقّ لنا فى دمك ، وإنّ الحق علينا فى حُرَمِك [١] .

قلت : إن مروان ظنّ أن الخلافة تـكون لعبد الله بن على ، لأنّ اسمه عبدالله ، ولم يعلم أنّها تـكون لآخر اسمه عبد الله ، وهو أبو العباس السفاح .

* * *

كان العَلاء بن رافع سِبْط ذى الـكَلاع الحِميرىّ مؤنسا لسليمان بن هشام بن عبدالملك لا يكاد يفارقه ، وكان أمر المسوّدة بخُراسان قد ظهر ودنوا من العراق ، واشتدّ إرجافُ الناس ، ونطق العدو بما أحبّ فى بنى أمية وأوليائهم .

قال العلاء : فإنّى لمع سليمان وهو يشرب تجاه رُصافة أبيه، وذلك فى آخر أيام يزيد الناقص ، وعنده الحـكَم الوادى [٢] ، وهو يغنّيه بشعر المرَجّى [٣] :

إنّ الحبيبَ ترَوّحَتْ أجمالُهُ أُصُلاً ، فدمعكَ دائم إسبالُهُ [٤]

فاقْنِ الحياء فقد بكيتَ بعَوْلةٍ لو كان ينفع باكيا إعوالُهُ ! [٥]

---

(١) مروج الذهب : ٣ : ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

(٢) فى الأصول : « الأودى » تصحيف ، وصوابه فى مروج الذهب .

(٣) فى الأصول : « الرحى » تصحيف (٤) ديوانه ٦٩

(٥) اقن الحياء : احفظه .

ياحَبّذا تلك الحول وحَبّـــذا شخصٌ هناك ، وحَبّذا أمثالُهُ !

فأجاد ماشاء ، وشرب سليمان بن هشام بالرَّطْل ، وشربنا معه حتى توسَّدْنا أيدينا، فلم أنتبه إلا بتحريك سليمان إياى ، فقمت مسرعاً ، وقلت : ماشأن الأمير ؟ فقال : على رِسْلك ، رأيت كأنى فى مسجد دمشق، وكأنَّ رجلا على يده حَجَر، وعلى رأسه تاج،أرى بصيصَ مافيه من الجوهر ، وهو رافع صوته بهذا الشعر :

أبنى أمية قد دنا تشتيتكُمْ وَذَهَابُ ملككمُ وليس براجِعِ
وينال صفوته عــــدوٌّ ظالمٌ كأسا لكم بسمام موت ناقع

فقلت : أعيذ الأمير بالله وساوس الشيطان الرجيم ! هــذا من أضغاث الأحلام ، ومما يقتضيه ويجلبه الفكر ، وسماع الأراجيف . فقال : الأمر كما قلتُ لك ، ثم وَجَم ساعة ، وقال : ياحميرىّ ، بعيدٌ مايأتى به الزمان قريب !

قال العلاء : فوالله ما اجتمعنا على شراب بعد ذلك اليوم [1] .

• • •

سُئل بعضُ شيوخ بنى أمية عَقِيب زوال الملك عنهم : ما كان سببُ زوال ملككم؟ فقال : جار عُمّالنا على رعيّتنا ، فتمنّوا الراحة منا ، وتحومل على أهل خراجنا فجلوا عنا ، وخربت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا ، ووثقنا بوزرائنا ، فآثروا مرافقهم على منافعنا ، وأمضوا أموراً دوننا،أخفَوْا علمها عنّا،وتأخر عطاء جندنا ، فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم عدوُّنا ؛ فظافروه على حَرْبنا،وطلبنا أعداءنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا،وكان استتارُ الأخبار عنّا من أوكد أسباب زوال مُلْكنا .

• • •

كان سعيد بن عمر بن جَعْدة بن هبيرة المخزومى،أحد وزراء مروان وسماره،فلمّا ظهر

(١) مروج الذهب ٣ : ٢٣٩ ، ٢٤٠

أمر أبي العباس السفاح ، انحاز إلى بني هاشم ، ومتّ إليهم بأم هانئ بنت أبي طالب ، وكانت تحت هُبيرة بن أبي وهب ، فأنت منه بجعدة ، فصار من خواص السفاح وبطانته، فجلس السفاح يوما ، وأمر بإحضار رأس مروان وهو بالحيرة يومئذ ؛ ثم قال للحاضرين : أيكم يعرف هذا ؟ فقال سعيد : أنا أعرفه ، هذا رأس أبي عبد الملك مروان بن محمد بن مروان خليفتنا بالأمس ، رحمه الله تعالى ! قال سعيد : فحدّقت إليّ الشيعة ، ورمقني بأبصارها ، فقال لي أبو العباس : في أي سنة كان مولده ؟ قلت : سنة ست وسبعين ، فقام وقد تغيّر لونه غضبا عليّ ، وتفرق الناس من المجلس ، وتحدثوا به ، فقلت : زلّةوالله لا تستقال ولا ينساها القوم أبدا ! فأتيتُ منزلي ، فلم أزل باقي يومي أعهدُ وأوصي ، فلما كان الليل اغتسلتُ وتهيأت للصلاة — وكان أبو العباس إذا همّ بأمر بعث فيه ليلا — فلم أزل ساهرا حتى أصبحتُ وركبت بغلتي ، وافتكرت فيمن أقصد في أمري ، فلم أجد أحداً أولى من سليمان بن مجالد مولى بني زهرة ، وكانت له من أبي العباس منزلة عظيمة، وكان من شيعة القوم ، فأتيته ، فقلت له : أذكرني أمير المؤمنين البارحة ؟ قال : نعم ، جرى ذكرك ، فقال : هو ابن أختنا ، وفيّ لصاحبه ، ونحن لو أوليناه خيرا لكان لنا أشكر . فشكرت لسليمان بن مجالد ما أخبرني به ، وجزيته خيرا ، وانصرفت . فلم أزل من أبي العباس على ما كنت عليه ، لا أرى منه إلا خيرا .

ونما ذلك المجلس إلى عبد الله بن عليّ وإلى أبي جعفر المنصور ، فأما عبد الله بن علي فكتب إلى أبي العباس يُغري به بي ، ويعاتبه على الإمساك عني ، ويقول له : إنه ليس مثل هذا مما يحتمل ، وكتب إليه أبو جعفر يَعْذِرُ لي ، وضرب الدهر ضَرْبَه ، فأتى ذات يوم عند أبي العباس ، فنهض ونهضت ، فقال لي : قِفْ رسْلك يابن هبيرة ! فجلست،فرفع السِّتر ، ودخل وثبت في مجلسه قليلا ، ثم خرج في ثوبيْ وَشْي ورداء وجُبّة ، فما رأيت والله أحسن منه ولا مما عليه قط ، فقال لي : يابن هبيرة ، إني ذاكرٌ لك أمراً ، فلا

يخرُجنّ من رأسك إلى أحد من الناس قلت : نعم ، قال : قد علمتّ ماجعلنا من هذا الأمر وولاية العهد لمن قتَل مروان ، وإنما قتله عمى عبد الله بجيشه وأصحابه ونفسه وتدبيره ، وأنا شديد الفكر فى أمر أخى أبى جعفر ، فى فضْله وعلمه وسنّه وإيثاره لهذا الأمر ، كيف أخرجُه عنه ! فقلت : أصلح الله أمير المؤمنين ! إنى أحدّثك حديثاً تعتبر به ، وتستغنى بسماعه عن مشاورتى ، قال : هاته ، فقلت : كنّا مع مسلمة بن عبد الملك عام الخليج بالقسطنطينية ، إذ وردَ علينا كتاب عمر بن عبد العزيز ينعَى سليمان ، ومصيرَ الأمر إليه ، فدخلت إليه ، فرمى الكتاب إلىّ فقرأته ، واسترجعت ، واندفع يبكى وأطال ، فقلت : أصلح الله الأمير وأطال بقاءه ! إنّ البكاء على الأمر الفائت عجز ، والموت منهلٌ لا بدّ من ورده ، فقال : ويحك ! إنى لستُ أبكى على أخى ، لكنّى أبكى لخروج الأمر عن ولد أبى إلى ولد عمى ! فقال أبو العباس : حسبُك ، فقد فهمت عنك ، ثم قال : إذا شئت فانهَضْ ، فلما نهضت لم أمض بعيداً حتى قال لى : يابن هبيرة ! فالتفتّ إليه ، فقال : أما إنك قد كافأت أحدهما ، وأخذت بثأرك من الآخر ، قال سعيد : فوالله ماأدرى من أىّ الأمرين أعجب ! من فطنته أم من ذكره[1] .

* * *

لما سايرَ عبدُ الله بن علىّ فى آخر أيام بنى أمية عبدَ الله بن حسن بن حسن ؛ ومعهما داود بن علىّ ، فقال داود لعبد الله بن الحسن : لم لا تأمرُ ابنيك بالظهور ؟ فقال عبد الله بن حسن : لم يأنِ لهما بعد ؛ فالتفتّ إليه عبد الله بن علىّ ، فقال : أظنّك ترى أنّ ابنيك قاتلا مروان ! فقال عبد الله بن حسن : إنه ذلك ، قال : هيهات ! ثم تمثّل :

(١) مروج الذهب ٣ : ٢٧٢ — ٢٧٤

سيكفيك الجماعة مستميتٌ خفيف الحاذِ من فتيان جَرْمِ
أنا والله أقتل مروان ، وأسلبه ملكه ؛ لا أنت ولا ولداك[١] !

***

وقد روى أبو الفرج الأصفهانى فى كتاب الأغانى رواية أخرى فى سبب قتل السفاح لمن كان أمنه من بنى أمية ، قال : حدّث الزبير بن بكّار ، عن عمّه ، أنّ السفاح أنشِد يوما قصيدة مُدِح بها ، وعنده قوم من بنى أمية كان آمنّهم على أنفسهم ، فأقبل على بعضهم ، فقال : أين هذا مما مُدِحتم به ! فقال : هيهات ! لا يقول والله أحد فيكم مثل قول ابن قيس الرقيّات فينا :

ما نقَموا من بنى أمية إلا أنهمْ يحلُمون إن غضِبُوا[٢]
وأنهم معدِن الملوك فما تصلُح إلا عليهم العرب

فقال له : يا ماصّ كذا من أمه ! وإن الخلافة لفى نفسك بعد ! خذوهم . فأخذوا وقتلوا[٣] .

***

وروى أبو الفرج أيضاً أنّ أبا العباس دعا بالغداء حين قُتِلوا ، وأمر ببساط فبُسِط عليهم ، وجلس فوقه يأكل وهم يضطربون تحته ، فلما فرغ ، قال : ما أعلم أنى أكلتُ أكلة قطّ كانت أطيبَ ولا أهنأ فى نفسى من هذه[٤] . فلما فرغ من الأكل قال : جُرّوا بأرجلهم، وألقوه فى الطريق؛ ليلعنهم الناس أمواتاً كما لعنوهم أحياء .

---

(١) مروج الذهب ٣ : ٢٧٤
(٢) ديوانه ٤
(٣) الأغانى ٤ : ٣٤٦ (طبعة الدار) .
(٤) الأغانى : ٥ منها ٥ .

قال : فلقد رأينا الكلاب تجرّهم بأرجلهم ، وعليهم سراويلات الوشْى حتى أنتنوا ، ثم حفرت لهم بئر فألقوا فيها[١] .

* * *

قال أبو الفرج : وروى عمر بن شبّه ، قال : حدثنى محمد بن معن الغفارىّ ، عن معبد الأنبارىّ ، عن أبيه ، قال : لما أقبل داود بن علىّ من مكة ، أقبل معه بنو حُسنٍ جميعاً ، وفيهم عبد الله بن حسن بن حسن ، وأخوه حسن بن الحسن ، ومعهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان — وهو أخو عبد الله بن الحسن لأمّه — فعمل داود مجلساً ببعض الطريق ، جلس فيه هو والهاشميّون كلّهم ، وجلس الأمويّون تحتهم ، فجاء ابن هرْمة فأنشده قصيدة يقول فيها :

فَلا عَفَا اللهُ عن مَرْوان مَظلمةً ... ولا أميّة ، بئس المجلس النادى !

كانوا كعادٍ فأمسى الله أهلكهم ... بمثل ما أهلك الغاوين من عادِ

فلن يــكذّبنى من هاشمٍ أحدٌ ... فيما أقول ، ولو أكثرتُ تعدادى

قال : فنبذ داود نحو عبد الرحمن بن عنبسة بن سعيد بن العاص ضَحْــكةً كالكَشرة ، فلما قاموا قال عبد الله بن الحسن لأخيه الحسن بن الحسن : أما رأيت ضحك[٢] داود إلى ابن عنبسة ! الحمد لله الذى صَرَفَها عن أخى — يعنى العثمانىّ — قال : فما هو إلا أن قدم المدينة ، حتى قتل ابن عنبسة[٣] .

* * *

قال أبو الفرج : وحدثنى محمد بن معن ، قال : حدثنى محمد بن عبد الله بن عمرو

---

(١) الأغانى ٤ : ٣٤٧ (طبعة الدار) .
(٢) الأغانى : « ضحكه إلى ابن عنبسة » .
(٣) الأغانى ٤ : ٣٤٨ (طبعة الدار) .

ابن عثمان ، قال : استحلف أخى عبد الله بن الحسن داودَ بن على – وقد حج معه سنة اثنتين وثلاثين ومائة – بطلاق امرأته مُلَيكة بنت داود بن الحسن ، ألا يقتل أخويه محمدا والقاسم ابنَىْ عبد الله بن عمرو بن عثمان ، قال : فكنت أختلف إليه آمنا ، وهو يقتل بنى أمية ، وكان يكره أنْ يرانى أهل خراسان ، ولا يستطيع إلىَّ سبيلا ليمينه ، فاستدنانى يوما ، فدنوت منه ، فقال : ما أكثر الغفلة ، وأقلَّ الحَزَمة ! فأخبرت بها أخى عبدَ الله بن الحسن ، فقال : يابن أمّ ، تغيَّبْ عن الرجل ، وأقِلَّ عنه ، فتغيب حتى مات(1) .

قلت : إلّا أنَّ ذلك الدَّين الذى لم يقضه داود ، قضاه أبو جعفر المنصور .

* * *

وروى أبو الفرج فى الكتاب المذكور أن سُدَيفا أنشد أبا العباس ، وعنده رجال من بنى أمية ، فقال :

يابنَ عمِّ النبى أنت ضياءٌ استبنّا بك اليقينَ الجليّا

[فلما بلغ قوله] (2) :

جرِّد السيفَ وارفع العفو حتّى لا ترى فوق ظهرها أمويّا (3)

قَطَنَ البغضُ فى القديم وأضحى (4) ثابتاً فى قلوبهـــــم مطويّا

وهى طويلة ، فقال أبو العباس : يا سُدَيف ، خُلِقَ الإنسان من عجل ! ثم أنشد أبو العباس متمثّلا :

أحيا الضغائنَ آباءٌ لنا سَلَفُوا فلن تبيد وللآباء أبنـــــــاء

(1) الأغانى ٤ : ٣٤٨ (طبعة الدار) .
(2) من الأغانى .
(3) ذكر بعده فى الأغانى :
لا يغرَّنْكَ ما ترى من رجالٍ إنّ تحتَ الضلوع داءً دويّا
(4) فى الأغانى : « بطن البغض » .

ثم أمر بمن عنده فقتلوا[١] .

•••

وروى أبو الفرج أيضاً ، عن عليّ بن محمد بن سليمان النوفلي ، عن أبيه ، عن عمومته ، أنهم حضروا سليمان بن عليّ بالبصرة ، وقد حضر جماعة من بني أمية عنده ، عليهم الثياب الموشّاة[٢] المرتفعة ـ قال أحد الرواة المذكورين : فكأني أنظر إلى أحدهم وقد اسودّ شيب في عارضيه من الغالية[٣] ـ فأمر بهم فقتلوا وجُرّوا بأرجلهم ، فألقُوا على الطريق ، وإنّ عليهم لسراويلات الوشي والكلاب تجرّهم بأرجلهم[٤] .

•••

وروى أبو الفرج أيضاً عن طارق بن المبارك ، عن أبيه ، قال : جاءني رسولُ عمرو ابن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان ، قال : يقول لك [عمرو][٥] : قد جاءت هذه الدولة ، وأنا حديث السنّ ، كثير العيال ، منتشِر الأموال ؛ فما أكون في قبيلة إلا شُهِر أمري وعرِفت . وقد عزمت على أن أخرج من الاستتار ، وأفدِيَ حُرَمي بنفسي ، وأنا صائر إلى باب الأمير سليمان بن عليّ ، فصِرْ إليّ . فوافيتُه فإذا عليه طيلسانٌ أبيض مطبق ، وسراويل وَشْيٍ مسدول ، فقلت : ياسبحان الله ! ماتصنع الحداثة بأهلها ! أبهذا اللباس تلْقَى هؤلاء القوم لِما تريد لقاءهم [فيه][٤] ! فقال : لا والله ، ولكن ليس عندي ثوب إلا أشهر مما تَرى . فأعطيته طيلساني وأخذت طيلسانه ، ولويتُ سراويله إلى ركبتيه . فدخل إلى سليمان ، ثم خرج مسرورا فقلت له : حدّثني ما جرى بينك وبين الأمير ، قال : دخلت عليه ولم يرني[٦] قطّ ، فقلت : أصلح الله الأمير ! لفظتْني البلاد إليك ودلّني فضلُك

(١) الأغاني ٤ : ٣٤٨ ، ٣٤٩ (طبعة الدار) .
(٢) الأغاني : « الموشّية » .
(٣) الغالية : ضرب من الطيب .
(٤) الأغاني ٤ : ٣٤٩
(٥) من الأغاني .
(٦) الأغاني : « ولم تره » .

عليك ؛ إمّا قتلتنى [غانمًا][1] وإمّا أمنتنى [سالمًا][2]،فقال : ومَنْ أنت حتى أعرفك ؟ فانتسبت له ، فقال:مرحبا بك ! اقعد فتكلم سالما آمنا ، ثم أقبلَ علىّ فقال : حاجتك يابن أخى ؟ فقلت:إن الحُرَم اللواتى أنت أقربُ الناس إليهنّ معنا،وأولى الناس بهنّ بعدنا،قد خفْن لخوفنا ، ومَنْ خاف خِيف عليه . فوالله ما أجابنى إلا بدموعه على خدّيه ، ثم قال: يابن أخى ، يحقنُ الله دمك ، ويحفظك فى حُرَمك ، ويوفّر عليك مالك ؛ فوالله لو أمكننى ذلك فى جميع قومك لفعلت،فكن متواريًا كظاهر ، وآمنًا كخائف،ولتأتنى رقاعُك . قال : فوالله لقد كنتُ أكتب إليه كما يكتبُ الرجل إلى أبيه وعمه . قال : فلما فرغ من الحديث ، رددت عليه طيلسانه ، فقال : مهلًا ، فإن ثيابنا إذا فارقتنا لم ترجع إلينا [3] .

* * *

وروى أبو الفرج الأصفهانىّ، قال : أخبرنى أحمد بن عبد العزيز الجوهرىّ ، عن عمر بن شبة ، قال : قال سُديف لأبى العباس يحضّه على بنى أمية ، ويذكر من قتل مَرْوان وبنو أمية من أهله :

كيف بالعفـــو عنهمُ وقديمًا   قتلـــوكم وهتّكوا الحرماتِ
أين زيدٌ وأين يحيى بن زيد !   يالهـــا من مصيبة وتِرَاتِ !
والإمام الذى أصيب بحرّا   ن إمام الهدى ورأس الثقاتِ
قتلوا آل أحمـــــد لا عفا الذّنْـ   ـبَ لمروان غافرُ السّيِّئـــاتِ

* * *

قال أبو الفرج : وأخبرنى علىّ بن سليمان الأخفش،قال : أنشدنى محمد بن يزيد المبرّد لرجل من شيعة بنى العباس ، يحضهم على بنى أمية :

(١) من الأغانى .
(٢) من الأغانى ، وروايته : « وإما رددتنى سالمًا » .
(٣) الأغانى ٤ : ٣٤٩ ، ٣٥٠ (طبعة الدار) .

إياكمُ أن تلينوا لاعتــذارهمُ　　فليس ذلك إلّا الخوف والطمعُ

لو أنّهم أمِنُوا أبدَوْا عداوتَهمْ　　لـكنّهم قُيِموا بالذلّ فانقمعوا

أليس فى ألف شهر قد مضت لهمُ　　سقيتمُ جُرَعاً من بعدها جُرَعُ

حتى إذا ماانقضت أيام مدّتهمْ　　متُّوا إليكم بالأرحام التى قطعوا

هيهات لا بدّ أن يسقوا بكأسهمُ　　رَبّاً وأن يَحْصُدُوا الزرع الذى زرعُوا

إنا وإخواننا الأنصارَ شيعتُكم　　إذا تفرقت الأهــواء والشِّيَعُ [1]

* * *

قال أبو الفرج : وروى ابن المعتز فى قصة سُدَيف مثل ماذكرناه من قبل ؛ إلا أنّه قال فيها : فلما أنشده ذلك التفت إليه أبو الغَمْر سليمان بن هشام ، فقال : ياماص بَظْرِ أمه أتجبَهُنَا بمثل هذا ونحن سَرَوات الناس ! فغضب أبو العباس ـ وكان سليمان بن هشام صديقه قديما وحديثا ، يقضى حوائجه فى أيامهم ويبرُّه ـ فلم يلتفت إلى ذلك ، وصاح ، بالخراسانية : [خذوهم][2] ! فقتلوهم جميعا إلا سليمان بن هشام ، فأقبل عليه أبو العباس ، فقال : ياأبا الغَمْر : ماأرى لك فى الحياة بعدهؤلاء خيرا . قال : لا والله ، قال : فاقتلوه ، وكان إلى جنبه فقتِل وصلِبوا فى بستانه ؛ حتى تأذّى جلساؤه بريحهم ، فكلّموه فى ذلك ، فقال : والله إن ريحهم عندى لألذّ وأطيب من ريح المسك والعنبر غيظا عليهم [وحنقا][2] .

* * *

قال أبو الفرج : وكان أبو سعيد مولى فائد من مواليهم بعدُ فى موالى عثمان بن عفان واسم أبى سعيد إبراهيم ؛ وهو من شعرائهم الذين رثَوْهم ، وبكوا على دولتهم وأيامهم ؛ فمن شعره بعد زوال أمرهم :

---

(١) بعده فى الأغانى ٤ : ٣٥١ :

إيّاكم أن يقولَ الناسُ إنهمُ　　قد مُلّـكوا ثم ماضرّوا ولا نفعوا

(٢) من الأغانى ٤ : ٣٥١ وانظر طبقات الشعراء لابن المعتز ٣٩ ، ٤٠

بكيتُ وماذا يرد البكا ء وقلَّ البكاء لقتلى كداء

أصيبوا معاً فتولّوا معاً كذلك كانوا معاً في رخاء

بكت لهمُ الأرضُ من بعدهم وناحت عليهم نجومُ السماء

وكانوا ضياء فلما انقضى الزمان بقومى تولى الضياء

ومن شعره فيهم :

أثَّر الدهرُ في رجالى فقلُّوا بعد جمع فراح عظيى مَهيضاً

مااتذ كرتهمْ فملكُ عينى فيضَ دمعٍ وحقَّ لي أن تفيضا

ومن شعره فيهم :

أولئك قومى بعـد عزٍ وثروةٍ تداعوا فإلا تذرف العين أكمَد

كأنهمُ لاناس للموت غيرهمْ وإن كان فيهم منصفا غير مُعتدِ[1]

* * *

وقال أبو الفرج : ركبَ المأمون بدمشق يتصيد ، حتى بلغ جبل الثلج ، فوقف في بعض الطريق على بِركة عظيمة ، في جوانبها أربع سروات[2] ، لم يُرَ أحسن منها ، فنزل هناك ؛ وجعل ينظر إلى آثار بنى أمية ويتعجب منها ، ويذكرهم . ثم دعا بطبق عليه طعام ، فأكل ، وأمر علّويه فغنى :

أولئك قومى بعـد عزٍ ومنعة تفانَوْا فإلا تذرف العين أكمَدِ

وكان علّويه من موالى بنى أمية ، فغضب المأمون . وقال : يابن الفاعلة ، ألم يكن لك وقت تبكى فيه على قومك إلا هذا الوقت ! قال : كيف لاأبكى عليهم ومولاكم زرياب، كان في أيام دولتهم يركب معهم في مائة غلام ، وأنا مولاهم معكم أموت جوعا! فقام المأمون

(١) الأغانى ٤ : ٣٥٣ (طبعة الدار) .

(٢) السرو : شجر حسن الهيئة قويم الساق ، واحده سروة .

فركب وانصرف الناس ، وغضب على علو به عشرين يوما ، وكُلّم فيه فرضى عنه ، ووصله بعشرين ألف درهم[1] .

* * *

لما ضرب عبد الله بن عليّ أعناق بني أميّة ، قال له قائل من أصحابه : هذا والله جهد البلاء ، فقال عبدالله : كلّا ، ماهذا وشَرْطة[2] حجّام إلا سواء ، إنما جهد البلاء فقر مدقع ، بعد غنًى موسع[3] .

* * *

خطب سليمان بن عليّ لما قتل بني أمية بالبصرة ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾[4] قضاء فصل ، وقول مبرم ، فالحمد لله الذى صدق عبده ، وأنجز وعده ، وبعداً للقوم الظالمين ؛ الذين اتخذوا الكعبة غرضاً ، والدين هزواً ، والفئ إرثاً ، والقرآن عضين ؛ لقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون . وكأيّن ترى لهم من بئر معطلة وقصر مشيد ، ذلك بما قدّمت أيديهم ، وماربّك بظلام للعبيد ؛ أمهلهم حتى اضطهدوا العِتْرة ، ونبذوا السنّة ؛ واستفتحوا وخاب كلّ جبار عنيد ، ثم أخذهم فهل تُحسّ منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا !

* * *

ضرب الوليد بن عبد الملك عَليّ بن عبد الله بن العباس بالسِّياط ، وشَهّره بين الناس يُدار به على بعير ، ووجهه مما يلي ذَنَب البعير ، وصائح يصيح أمامه : هذا عليّ بن عبد الله الكذّاب ، فقال له قائل ، وهو على تلك الحال : ما الذى نسبوك إليه من الكذب يا أبا محمد ؟ قال : بلغهم قولى : إن هذا الأمر سيكون فى ولَدِي ؛ والله ليكونَنّ فيهم

---

(١) الأغانى ١٤ : ٣٥٣ ، ٣٥٤ (٢) الشرط : بزغ الحجام بالمشرط .
(٣) العبر فى اللسان (٩ : ٢٥) ، مع اختلاف فى الرواية (٤) سورة الأنبياء : ٥

حتى يَمْلِكَهُ عبيدهم الصغار العيون ، العراض الوجوه ، الذين كأن وجوههم المجانّ المطرّقة .

* * *

ورُوى أنّ عليّ بن عبد الله دخل على هشام ومعه ابنا ابنه : الخليفتان أبو العباس وأبو جعفر ، فكلّمه فيما أراد ، ثم ولّى فقال هشام : إنّ هذا الشيخ قد خرف وأهْتَر ؛ يقول : إن هذا الأمر سينتقل إلى ولده ! فسمع عليّ بن عبد الله كلامه ، فالتفت إليه ، وقال : إى والله ليكوننّ ذلك ، وليملكنّ هذان .

وقد روى أبو العباس المبرّد فى كتاب "الكامل" هذا الحديث ، فقال : دخل عليّ بن عبد الله بن العباس على سليمان بن عبد الملك فيما رواه محمد بن شجاع البلخيّ ، ومعه ابنا ابنه الخليفتان بعد : أبو العباس وأبو جعفر ، فأوسع له على سريره وبرّه ، وسأله عن حاجته ، فقال : ثلاثون ألف درهم علىّ دين ، فأمر بقضائها ، قال : واستوص بابنيّ هذين خيرا ، ففعل ، فشكره عليّ بن عبد الله ، وقال : وصلتك رَحِم ، فلما ولّى قال سليمان لأصحابه : إنّ هذا الشيخ قد اختلّ وأسنّ وخلّط ، وصار يقول : إنّ هذا الأمر سينتقل إلى ولده . فسمع ذلك عليّ بن عبد الله ، فالتفت إليه ، وقال : إى والله ليكوننّ ذلك ، وليملكنّ هذان[1] .

قال أبو العباس المبرّد : وفى هذه الرواية غلط ، لأنّ الخليفة فى ذلك الوقت لم يكن سليمان ، وإنما ينبغى أن يكون دخل على هشام ؛ لأنّ محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس كان يحاول التزويج فى بنى الحارث بن كعب ، ولم يكن سليمان بن عبد الملك يأذن له ، فلمّا قام عمر بن عبد العزيز جاءه فقال : إنّى أردت أنْ أتزوّج ابنة خالى من بنى الحارث

---

(١) الكامل ٢ : ٢٦٨ مع اختلاف فى الرواية .

ابن كعب ، فأذنْتُ لي ! فقال عمر بن عبد العزيز : تزوجْ يرحمك الله مَنْ أحببت . فتزوّجها فأولدها أبا العباس السَّفاح ، وعمر بن عبدالعزيز بعد سليمان ، وأبو العباس ينبغي ألا يكون تهيأ لمثله أن يدخل على خليفة حتى يترعرع ، ولا يَتمّ مثل هذا إلا في أيام هشام ابن عبد الملك .

* * *

قال أبو العباس المبرِّد : وقد جاءت الرواية أنّ أمير المؤمنين عليًّا عليه السلام لما وُلِد لعبد الله بن العباس مولود فقده وقت صلاة الظهر ، فقال : مابالُ ابن العبّاس لم يحضُر ! قالوا : وُلِد له ولد ذكر ، ياأمير المؤمنين . قال : فامضُوا بنا إليه ، فأتاه فقال له : شكرتَ الواهب ، وبُورِك لك في الموهوب ! ماسمَّيتَه ؟ فقال : ياأمير المؤمنين ، أو يجوز لي أن أسمِّيَه حتى تسمِّيَه ! فقال : أخرجه إليّ ، فأخرجه ، فأخذه فحنَّكه ودعا له ثم ردّه إليه ؛ وقال : خذ إليك أبا الأملاك ، قد سمّيتُه عليا ، وكنيته أبا الحسن . قال : فلما قدم معاوية خليفة ، قال لعبد الله بن العبّاس : لاأجمع لك بين الاسم والكنية ، قد كنيته أبا محمد ، فجرتْ عليه[1] .

قلت : سألتُ النقيب أبا جعفر يحيى بن محمد بن أبي زيد رحمه الله تعالى ، فقلت له : مِنْ أيِّ طريق عرف بنو أمية أنّ الأمر سينتقل عنهم ، وأنّه سيليه بنو هاشم ، وأوّل من يلي منهم يكون اسمه عبد الله ؟ ولِمَ منعوهم عن مناكحة بني الحارث بن كعب لعلمهم أنّ أول من يلي الأمر من بني هاشم تكون أمّه حارثيّة ؟ وبأيّ طريق عرف بنو هاشم أنّ الأمر سيصير إليهم ، ويملكه عبيدُ أولادهم ؟ حتى عرفوا صاحب الأمر بعينه ، كما قد جاء في هذا الخبر !

(١) الكامل ٣٩٠ (طبع أوروبا) .

فقال : أصلُ هذا كلّه محمد بن الحنفيّة ، ثم ابنه عبد الله المكنّى أبا هاشم .

قلت له : أفكان محمد بن الحنفيّة مخصوصاً من أمير المؤمنين عليه السلام بعلم يستأثر به على أخويه حسن وحسين عليهما السلام ؟ قال : لا ، ولكنهما كتما وأذاع . ثم قال : قد صحّت الرواية عندنا عن أسلافنا وعن غيرهم من أرباب الحديث ، أنّ عليا عليه السلام لما قبض أتى محمد ابنه أخويه حسناً وحسيناً عليهما السلام ، فقال لهما : أعطياني ميراثي من أبي ، فقالا له : قد علمت أنّ أباك لم يترك صفراء ولا بيضاء ، فقال : قد علمت ذلك ؛ وليس ميراث المال أطلب ؛ إنما أطلب ميراث العلم .

قال أبو جعفر رحمه الله تعالى: فروى أبان بن عثمان عمّن يُروى له ذلك،عن جعفر بن محمد عليه السلام ، قال : فدفعا إليه صحيفة ، لو أطلعاه على أكثر منها لهلك ، فيها ذكر دولة بني العباس .

قال أبو جعفر : وقد روى أبو الحسن علىّ بن محمد النوفليّ ، قال : حدثني عيسى ابن علىّ بن عبد الله بن العباس ، قال : لما أردنا الهرب من مروان بن محمد ، لما قبض على إبراهيم الإمام جعلنا نسخة الصحيفة التي دفعها أبو هاشم بن محمد بن الحنفيّة إلى محمد بن علي ابن عبد الله بن العباس ، وهي التي كان آباؤنا يسمّونها صحيفة الدولة ، في صندوق من نحاس صغير ، ثم دفناه تحت زيتونات بالشراة[1] لم يكن بالشراة من الزيتون غيرهن،فلما أفضى السلطان إلينا ، وملكنا الأمر،أرسلنا إلى ذلك الموضع فبحث وحُفر، فلم يوجد فيه شيء ، فأمرنا بحفر جريب من الأرض في ذلك الموضع ؛ حتى بلغ الحفر الماء ولم نجد شيئا .

قال أبو جعفر : وقد كان محمد بن الحنفيّة صرّح بالأمر لعبد الله بن العباس وعرّفه تفصيله،ولم يكن أمير المؤمنين عليه السلام قد فصّل لعبدالله بن العباس الأمر،وإنما أخبره به

(١) الشراة : صقع بالشام بين المدينة ودمشق ، ومن بعض نواحيه القرية المعروفة بالحميمة ، كان يسكنها ولد علي بن عبدالله بن عباس في أيام بني مروان . ياقوت .

مجلا ، كقوله فى هذا الخبر : « خذ إليك أبا الأملاك » ، ونحو ذلك مما كان يعرّض له به؛ ولكن الذى كشف القناع ، وأبرز المستور عليه هو محمد بن الحنفيّة .

وكذلك أيضا ماوصل إلى بنى أمية من علْم هـذا الأمر ، فإنه وصل من جهة محمد ابن الحنفيّة ، وأطلعهم على السرّ الذى عنده ، ولكن لم يكشف لم كشفه لبنى العباس ، فإنّ كشفهُ الأمر لبنى العباس كان أكمل .

قال أبو جعفر : فأما أبو هاشم ،فإنه قد كان أفضى بالأمر إلى محمد بن علىّ بن عبدالله ابن العباس وأطلعه عليه ، وأوضحه له ، فلما حضرته الوفاة عَقيب انصرافه من عند الوليد ابن عبد الملك مَرّ بالشراة ؛ وهو مريض ومحمد بن على بها ، فدفع إليه كتبه ، وجعله وصيّه ، وأمر الشيعة بالاختلاف إليه .

قال أبو جعفر : وحضر وفاة أبى هاشم ثلاثة نفر من بنى هاشم : محمد بن علىّ هذا ، ومعاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن الحارث بن نوفل ابن الحارث بن عبدالمطلب؛فلما مات خرج محمد بن معاوية بن عبدالله بن جعفر من عنده، وكلّ واحد منهما يدّعى وصايته ، فأمّا عبد الله بن الحارث فلم يقل شيئا .

قال أبو جعفر رحمه الله تعالى:وصدق محمد بن علىّ ، أنّه إليه أوصى أبو هاشم،وإليه دفع كتاب الدولة ، وكذّب معاوية بن عبدالله بن جعفر ،لكنّه قرأ الكتاب ، فوجدلم فيه ذِكرًا يسيرا،فادّعى الوصية بذلك ، فمات وخرج ابنهُ عبدالله بن معاوية يدّعى وصاية أبيه ، ويدّعى لأبيه وصاية أبى هاشم ، ويظهر الإنكار على بنى أمية ، وكان له فى ذلك شيعة يقولون بإمامته سرًّا حتى قتل .

* * *

دخلتْ إحدى نساء بنى أميّة على سليمان بن على ؛ وهو يقتل بنى أمية بالبصرة ،

فقالت : أيها الأمير ، إنّ العدل ليُمَلّ من الإكثار منه ، والإسراف فيه،فكيف لا تملّ أنت من الجوْر وقطيعة الرحم ! فأطرق ثم قال لها :

سَنَنْتُمْ علينا القتـــل لا تنكرُونه   فذوقوا كما ذقْنا على سالِف الدَّهر

ثم قال : يا أمَة الله

* وأول راضٍ سنة مَنْ يَسِيرُها[1] *

ألم تحاربوا عليا وتدفعوا حقه ؟ ألم تسُمّوا حسنا وتنقضوا شرطه ؟ ألم تقتلُوا حسينا وتسيّروا رأسه؟ ألم تقتلوا زيدا وتصلبوا جسده ؟ ألم تقتلوا يحيى وتمثلوا به ؟ ألم تلعنوا عليا على منابركم ؟ ألم تضربوا أبانا عليّ بن عبدالله بسياطكم ؟ ألم تخنقوا الإمام بجراب النورة في حبسكم ؟ ثم قال : ألكِ حاجة ؟ قالت : قبْض عُمّالك أموالي ، فأمر بردّ أموالها عليها .

* * *

لما سار مَرْوان إلى الزّاب، حفر خندقا، فسار إليه أبو عون عبدالله بن يزيد الأزدي، وكان قحطبة بن شبيب قد وجّهه وأمدّ أبو سلمة الخلال بأمداد كثيرة ، فكان بإزاء مروان . ثم إن أبا العباس السفاح قال لأهله وهو بالكوفة حينئذ : مَنْ يسير إلى مَرْوان من أهل بيتي وله ولاية العهد إن قتله ؟ فقال عبدالله عمه : أنا ، قال : سرْ على بركة الله ، فسار فقدم على أبي عَوْن ، فتحول له أبو عون عن سُرادقه وخلاه له بما فيه . ثم سأل عبدالله عن مخاضة في الزّاب ، فدلّ عليها ، فأمر قائدامن قوّاده فعبرها في خمسة آلاف ، فانتهى إلى عسكر مَرْوان فقاتلهم ؟ حتى أمسوْا وتحاجزوا ، ورجع القائد بأصحابه ، فعبرَ المخاضة إلى عسكر عبدالله بن عليّ ، وأصبح مروان ، فعقد جسرا ، وعبَر بالجيش كلّه إلى

---

(١) من بيت لأبي ذؤيب الهذلي ؛ ديوان الهذليين ١ : ١٥٦ والبيت بتمامه :

فلا تجزَعَنْ من سُنّةٍ أنتَ سِرْتَها   وأول راضٍ سُنّةً مَنْ يَسِيرُها

عبدالله بن علىّ ، فكان ابنه عبد الله بن مروان فى مقدمته ، وعلى الميمنة الوليد ابن معاوية بن عبد الملك بن مروان ، وعلى الميسرة عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ابن مروان ، وعبأ عبدالله بن على جيشه ، وتراءى الجمعان ، فقال مروان لعبد العزيز ابن عمر : انظر ، فإن زالت الشمس اليوم ولم يقاتلونا كنا نحن الذين ندفعها إلى عيسى ابن مريم ؛ وإن قاتلونا قبل الزوال ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ! ثم أرسل إلى عبد الله ابن على يسأله الكف عن القتال نهار ذلك اليوم ، فقال عبدالله : كذب ابن زربى إنما يريد المدافعة إلى الزوال ؛ لا والله لا تزول الشمس حتى أوطئه الخيل إن شاء الله . ثم حرك أصحابه للقتال ، فنادى مروان فى أهل الشام : لا تبدءوهم بالحرب ، فلم يسمع الوليد ابن معاوية منه ، وحمل على ميسرة عبد الله بن علىّ ، فغضب مروان وشتمه ، فلم يسمع له واضطرمت الحرب ، فأمر عبدالله الرماة أن ينزلوا ، ونادى : الأرض الأرض ! فنزل الناس ، ورمت الرماة ، وأشرعت الرماح وجثوا على الركب ، فاشتد القتال ، فقال مروان لقضاعة : انزلوا ، قالوا : حتى تنزل كندة ، فقال لكندة : انزلوا ، فقالوا : حتى تنزل السكاسك ، فقال لبنى سليم : انزلوا ، فقالوا : حتى تنزل عامر ، فقال لتميم : احملوا ، فقالوا : حتى تحمل بنو أسد ، فقال لهوازن : احملوا ، قالوا : حتى تحمل غطفان ، فقال لصاحب شرطته : احمل ويلك ! قال : ما كنت لأجعل نفسى غرضاً ، قال : أما والله لأسوأنك ، قال : وددت أن أمير المؤمنين يقدر على ذلك ! فانهزم عسكر مروان وانهزم مروان معهم ، وقطع الجسر ، فكان من هلك غرقاً أكثر ممن هلك تحت السيف ، واحتوى عبدالله بن علىّ على عسكر مروان بما فيه ، وكتب إلى أبى العباس بخبره الواقعة .

* * *

كان مروان سديد الرأى ، ميمون النقيبة ، حازما ، فلما ظهرت المسودة ، ولقيهم كان

مابديّر أمرا إلا كان فيه خلل ، ولقد وقف يوم الزّاب ، وأمر بالأموال فأخرجت ، وقال للناس: اصبروا وقاتلوا ، وهذه الأموال لكم، فجعل ناسٌ يصيبون من ذلك المال ويشتغلون به عن الحرب ، فقال لابنه عبد الله : سِرْ في أصحابك فامنع مَنْ يتعرض لأخذ المال ، فمال عبدالله برايته ، ومعه أصحابه ، فتنادى الناسُ :الهزيمة ! الهزيمة ! فانهزموا ، وركب أصحابُ عبد الله بن علىّ أكتافهم .

* * *

لما قتل مروان ببوصير ، قال الحسن بن قحطبة : أخرجوا إلىّ إحدى بنات مَرْوان ، فأخرجوها إليه وهي تُرْعد ، قال : لا بأسَ عليك ! قالت : وأىّ بأس أعظمُ من إخراجك إياى حاسرة ، ولم أر رجلا قبلك قط ! فأجلسها، ووضع رأس مروان في حِجْرها، فصرخت واضطربت فقيل له : ما أردت بهذا ؟ قال : فعلتُ بهم فعلهم بزيد بن على لمّا قتلوه ، جعلوا رأسه فى حجر زينب بنت علىّ بن الحسين عليه السلام .

* * *

دخلتْ زوجةُ مَرْوان بن محمد ، وهى عجوز كبيرة ، على الخيزُران فى خلافة المهدىّ ، وعنـدها زينبُ بنت سليمان بن علىّ ، فقالت لها زينب : الحمد لله الذى أزال نعمتَك ، وصيَّرك عِبْرة ! أتذكرين ياعدوة الله ، حين أتاك نساؤنا يسألنك أن تكلّمى صاحبَك فى أمر إبراهيم بن محمد فلقيتهنّ ذلك اللقاء ، وأخرجتهنّ ذلك الإخراج ! فضحكت ، وقالت : أىّ بنتَ عمّى ! وأىّ شىء أعجبك من حُسْن صنيع الله بى عقيب ذلك ؟ حتى أردت أن تتأسّىْ بى فيه ! ثم ولّت خارجة .

* * *

بويع أبو العباس السفاح بالخلافة يوم الجمعة ، لثلاث عشرة ليلة خَلَوْن من شهر ربيع

الأول سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، فصعد المنبر بالكوفة فخطب ، فقال : الحمدُ لله الّذي اصطفى الإسلام لنفسه ، وكرّمه وشرّفه وعظّمه ، واختارَهُ لنا ، وأيده بنا ، وجعلنا أهله وكهفَه ،وحصنه والقوّام به ،والذّابين عنه ،والناصرين له ؛ وخصّنا برحم رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنبتنا من شَجَرته ، واشتقنا من نَبْعَته ، وأنزل بذلك كتاباً يتلى ، فقال سبحانه : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ [١]، فلما قُبِض رسول الله صلى الله عليه وآله ، قام بالأمر أصحابه ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [٢] فعدلوا ، وخرجوا خِماصاً [٣]، ثم وثب بنو حرب وبنو مروان فابتزّوها وتداولوها ، واستأثروا بها، وظلموا أهلها ، فأملى الله لهم حيناً ؛ فلمّا آسفوه [٤] انتقم منهم بأيدينا ، وردّ علينا حقّنا ، فأنا السّفّاحُ المبيحُ ، والثائر المبير [٥] .

وكان موعوكا فاشتدت عليه الوعكة ، فجلس على المنبر ولم يستطع الكلام فقام عمه داود بن علي وكان بين يديه ، فقال :

يأهلَ العراق ، إنا والله ماخرجنا لنحفر نَهراً ، ولا لنكنز لُجَيْناً ولا عِقْيانا ؛ وإنما أخرجتنا الأنَفة من ابتزاز الظالمين حقّنا ؛ ولقد كانت أموركم تتصل بنا فتُرْمِضنا ونحن على فُرُشنا ، لكم ذمة الله وذمة رسوله ، وذمة العباس ؛ أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير فيكم بسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله . واعلموا أن هذا الأمر ليس بخارج عنا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم .

---

(١) سورة الشورى ٢٣
(٢) سورة الشورى ٣٨
(٣) خماصاً : جياعاً .
(٤) آسفوه : أغضبوه .
(٥) المبير : المهلك .

يا أهل الكوفة ؛ إنه لم يخطب على مِنْبَرِكُم هذا خليفة حقّ إلا عليّ بن أبي طالب وأمير المؤمنين هذا ، فاحمدُ الله الذي رَدّ إليكم أموركم . ثم نزل .

وقد روى حديث خطبة داود بن عليّ برواية أخرى ؛ وهي الأشهر ، قالوا : لما صعد أبو العباس مِنْبَر الكوفة ، حُصِر فلم يتكلم ، فقام داود بن عليّ ، وكان تحت منبره حتى قام بين يديه تحته بمِرْقاة ، فاستقبل الناس ، وقال :

أيها النّاس ، إن أمير المؤمنين يكرَه أن يتقدّم قولُه فعلَه ، ولَأَثَرُ الفعال أجْدَى عليكم من تشقيق المقال ، وحسبكم كتاب الله تمثّلاً فيكم ، وابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله خليفةً عليكم ؛ أقسم بالله قَسَماً بَرّاً ما قام هذا المقام أحدٌ بعد رسول الله صلى الله عليه وآله أحقُّ به من عليّ بن أبي طالب وأمير المؤمنين هذا فليهمسْ هامِسُكم ، ولينطق ناطقكم . ثم نزل .

* * *

ومن خطب داود التي خطب بها بعد قتل مَرْوان :

شُكْراً شُكْراً ! أظَنّ عدوّ الله أن لن يُظْفَر به ، أرخى له في زمامه ، حتى عثر في فضل خِطامه ؛ فالآن عاد الحقّ إلى نصابه ، وطلعت الشمس من مطلعها ؛ وأخذ القوسَ باريها ؛ وصار الأمر إلى النَّزَعة [1] ، ورجع الحقّ إلى مستقرّه ؛ أهل بيت نبيكم ، أهل الرأفة والرحمة .

* * *

وخطب عيسى بن عليّ بن عبد الله بن العباس لما قُتِل مَرْوان ، فقال : الحمد لله الذي لا يفوته مَنْ طلب ، ولا يُعجزه مَنْ هرب ، خدعتْ والله الأشقرَ نفسُه ، إذ ظنّ أن الله ممهله ، ويأبى الله إلّا أن يُتمّ نورَه ولو كَرِهَ الكافرون ؛ فحتى مَتَى ؟ وإلى متى ؟

(١) النزعة : جمع نازع ؛ وهو الرامي بمد الوتر إليه ليضع فيه السهم ؛ يريد : رجع الحق إلى أهله .

أما والله لقد كَرِهتْهُمُ العِيدَان(١) التي افْتَرعوها ، وأمسكت السماء دَرَّها(٢) ، والأرض رَيْعها(٣) وقحل(٤) الضَّرْع ، وجَفَزَ الفنيق(٥) ، وأسْمَل(٦) جلباب الدين ، وأبطلت الحدود ، وأهدرت الدماء ؛ وكان ربُّك بالمرصاد ، فدمدم(٧) عليهم ربهم بذنبهم فسوّاها ، ولا يخاف عُقباها ؛ وملَّكنا الله أمركم ؛ عبادَ الله لينظر كيف تعملون ، فالشكر الشكر ؛ فإنه من دواعي المزيد ؛ أعاذنا الله وإياكم من مُضِلّات الأهواء ، وبغتات الفتن فإنما نحن به وله .

* * *

لما أمعن داود بن عليّ في قَتْل بني أمية بالحجاز قال له عبدالله بن الحسن عليه السلام : يا بن عمي ، إذا أفرطت في قتل أكفائك فمَنْ تُباهي بسلطانك ! وما يكفيك منهم أن يروك غاديا ورائحا فيما يسرك ويسوءهم !

* * *

كان داود بن عليّ يمثل ببني أمية ؛ يسمُل العيونَ ، ويبقرُ البطون ، ويجدَعُ الأنوف ويصطلم الآذان . وكان عبد الله بن علي بنهر أبي فُطْرُس يصلبهم منكّسين ، ويسقيهم النُّورة والصَّبر ، والرَّماد والخلّ ، ويقطع الأيدي والأرجل . وكان سليمان بن عليّ بالبصرة يضرب الأعناق .

* * *

خطب السفاح في الجمعة الثانية بالكوفة فقال :

---

(١) العيدان ، يريد أعواد المنابر ، وافترعوها : اعتلوها .
(٢) درها ، أي مطرها .
(٣) الريع : النماء .
(٤) قحل : يبس جلده على لحمه .
(٥) الفنيق : الفحل المكرم لا يؤذى لكرامته ، والجفز : السرعة في المشي .
(٦) أسمل : خلق وبلي .
(٧) دمدم عليهم ، طحنهم فأهلكهم .

يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ؛ والله لا أعد كم شيئاً ولا أتوعدكم إلا وفيت بالوعد والوعيد ، ولأعملن اللين حتى لا ينفع إلا الشدة ، ولأغمدن السيف إلا فى إقامة حد ، أو بلوغ حق ، ولأعطينكم حتى أرى العطية ضياعا . إن أهل بيت اللعنة والشجرة الملعونة فى القرآن ، كانوا لكم أعداء لا يرجعون معكم من حالة إلا إلى ماهو أشد منها ، ولا يلى عليكم منهم وال إلا تمنيتم من كان قبله ، وإن كان لا خير فى جميعهم ؛ منعوكم الصلاة فى أوقاتها ، وطالبوكم بأدائها فى غير وقتها ، وأخذوا المدبر بالمقبل ، والجار بالجار ، وسلطوا شراركم على خياركم ، فقد محق الله جورهم ، وأزهق باطلهم بأهل بيت نبيكم ؛ فما نؤخر لكم عطاء ، ولا نضيع لأحد منكم حقا ، ولا نجهزكم فى بعث ، ولا نخاطر بكم فى قتال ، ولا نبذلكم دون أنفسنا ؛ والله على ما نقول وكيل بالوفاء والاجتهاد ، وعليكم بالسمع والطاعة .

ثم نزل .

* * *

كان يقال : لو ذهبت دولة بنى أمية على يد غير مروان بن محمد ، لقيل : لو كان لها مروان لما ذهبت .

كان يقال : إن دولة بنى أمية آخرها خليفة أمه أمة ، فلذلك كانوا لا يعهدون إلى بنى الإماء منهم ، ولو عهدوا إلى ابن أمة لكان مسلمة بن عبد الملك أولاهم بها ؛ وكان انقراض أمرهم على يد مروان وأمه أمة ، كانت لمصعب بن الزبير ، وهبها من إبراهيم بن الأشتر ، فأصابها محمد بن مروان يوم قتل ابن الأشتر ، فأخذها من ثقله ، فقيل : إنها كانت حاملا بمروان ، فولدته على فراش محمد بن مروان؛ ولذلك كان أهل خراسان ينادونه فى الحروب : يابن الأشتر .

قيل أيضا : إنها كانت حاملا به من مصعب بن الزبير ، وإنه لم تطل مدتها عند

إبراهيم بن الأشتر ؛ حتى قتل فوضعت تحملها على فراش محمد بن مروان ، ولذلك كانت المسوّدة تصيح به في الحرب : يابن مصعب ! ثم يقولون : يابن الأشتر ! فيقول: ماأبالي أيّ الفحلين غلب عليّ !

* * *

لما بُويع أبو العباس جاءه ابنُ عياش المنتوف ، فقبّل يده وبايعه ، وقال : الحمدُ لله الذي أبدلنا بحمار الجزيرة ، وابن أمة النخع ، ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وابن عبد المطلب .

* * *

لما صعد السّفاح مِنبر الكوفة يوم بيعته ، وخطب الناس ، قام إليه السيّد الحِميرى ، فأنشده :

دونكموها يابني هاشم ... فجدّدوا من آيها الطّامِسا[1]
دونكموها لا علا كعب من ... أمسى عليكم مُلكَها نافسا
دُونكموها فالبسُوا تاجَها ... لا تعدمُوا منكمْ له لابِسا
خلافةُ الله وسلطانهُ ... وعُنصُرٌ كان لكم دارِسا
قدْ ساسها من قبلكم ساسَةٌ ... لم يترُكوا رَطْباً ولا يابسا
لو خُيِّر المنبرُ فرسانه ... ما اختار إلا منكمُ فارسا
والْمُلك لو شُووِر في سائسٍ ... لما ارتضَى غيرَكم سائِسا
لم يُبْقِ عبدُالله بالشام مِنْ ... آل أبي العاص امرأً عاطِسا
فلستُ من أن تملكوها إلى ... هُبوط عيسى منكمُ آيسا

* * *

قال داود بن عليّ لإسماعيل بن عمرو بن سعيد بن العاص بعد قتله مَنْ قَتل من بني

(١) الأبيات في الأغاني ٧ : ٢٤٠ (طبع الدار) مع اختلاف في الرواية .

أميةَ : هل علمتَ ما فعلتُ بأصحابك ؟ قال : نعم ، كانوا يداً فقطعتَها ، وعَضُداً ففتتَّ(١) فيها ، ومِرّة(٢) فنقضتها ، وجناحاً فحصصتَها(٣) ؛ قال : إنى لخليق أن ألحقك فيهم ، قال : إنى إذاً لسعيد !

* * *

لما استوثق الأمر لأبى العباس السفاح ، وفد إليه عشرة من أمراء الشام ، فحلفوا له بالله وبطلاق نسائهم ، وبأيمان البيْعة بأنهم لا يعلمون — إلى أن قُتل مروان — أنّ لرسول صلى الله عليه وآله أهلا ولا قرابة إلا بنى أمية .

* * *

وروى أبو الحسن المدائنىّ ، قال : حدثنى رجلٌ قال : كنت بالشام ، فجعلت لا أسمع أحداً يسمِّى أحداً أو يناديه : يا علىّ أو ياحسن ، أو ياحسين ؛ وإنما أسمع : معاوية ، والوليد ، ويزيد ، حتى مررت برجل ، فاستسقيته ماء ، فجعل ينادى : ياعلىّ ، ياحسن ، ياحسين ، فقلت : ياهذا ، إنّ أهل الشام لا يسمّون بهذه الأسماء ! قال : صدقت ، إنهم يسمُّون أبناءهم بأسماء الخلفاء ، فإذا لعن أحدُهم ولده أو شتمه فقد لعن اسمَ بعد الخلفاء ، وأنا سمّيت أولادى بأسماء أعداء الله ، فإذا شتمتُ أحدَهم أو لعنته فإنما ألعن أعداء الله .

* * *

كانت أمّ إبراهيم بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علىّ بن عبد الله بن العباس أموية من ولد عثمان بن عفان .

قال إبراهيم : فدخلت على جدّى عيسى بن موسى مع أبى موسى ، فقال لى جدّى : أتحبّ بنى أمية ؟ فقال له موسى أبى : نعم ، إنهم أخواله ، فقال : والله لو رأيت جدك

(١) فت فى عضده ؛ أى كسر قوته وفرق عنه أعوانه .
(٢) المرة فى الأصل : طاقة الحبل . (٣) يقال : حص الجناح ؛ أى قطعه .

عليّ بن عبد الله بن العباس يُضرب بالسياط ما أحببتهم ؛ ولو رأيت إبراهيم بن محمد يُكرَه على إدخال رأسه في جراب النُّورة[1] لما أحببتهم ، وسأحدثك حديثاً إن شاء الله أن ينفعك به نفعك : لما وجّه سليمان بن عبد الملك ابنه أيوب بن سليمان إلى الطائف وجّه معه جماعة ، فكنت أنا ومحمد بن عليّ بن عبد الله جدّي معهم ، وأنا حينئذ حديث السِّنّ ، وكان مع أيوب مؤدّب له يؤدّبه ، فدخلنا عليه يوما أنا وجدّي ، وذاك المؤدّب يضربه ، فلما رآنا الغلام أقبل على مؤدّبه نضربه فنظر بعضنا إلى بعض وقلنا : ماله قاتله الله ! حين رآنا كره أن نَشْمَت به ، ثم التفت أيوب إلينا ، فقال : ألا أخبركم يابني هاشم بأعقلكم وأعقلنا ، أعقلنا مَنْ نشأ منّا يبغضكم ، وأعقلكم من نشأ منكم يبغضنا ؛ وعلامة ذلك أنكم لم تسمّوا بمروان ، ولا الوليد ، ولا عبد الملك ، ولم نسمّ نحن بعليّ ولا بحسن ولا بحسين .

***

لما انتهى عامر بن إسماعيل — وكان صالح بن عليّ قد أنفذه لطلب مَرْوان — إلى بوصير مِصْر ، هرب مَرْوان بين يديه في نفر يسير من أهله وأصحابه ؛ ولم يكن قد تخلف معه كثير عدد ، فانتهوا في غَبَش الصُّبح إلى قنطرة هناك على نهر عميق ، ليس للخيل عُبور إلا على تلك القنطرة ، وعامر بن إسماعيل من ورائهم ، فصادف مروانُ على تلك القنطرة بغالاً قد استقبلته تعبرُ القنطرة ، وعليها زِقاق عسل ، فحبسته عن العُبور حتى أدركه عامر بن إسماعيل ورهطه ، فلوى مَرْوان دابته إليهم ؛ وحارب فقُتل ، فلما بلغ صالح بن عليّ ذلك ، قال : إن لله جنوداً من عسل .

***

لما نقف رأس مروان ونفض مخه ، قطع لسانه وألقى مع لحم عنقه ، فجاء كلب فأخذ اللسان ، فقال قائل :

إنّ من عبَر الدنيا أن رأينا لسان مروان فى فم كلب .

***

خطب أبو مسلم بالمدينة فى السّنة التى حجّ فيها فى خلافة السفّاح ، فقال : الحمد لله الذى حَمِد نفسَه ، واختار الإسلام ديناً لعباده ، ثم أوحى إلى محمد رسول الله صلى الله عليه من ذلك ما أوحى ، واختاره من خلقه ، نفسُه من أنفسهم ، وبيتُه من بيوتهم ؛ ثم أنزل عليه فى كتابه الناطق الذى حفظه بعلمه ، وأشهد ملائكته على حقه ، قوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[1] ، ثم جعل الحقّ بعد محمد عليه السلام فى أهل بيته ، فصبرَ مَنْ صَبَرَ منهم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه على اللأواء والشدّة ، وأغضى على الاستبداد والأثَرة . ثم إنّ قوماً من أهل بيتِ الرسول صلى الله عليه ، جاهدوا على ملة نبيّه وسنّته بعد عصرٍ من الزمان من عمل بطاعة الشيطان وعداوة الرحمن ، بين ظهرانَىْ قوم آثروا العاجلَ على الآجل ، والفانىَ على الباقى ؛ إن رُتِق جورٌ فتقوه ، أو فُتِق حقٌّ رتقوه ، أهل خمور وماخور ، وطنابير[2] ومزامير ، إن ذُكّروا لم يذكّروا ، أو قُدّموا إلى الحق أدبروا ، وجعلوا الصدقات فى الشبهات ، والمغانمَ فى المحارم ، والفىء فى الغىّ ، هكذا كان زمانهم ، وبه كان يعمل سلطانهم . وزعموا أنّ غير آل محمد أولى بالأمر منهم ، فلِمَ وبِمَ أيها الناس ؟ ألكم الفضلُ بالصحابة دون ذوى القرابة ، الشركاء فى النسب ، والورثة فى السّلَب[3] مع ضربهم على الدين جاهلكم ، وإطعامهم فى الجدب جائعكم ! والله ما اخترتم من حيث اختار الله لنفسه ساعة قطّ ؛ وما زلتم بعد نبيّه تختارون تيميّاً مرّة ، وعَدَويّاً مرة ، وأمويّاً مرة ، وأسديّاً مرة ، وسُفْيانياً مرّة ، ومَرْوانياً مرّة

(١) سورة الأحزاب ٣٣

(٢) الماخور : بيت الريبة . والطنابير : جمع طنبور ، وهو آلة من آلات الطرب : ذو عنق طويل وستة أوتار من نحاس . (٣) السلب : ما يسلب .

حتى جاءكم مَنْ لا تعرفون اسمَه ولا بيته ، يضربكم بسيفه ، فأعطيتموها عَنْوة وأنتم صاغرون . ألا إنّ آل محمد أئمة الهدى ، ومنارُ سبيل التّقى ، القادة الذادة السادة ؛ بنو عمّ رسول الله ، ومنزل جبريل بالتنزيل ؛ كَمْ قَصَم الله بهم[1] من جبّار طاغ ، وفاسق باغ ، شيّد الله بهم الهدى ، وجلا بهم العَمى ؛ لم يُسْمَعْ بمثل العباس ! وكيف لاتخضع له الأمم لواجب حقّ الحرمة ! أبو رسول الله بعد أبيه ، وإحدى يديه ، وجلدة بين عينيه . أمينُه يوم العقبة وناصره بمكة ، ورسوله إلى أهلها ، وحاميه يوم حُنين ، عند ملتقى الفئتين ؛ لايخالف له رسما ، ولايعصى له حكما ؛ الشافع يوم نيق[2] العُقاب ، إلى رسول الله في الأحزاب هاإنّ في هذا أيها الناس لعبرةً لأولى الأبصار[3] !

قلت : الأسدى عبد الله بن الزّبير . ومَنْ لايعرفون اسمه ولا بيته ، يعني نفسه ، لأنه لم يكن معلوم النّسب ؛ وقد اختلف فيه هل هو مولًى أم عربيّ .

ويوم العقبة : يوم مبايعة الأنصار السبعين لرسول الله صلى الله عليه وآله بمكة . ويوم نيق العُقاب يوم فتح مكة ، شفع العباس ذلك اليوم في أبي سفيان وفي أهل مكة ، فعفا النبيّ صلى الله عليه وآله عنهم .

* * *

اجتمع عند المنصور أيام خلافته جماعة من ولد أبيه ، منهم عيسى بن موسى والعباس ابن محمد وغيرهما ؛ فتذاكروا خُلفاء بني أمية ، والسبب الذى به سلبوا عزّهم ، فقال المنصور : كان عبد الملك جبّاراً لايبالي ماصنع ؛ وكان الوليد لحّانا مجنونا ، وكان سليمان همّته بطنه وفرجه ، وكان عمر أعورَ بين عميان ، وكان هشام رجلَ القوم ، ولم يزل بنو أمية ضابطين لما مهّد لهم من السلطان ، يحوطونه ويصونونه ويحفظونه ، ويحرسون ماوهب الله لهم منه ، مع تسنّمهم معالىَ الأمور ، ورفضهم أدانيها ، حتى أفضى أمرهم إلى أحداثٍ مترفين من أبنائهم ، فغمطوا النعمة ، ولم يشكروا العافية ، وأساءوا الرعاية ، فابتدأت النّقمة منهم ،

(١) ساقطة من ب .
(٢) نيق العقاب : موضع بين مكة والمدينة قرب الجحفة .
(٣) د : الألباب .

باستدراج الله إياهم آمنين مكره . مطّرحين صيانة الخلافة ، مستخفّين بحق الرياسة ، ضعيفين عن رسوم السياسة ، فسلّبهم الله العزّة ، وألبسهم الذلّة ، وأزال عنهم النعمة .

* * *

سأل المنصورُ ليلةً عن عبد الله بن مروان بن محمد ، فقال له الربيع : إنّه في سجن أمير المؤمنين حيّاً ، فقال المنصور : قد كان بلغنى كلامٌ خاطبه به ملكُ النُّوبة ؛ لما قدم دياره ، وأنا أحبّ أن أسمعه مِنْ فيه ، فليؤمَرْ بإحضاره . فأحضِر ، فلما دخل خاطب المنصور بالخلافة ، فأمره المنصور ، بالجلوس ، فجلس والقيد في رجليه خشخشة . قال: أحِبّ أن تسمعنى كلاما قاله لك ملك النُّوبة حيث غشيت بلاده ، قال : نعم ، قدمت إلى بلد النُّوبة ، فأقمت أياما ، فاتّصل خبرنا بالملك ، فأرسل إلينا فرشا وبسطا وطعاما كثيرا، وأفرد لنا منازل واسعة ، ثم جاءنى ومعه خمسون من أصحابه ، بأيديهم الحراب ، فقمت إليه فاستقبلته ، وتنحّيت له عن صدر المجلس ، فلم يجلس فيه ، وقعد على الأرض ، فقلت له : مامنعك من القعود على الفرش ؟ قال : إنى ملك ، وحقّ الملك أن يتواضع لله ولعظمته إذا رأى نعمه متجدّدة عنده ، ولمّا رأيت تجدّد نعمة الله عندى بقصدكم بلادى ، واستجارتكم بى ، بعد عزّكم وملككم قابلت هذه النعمة بما ترى من الخضوع والتواضع. ثم سكت وسكتّ ، فلبثنا ماشاء الله ؛ لايكلّمنى ولاأكلّمه ، وأصحابه قيامٌ بالحراب على رأسه . ثم قال لى : لماذا شربتم الخمر وهى محرّمة عليكم فى كتابكم ؟ فقلت : اجترأ على ذلك عبيدُنا بجهلهم ، قال : فلم وطِئتُم الزّروع بدوابّكم والفساد محرّم عليكم فى كتابكم ودينكم[1] ؟ قلت : فعَل ذلك أتباعُنا وعُمّالنا جهلاً منهم ، قال : فلِمَ لبستم الحرير والدّيباج والذهب ، وهو محرّم عليكم فى كتابكم ودينكم ؟ قلت : استعنّا فى أعمالنا بقوم من

(١) ساقطة من ب

أبناء العجم كتّاب ، دخلوا فى ديننا فلبسوا ذلك اتباعا لسنة سلفهم ، على كُرْه منّا .
فأطرق مليّاً إلى الأرض يقلب يده ، وينكت الأرض . ثم قال : عبيدنا وأتباعنا وعمّالنا
وكتّابنا ! ما الأمر كما ذكرت ، ولكنكم قوم استحللتم ماحرّم الله عليكم ، وركبتم
ما عنه نُهيتم ، وظلمتم فيما ملكتم ، فسلبكم الله العزّ ، وألبسكم الذلّ ؛ وإن له سبحانه
فيكم لنقمة لم تبلغ غايتها بعد ، وأنا خائف أن يحلّ بكم العذاب وأنتم بأرضى فينالنى
معكم ؛ والضيافة ثلاث ، فاطلبوا ما احتجتم إليه ، وارتحلوا عن أرضى .

فأخذنا منه ما تزودنا به ، وارتحلنا عن بلده . فعجب المنصور لذلك وأمر بإعادته
إلى الحبس .

● ● ●

وقد جاءنا فى بعض الروايات أنّ السفاح لما أراد أن يقتل القوم الذين انضمّوا إليه
من بنى أمية جلس بوماً على سرير بهاشمية الكوفة [١] وجاء بنو أمية وغيرهم من بنى هاشم ،
والقواد والكتاب ، فأجلسهم فى دار تتصل بداره ، وبينه وبينهم ستر مسدول ، ثم أخرج
إليهم أبا الجهم بن عطية ، وبيده كتابٌ ملصق ، فنادى بصوت يسمعون : أين رسول الحسين
ابن علىّ بن أبى طالب عليه السلام ؟ فلم يتكلّم أحد ، فدخل ثم خرج ثانية ، فنادى : أين
رسول زيد بن علىّ بن الحسين ؟ فلم يجبه أحد ، فدخل ثم خرج ثالثة ، فنادى : أين رسول
يحيى بن زيد بن على ؟ فلم يردّ أحد عليه ، فدخل ثم خرج رابعة ، فنادى : أين رسولُ
إبراهيم بن محمد الإمام ؟ والقوم ينظر بعضهم إلى بعض ، وقد أيقنوا بالشرّ ، ثم دخل
وخرج ، فقال لهم : إنّ أمير المؤمنين يقول لكم : هؤلاء أهلى ولحمى ، فماذا صنعتم بهم ؟
ردّوهم إلىّ أو فأقيدونى من أنفسكم . فلم ينطقوا بحرف ، وخرجت الخراسانية بالأعمدة
فشدّخوهم عن آخرهم .

● ● ●

(١) هاشمية الكوفة ، مدينة بناها السفاح .

قلت : وهذا المعنى مأخوذ من قول الفَضْل بن عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب لما قتل زيد بن علىّ عليه السلام فى سنة اثنتين وعشرين ومائة فى خلافة هشام بن عبد الملك ؛ وذلك أنّ هشاما كتب إلى عامله بالبصرة — وهو القاسم ابن محمد الثقفىّ — أن يشخص كلّ مَنْ بالعراق من بنى هاشم إلى المدينة خوفا من خروجهم؛ وكتب إلى عامل المدينة أن يحبس قوما منهم ، وأن يعرضهم فى كلّ أسبوع مرة ، ويقيم لهم الكفلاء ؛ على ألا يخرجوا منها ، فقال الفضل بن عبد الرحمن من قصيدة له طويلة :

كلّما حُدِّثوا بأرضٍ نزلنا ضمّنونا السجون أو سيّرونا
أشخصونا إلى المدينة أسرى لا كفاهمْ رَبِّى الذى يحذرونا
حلّموا أحدَ المطىّ فينا بالذى لا يحبّ ، واستضعفونا
قتّلونا بغير ذنب إليهم قاتل الله أمّـــةً قتلونا !
ما رعَوْا حقّنا ولا حفظوا فيـ ـنا وَصاة الإله بالأقربينا
جعلونا أدنى عدوٍّ إليهمْ فهمُ فى دمائنا يَسْبَحُونا
أنكَرُوا حقّنا وجارُوا علينا وعلى غيرِ إحنةٍ أبغضُونا
غيرَ أنّ النبىّ مِنّا وأنّا لم نزل فى صلاتهم راغبينا
إن دَعَوْنا إلى الهُدَى لم يجيبو نا ، وكانوا عن الهُدَى نا كبينا
أو أمرنا بالعُرْف لم يسمعوا مـــنّا وردّوا نصيحةَ الناصحينا
ولقِدْمًا ما رُدَّ نُصحُ ذَوى الرأ ىِ فلم يتّبعهمُ الجاهلونا
فعسى الله أن يُبدِل أناسا مِنْ أناس فيصبحُوا ظاهرينا
فتقرّ العيون من قوم سوءٍ قد أخافوا وقتّلوا المؤمنينا

ليت شعرى هل تُوجِفَنّ بى الخيــلُ عليها الكماةُ مستلئمينــا[1]
من بنى هاشمٍ ومنْ كلّ حَىٍّ ينصرون الإسلام مستنصرينا
فى أناسٍ آباؤهم نصروا الدّ ين ، وكانوا لربّهم ناصرينا
تحكم المرهفاتُ فى الهامِ منهم بأكفّ العاشر الثــائرينا[2]
أين قتلَى مِنّا بَغيتمْ عليهم ثمّ قتلتموهمُ ظالمينــا
ارجعوا هاشمــا وردُّوا أبا اليقْ ظان وابنَ البديل فى آخرينا
وارجعوا ذا الشهادتين وقتلَى أنتمُ فى قتالهمْ فاجرونا
ثم ردُّوا حُجْراً وأصحاب حُجْرٍ يومَ أنتمْ فى قتلهمْ معتدُونا
ثم ردُّوا أبا عُمير وردُّوا لى رشيـدا وميثماً والّذينا :
قُتّلوا بالطّفوف يوم حُسَين من بنى هاشم ، وردُّوا حسيْنــاً
أين عمرو ؟ وأين بِشرٌ وقتلَى معهمُ بالعراء مابدفنونا !
ارجعوا عامرا وردُّوا زهيراً ثم عثمانَ ، فارجعوا عازمينا
وارجعوا الحرّ وابن قَينٍ وقوماً قُتّلوا حين جاوزوا صِفّينــــا
وارجعوا هانئاً وردّوا إلينــا مُسلماً والرواع فى آخرينا
ثم ردّوا زيداً إلينا وردّوا كلّ من قد قتلتمُ أجمعينا
لن تردّوهمُ إلينا ولسنا منكمُ غــــيرَ ذلكمْ قابلينا

• • •

---

(١) الكماة : الشجعان : والمستلئم : لابس اللأمة ، وهى الدرع فى الحرب .
(٢) المرهفات : السيوف والهام . الرءوس .

الأصـلُ :

أَلا إِنَّ أَبْصَرَ ٱلْأَبْصَارِ مَا نَفَذَ فِي ٱلْخَيْرِ طَرْفُهُ ! أَلَا إِنَّ أَسْمَعَ ٱلْأَسْمَاعِ مَا وَعَى التَّذْكِيرَ وَقَبِلَهُ !

أَيُّهَا النَّاسُ ، ٱسْتَصْبِحُوا مِنْ شُعْلَةِ مِصْبَاحٍ وَاعِظٍ مُتَّعِظٍ ، وَٱمْتَاحُوا مِنْ صَفْوِ عَيْنٍ قَدْ رُوِّقَتْ مِنَ ٱلْكَدَرِ .

عِبَادَ ٱللهِ ، لَا تَرْكَنُوا إِلَى جَهَالَتِكُمْ ، وَلَا تَنْقَادُوا إِلَى أَهْوَائِكُمْ ؛ فَإِنَّ النَّازِلَ بِهَذَا ٱلْمَنْزِلِ نَازِلٌ بِشَفَا جُرُفٍ هَارٍ ؛ يَنْقُلُ ٱلرَّدَى عَلَى ظَهْرِهِ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ ، لِرَأْيٍ يُحْدِثُهُ بَعْدَ رَأْيٍ ؛ يُرِيدُ أَنْ يُلْصِقَ مَا لَا يَلْتَصِقُ ، وَيُقَرِّبَ مَا لَا يَتَقَارَبُ !

فَٱللهَ ٱللهَ أَنْ تَشْكُوا إِلَى مَنْ لَا يُشْكِي شَجْوَكُمْ ، وَلَا يَنْقُضُ بِرَأْيِهِ مَا قَدْ أَبْرَمَ لَكُمْ .

إِنَّهُ لَيْسَ عَلَى ٱلْإِمَامِ إِلَّا مَا حُمِّلَ مِنْ أَمْرِ رَبِّهِ : ٱلْإِبْلَاغُ فِي ٱلْمَوْعِظَةِ ، وَالِاجْتِهَادُ فِي النَّصِيحَةِ ، وَٱلْإِحْيَاءُ لِلسُّنَّةِ ، وَإِقَامَةُ ٱلْحُدُودِ عَلَى مُسْتَحِقِّيهَا ، وَإِصْدَارُ السُّهْمَانِ عَلَى أَهْلِهَا .

فَبَادِرُوا ٱلْعِلْمَ مِنْ قَبْلِ تَصْوِيحِ نَبْتِهِ ، وَمِنْ قَبْلِ أَنْ تُشْغَلُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ مُسْتَثَارِ ٱلْعِلْمِ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ ، وَٱنْهَوْا عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَتَنَاهَوْا عَنْهُ ، فَإِنَّمَا أُمِرْتُمْ بِالنَّهْيِ بَعْدَ التَّنَاهِي !

• • •

الشَّـرحُ :

هَارَ الجرف يهورُ هَوْراً وهئوراً فهو هائر ؛ وقالوا : « هار » ، خفضوه فى موضع الرفع ، كقاض ، وأرادوا « هائر » ؛ وهو مقلوب من الثلاثى إلى الرباعى ، كما قلبوا « شائك السلاح » إلى « شاكى السلاح » . وهَوَّرته ، فتهور وانهار ، أى انهدم .

وأشكيت زيدا : ازلت شكايته . والشجو : الهمّ والحزن .

وصوّح النبت ، أى جفّ أعلاه ، قال :

ولكنّ البلاد إذا اقشعرت وصوّح نبتها رُعِيَ الهَشِيمُ [1]

يقول عليه السلام: أشدّ العيون إدراكاً مانفذ طرفُها في الخير، وأشدّ الأسماع إدراكاً ما حفظ الموعظة وقبلها .

ثم أمر الناس أن يستصبحوا ، أى يُسرجوا مصابيحهم من شعلة سراج . متعظ في نفسه واعظ لغيره ؛ وروى بالإضافة من « شعلة مصباحِ واعظ » بإضافة « مصباح » إلى « واعظ » ؛ وإنما جعله متعظا واعظا ، لأن مَنْ لم يتعظ في نفسه فبعيد أن يتعظ به غيرُه ؛ وذلك لأن القبول لايحصل منه ، والأنفس تكون نافرةً عنه ، ويكون داخلا في حيّز قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [2]، وفي قول الشاعر :

* لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ [3] *

وعَنَى بهذا المصباح نفسَه عليه السلام .

ثم أمرهم أن يمتاحوا من عين صافية قد انتفى عنها الكدر، كما يروّق الشراب بالراووق فيزول عنه كدره ؛ والامتياح : نزول البئر وملء الدلاء منها ، ويكني بهذا أيضا عن نفسه عليه السلام .

---

(١) لأبي علي البصير ، وقبله :

لَعَمْرُ أَبِيكَ مَا نُسِبَ المُعَلَّى إلى كرمٍ وفي الدُّنيا كَرِيمُ

أمالي القالي ٢ : ٢٨٧

(٢) سورة البقرة ٤٤

(٣) لأبي الأسود الدؤلي ، وعجزه :

* عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ *

والبيت من شواهد المغني ، وانظر شرح شواهد المغني للسيوطي ٢٦٤ .

ثم نهاهم عن الانقياد لأهوائهم والميل إلى جهالتهم ، وقال : إنّ من يكون كذلك ، فإنه على جانب جُرُفٍ متهدّم ؛ ولفظة « هار » من الألفاظ القرآنية[1] .

ثم قال : ومَنْ يكون كذلك ، فهو أيضا ينقل الهلاك على ظهره من موضع إلى موضع ؛ ليُحدِث رأيا فاسدا بعد رأى فاسد ، أى هو ساعٍ فى ضلال يروم أن يحتج لما لاسبيل إلى إثباته ، وينصر مذهبا لاانتصار له .

ثم نهاهم وحذّرهم أن يشكُوا إلى مَنْ لايزيل شِكايتهم ومَنْ لارأى له فى الدين ولا بصيرة . لينقض ماقد أبرمه الشيطان فى صدورهم لإغوائهم . ويروى : « إلى من لايشكى شجوَكم ، ومَنْ ينقض برأيه ماقد أبرم لكم » ؛ وهذه الرواية أليق ، أى لاتشكُوا إلى مَنْ لايدفع عنكم ماتشكون منه ؛ وإنما ينقض برأيه الفاسد ماقد أبرمه الحقّ والشرع لكم .

ثم ذكر أنه ليس على الإمام إلا ماقد أوضحه من الأمور الخمسة .

ثم أمرهم بمبادرة أخذ العلم من أهله — يعنى نفسه عليه السلام — قبل أن يموت ، فيذهب العلم . وتصويح النَّبْت ، كناية عن ذلك .

ثم قال : وقبل أن تشتغلوا بالفتن وما يحدث عليكم من خطوب الدنيا عن استثارة العلم من معدنه واستنباطه من قرارته .

ثم أمرهم بالنهى عن المنكر ، وأن يتناهوا عنه قبل نَهْيِهِ عنه ؛ وقال : إنما النهىُ بعد التناهى .

---

(١) من قوله تعالى فى سورة التوبة ١٠٩ : ﴿ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ .

وفى هذا الموضع إشكال ، وذلك أن لقائل أن يقول : النهى عن المنكر واجب على العدل والفاسق ، فكيف قال : « إنما أمرتم بالنهى بعد التناهى » ؛ وقد روى أن الحسن البصرى قال للشعبى : هلا نهيت عن كذا ؟ فقال : يا أبا سعيد ، إنى أكره أن أقول ما لا أفعل . قال الحسن : غفر الله لك ! وأينا يقول ما يفعل ! ود الشيطان لو ظفر منكم بهذه فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر !

والجواب أنه عليه السلام لم يرد أن وجوب النهى عن المنكر مشروط بانتهاء ذلك الناهى عن المنكر ؛ وإنما أراد : أنى لم آمركم بالنهى عن المنكر إلا بعد أن أمرتكم بالانتهاء عن المنكر ؛ فالترتيب إنما هو فى أمره عليه السلام لهم بالحالتين المذكورتين ؛ لا فى نهيهم وتناهيهم .

فإن قلت : فلماذا قدم أمرهم بالانتهاء على أمرهم بالنهى ؟

قلت : لأن إصلاح المرء نفسه أهم من الاعتناء بإصلاحه لغيره .

(١٠٥)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصْلُ :

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى شَرَعَ الْإِسْلَامَ فَسَهَّلَ شَرَائِعَهُ لِمَنْ وَرَدَهُ . وَأَعَزَّ أَرْكَانَهُ عَلَى مَنْ غَالَبَهُ ؛ فَجَعَلَهُ أَمْناً لِمَنْ عَلِقَهُ ، وَسِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ ، وَبُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ ، وَشَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ عَنْهُ ، وَنُوراً لِمَنِ اسْتَضَاءَ بِهِ ، وَفَهْماً لِمَنْ عَقَلَ ، وَلُبًّا لِمَنْ تَدَبَّرَ ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ ، وَتَبْصِرَةً لِمَنْ عَزَمَ ، وَعِبْرَةً لِمَنِ اتَّعَظَ ، وَنَجَاةً لِمَنْ صَدَّقَ ، وَثِقَةً لِمَنْ تَوَكَّلَ ، وَرَاحَةً لِمَنْ فَوَّضَ ، وَجُنَّةً لِمَنْ صَبَرَ .

فَهُوَ أَبْلَجُ الْمَنَاهِجِ ، وَأَوْضَحُ الْوَلَائِجِ ؛ مُشْرِفُ الْمَنَارِ ، مُشْرِقُ الْجَوَادِّ ، مُضِئُ الْمَصَابِيحِ ، كَرِيمُ الْمِضْمَارِ ، رَفِيعُ الْغَايَةِ ، جَامِعُ الْحَلْبَةِ ، مُتَنَافِسُ السُّبْقَةِ ، شَرِيفُ الْفُرْسَانِ .

التَّصْدِيقُ مِنْهَاجُهُ ، وَالصَّالِحَاتُ مَنَارُهُ ، وَالْمَوْتُ غَايَتُهُ ، وَالدُّنْيَا مِضْمَارُهُ ، وَالْقِيَامَةُ حَلْبَتُهُ ، وَالْجَنَّةُ سُبْقَتُهُ .

* * *

الشَّرْحُ :

هذا باب من الخطابة شريف ؛ وذلك لأنه ناط بكلّ واحدة من اللفظات لفظة تناسبها وتلائمها لو نيطت بغيرها لما انطبقت عليها، ولا استقرّت في قرارها ؛ ألا تراه قال « أمناً لمن علِقه » ! فالأمن مرتّب على الاعتلاق ؛ وكذلك في سائر الفقر كالسلم المرتّب على الدخول، والبرهان المرتّب على الكلام، والشاهد المرتّب على الخصام، والنور المرتّب

على الاستضاءة . . . إلى آخرها ؛ ألا ترى أنه لو قال : « وبرهانا لمن دخله ، ونورا لمن خاصم عنه ، وشاهدا لمن استضاء به » ، لكان قد قرن باللفظة ما لا يناسبها ، فكان قد خرج عن قانون الخطابة ، ودخل في عَيْب ظاهر !

وتوسّم : تفرّس . والولائج : جمع وليجة ، وهو المدخل إلى الوادي وغيره .

والجُنّة : التّرس . وأبلج المناهج : معروف الطريق .

والحَلْبة : الخيل المجموعة للمسابقة .

والمِضْمار : موضع تضمير الخيل، وزمان تضميرها . والغاية : الراية المنصوبة ، وهو هاهنا خِرْقة تجعل على قَصَبة وتنصب في آخر المدَى الذي تنتهي إليه المسابقة ؛ كأنه عليه السلام جعل الإسلام كخيل السباق التي مضمارها كريم ، وغايتها رفيعة عالية ؛ وحَلْبتها جامعة حاوية ، وسُبْقتها متنافس فيها ، وفُرسانها أشراف .

ثم وصفه بصفات أخرى ، فقال : التصديق طريقه ، والصالحات أعلامه ، والموت غايته ؛ أي أنّ الدنيا سِجْن المؤمن ، وبالموت يخلُص من ذلك السجن ، ويحظى بالسعادة الأبدية .

قال : والدنيا مضماره ، كأن الإنسان يجري إلى غاية هي الموت ؛ وإنما جعلها مِضْمار الإسلام ، لأنّ المسلم يقطع دنياه لا لدنياه بل لآخرته ، فالدّنيا له كالمِضْمار للفرس إلى الغاية المعيّنة .

قال : والقيامة حلْبته ، أي ذات حلبته لحذف المضاف، كقوله تعالى : ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ ﴾ أي ذوو درجات .

ثم قال : والجنة سُبْقته ، أي جزاء سُبقته ، لحذف أيضاً .

***

الأصْـل :

منها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله :

حَتَّى أَوْرَى قَبَساً لِقَابِسٍ ، وَأَنَارَ عَلَماً لِحَابِسٍ ، فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ ، وَشَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ ، وَبَعِيثُكَ نِعْمَةً ، وَرَسُولُكَ بِالْحَقِّ رَحْمَةً .

اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَهُ مَقْسَماً مِنْ عَدْلِكَ ، وَاجْزِهِ مُضَعَّفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ . اللَّهُمَّ وَأَعْلِ عَلَى بِنَاءِ الْبَانِينَ بِنَاءَهُ ، وَأَكْرِمْ لَدَيْكَ نُزُلَهُ ، وَشَرِّفْ عِنْدَكَ مَنْزِلَهُ ، وَآتِهِ الْوَسِيلَةَ ، وَأَعْطِهِ السَّنَاءَ وَالْفَضِيلَةَ ، وَاحْشُرْنَا فِي زُمْرَتِهِ ؛ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَادِمِينَ ، وَلَا نَاكِبِينَ ، وَلَا نَاكِثِينَ ، وَلَا ضَالِّينَ ، وَلَا مُضِلِّينَ ، وَلَا مَفْتُونِينَ !

* * *

قال الرضيّ رحمه الله تعالى :

وَقَدْ مَضَى هَذَا الْكَلَامُ فِيمَا تَقَدَّمَ ، إِلَّا أَنَّنَا كَرَّرْنَاهُ هاهنا لِمَا فِي الرِّوَايَتَيْنِ مِنَ الاخْتِلَافِ .

* * *

الشّـرْحُ :

قبسا ، منصوب بالمفعولية ، أى أوْرَى رسول الله صلى الله عليه وآله قَبَساً ، والقَبَس : شعلة من النار ، والقابس : طالب الاستصباح منها . والكلام مجاز ، والمراد الهداية في الدين .

وعلَماً ، منصوب أيضا بالمفعولية ، أى وأنار رسول الله صلى الله عليه وآله علما .

لحابس ، أى نصب لمن قد حَبَس ناقته ـ ضلالا ـ فهو يخبط لا يدرى كيف يهتدى إلى المنهج ـ علما يهتدى به .

فإن قلت : فهل يجوز أن ينصب « قبسا » و « علما » على أن يكون كلّ واحد منهما حالا ، أي حتى أورى رسول الله في حال كونه قبساً وأنار في حال كونه علما ؟

قلت : لم أسمع « أورَى الزند » وإنما المسموع « وَرَى » و « وَرِى » ولم يجىء « أورى » إلا متعديا ، أورى زيد زنده ، فإن حمل هاهنا على التعدّي احتيج إلى حذف المفعول ، ويصير تقديره : حتى أورى رسول الله الزند حال كونه قبساً ، فيكون فيه نوع تكلّف واستهجان .

والبعيث : المبعوث . ومقسما : نصيبا ، وإن جعلته مصدراً جاز .

والنُّزُول : طعام الضيف . والوسيلة : مايتقرب به ، وقد فسر قولهم في دعاء الأذان : « اللهم آته الوسيلة » ، بأنها درجة رفيعة في الجنة . والسّناء بالمد : الشرف . وزمرته : جماعته .

وخزايا : جمع خزيان ، وهو المستحيي ، مثل سكران وسكارى ، وحيران وحيارى ، وغيران وغيارى .

وناكبين ، أي عادلين عن الطريق . وناكثين ، أي ناقضين للعهد .

* * *

قلت : سألتُ النقيب أباجعفر رحمه الله ـ وكان منصفاً بعيداً عن الهوى والعصبية عن هذا الموضع ـ فقلت له : قد وقفت على كلام الصحابة وخُطَبهم فلم أر فيها من يعظّم رسولَ الله صلى الله عليه وآله تعظيمَ هذا الرجل ، ولا يدعو كدعائه ؛ فإنا قد وقفنا من « نهج البلاغة » ومن غيره على فصول كثيرة مناسبة لهذا الفصل ، تدلّ على إجلال عظيم ، وتبجيل شديد منه لرسول الله صلى الله عليه وآله . فقال : ومن أينَ لغيره من الصحابة كلام مدوّن يتعلم منه كيفية ذكرهم النبي صلى عليه وآله ؟ وهل وُجِد لهم إلا كلماتٌ مبتدرة ، لا طائل تحتها ! ثم قال : إن عليا عليه السلام كان قويّ الإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله والتصديق له ، ثابت اليقين ؛ قاطعا بالأمر ، متحققاً له ، وكان

مع ذلك يحبّ رسول الله صلى الله عليه وآله لنسبته منه ، وتربيته له ، واختصاصه به من دون أصحابه . وبعد : فشرفُه له ، لأنهما نفسٌ واحدة في جسمين : الأب واحد ، والدار واحدة ، والأخلاق متناسبة ؛ فإذا عظّمه فقد عظّم نفسه ، وإذا دعا إليه فقد دعا إلى نفسه ، ولقد كان يودّ أنْ تطبّق دعوةُ الإسلام مشارق الأرض ومغاربها ؛ لأن جمال ذلك لاحقٌ به ، وعائد عليه ، فكيف لا يعظّمه ويبجّله ويجتهد في إعلاء كلمته !

فقلت له : قد كنتُ اليوم أنا وجعفر بن مكّي الشاعر نتجاذب هذا الحديث ، فقال جعفر : لم ينصر رسولَ الله صلى الله عليه وآله أحدٌ نُصرة أبي طالب وبنيه له ، أما أبو طالب فكفَلَه وربّاه ، ثم حَماه من قريش عند إظهار الدعوة ، بعد إصفاقهم وإطباقهم على قتله ، وأما ابنه جعفر فهاجَر بجماعة من المسلمين إلى أرض الحبشة ، فنشرَ دعوته بها ، وأما عليّ فإنه أقام عمادَ الملّة بالمدينة ؛ ثم لم يُمْنَ أحدٌ من القتل والهوان والتشريد بما مُنِيَ به بنو أبي طالب ! أما جعفر فقتل يوم مؤتة ، وأما عليّ فقتل بالكوفة بعد أن شرب نقيع الحنظل ، وتمنّى الموت ، ولو تأخر قتلُ ابن ملجم له لمات أسفاً وكمداً ، ثم قُتِل ابناه بالسمّ والسيف ، وقتل بنوه الباقون مع أخيهم بالطفّ ، وحُمِلت نساؤهم على الأقتاب سبَايا إلى الشام ، ولقيت ذرّيتهم وأخلافهم بعد ذلك من القتل والصَّلْب والتشريد في البلاد والهوان والحبس والضرب مالا يحيط الوصف بكنهه ، فأيّ خير أصاب هذا البيت من نصرته ، ومحبته وتعظيمه بالقول والفعل !

فقال رحمه الله ـ وأصاب فيما قال ـ : فهلّا قلت : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1].

ثم قال : وهلّا قلت له : فقد نصرته الأنصار ، وبذلت مُهجَها دونه ، وقتلت بين يديه في

(١) سورة آل عمران ١٦٣

فى مواطن كثيرة ، وخصوصا يوم أحُد ثم اهتضِمُوا بعده ، واستُؤثر عليهم ، ولقوا من المشاقّ والشدائد مايطول شرحه ؛ ولو لم يكن إلا يوم الحرة ، فإنه اليوم الذى لم يكن فى العرب مثله ، ولا أصيب قوم قطّ بمثل ماأصيب به الأنصار ذلك اليوم !

ثم قال : إن الله تعالى زَوَى الدنيا عن صالحى عباده وأهل الإخلاص له ؛ لأنه لم يرها ثمنا لعبادتهم ، ولا كفؤا لإخلاصهم ، وأرجأ جزاءهم إلى دار أخرى غير هذه الدار ؛ فى مثلها يتنافس المتنافسون !

* * *

الأصْلُ :

منها فى خطاب أصحابه :

وَقَدْ بَلَغْتُمْ مِنْ كَرَامَةِ اللهِ تَعَالَى لَكُمْ مَنْزِلَةً تُكْرَمُ بِهَا إِمَاؤُكُمْ، وَتُوصَلُ بِهَا جِيرَانُكُمْ، وَيُعَظِّمُكُمْ مَنْ لَا فَضْلَ لَكُمْ عَلَيْهِ ، وَلَا يَدَ لَكُمْ عِنْدَهُ ، وَيَهَابُكُمْ مَنْ لَا يَخَافُ لَكُمْ سَطْوَةً ، وَلَا لَكُمْ عَلَيْهِ إِمْرَةٌ .

وَقَدْ تَرَوْنَ عُهُودَ اللهِ مَنْقُوضَةً فَلَا تَغْضَبُونَ، وَأَنْتُمْ لِنَقْضِ ذِمَمِ آبَائِكُمْ تَأْنَفُونَ، وَكَانَتْ أُمُورُ اللهِ عَلَيْكُمْ تَرِدُ، وَعَنْكُمْ تَصْدُرُ، وَإِلَيْكُمْ تَرْجِعُ ، فَمَكَّنْتُمُ الظَّلَمَةَ مِنْ مَنْزِلَتِكُمْ ، وَأَلْقَيْتُمْ إِلَيْهِمْ أَزِمَّتَكُمْ ، وَأَسْلَمْتُمْ أُمُورَ اللهِ فِى أَيْدِيهِمْ ، يَعْمَلُونَ بِالشُّبُهَاتِ، وَيَسِيرُونَ فِى الشَّهَوَاتِ. وَايْمُ اللهِ لَوْ فَرَّقُوكُمْ تَحْتَ كُلِّ كَوْكَبٍ، لَجَمَعَكُمُ اللهُ لِشَرِّ يَوْمٍ لَهُمْ !

* * *

الشَّرْحُ :

هذا خطاب لأصحابه الذين أسلموا مدنهم ونواحيهم إلى جيوش معاوية ؛ التى كان

يُغير بها على أطراف أعمال علىٍّ عليه السلام كالأنبار وغيرها ؛ مما تقدّم ذكرنا له ؛ قال لهم : إنّ الله أكرمكم بالإسلام بعد أن كنتم مجوساً أو عبّاد أصنام ، وبلغتم من كرامته إياكم بالإسلام منزلة عظيمة ؛ أُكرم بها إماؤكم وعبيدكم ؛ ومن كان مَظِنّة للمِهْنة والذلّة .

ووصل بها جيرانكم ، أي مَنْ التجأ إليكم من مُعاهَدٍ أو ذِمّيّ ؛ فإنّ الله تعالى حفظ لهم ذمام المجاورة لكم ؛ حتى عصمَ دماءهم وأموالهم ، وصرتم إلى حال يعظّمكم بها مَنْ لافضل لكم عليه ، ولا نعمة لكم عنده ؛ كالروم والحبشة ، فإنهم عظّموا مسلمى العرب لتقمّصهم لباس الإسلام والدين ، ولزومهم ناموسه ، وإظهارهم شعاره .

ويهابكم من لايخاف لكم سطوة ، ولا لكم عليه إمرة ؛ كالملوك الذين فى أقاصى البلاد ؛ نحو الهند والصين وأمثالها ؛ وذلك لأنهم هابوا دولة الإسلام ؛ وإن لم يخافوا سطوة سيفها ؛ لأنه شاع وذاع أنهم قوم صالحون ؛ إذا دعوا الله أستجاب لهم ؛ وأنهم يقهرون الأمم بالنصر السماوىّ وبالملائكة ؛ لا بسيوفهم ولا بأيديهم . قيل : إنّ العرب لما عبرت دِجْلة إلى القصر الأبيض الشرقىّ بالمدائن عبرتها فى أيام مَدّها ، وهى كالبحر الزاخر على خيولها وبأيديها رماحها ، ولا دروع عليها ولا بَيْض ؛ فهربت الفرس بعد رَمْى شديد منها العرب بالسهام ؛ وهم يقدمون ويحملون ؛ ولا تَهولُهم السهام ؛ فقال فلاح نَبَطىّ ، بيده مِسحاته وهو يفتح الماء إلى زرعه لأُسْوار من الأساورة معروف بالبأس وجَوْدة الرماية : ويلكم ! أمِثلُكم فى سلاحكم يهرب من هؤلاء القوم الحاسرين ! ولذعه بالقوم والتعنيف . فقال له : أقم مِسحاتك ، فأقامها فرماها ، فخرق الحديد حتى عبر النصل إلى جانبها الآخر ، ثم قال : انظر الآن ، ثم رمى بعضَ العرب المارّين عليه عشرين سهماً لم يُصِبْه ولا فرسه منها بسهم واحد ؛ وإنه لقريب منه غير بعيد . ولقد كان بعضُ السهام يسقط بين يدى الأُسوار ، فقال له بالفارسية : أعلمت أنّ القوم مصنوع لهم ! قال : نعم .

ثم قال عليه السلام : مالكم لا تغضبون ، وأنتم ترون عهود الله منقوضة ! وإنّ من العجب أن يغضب الإنسان ويأنف من نقض عهد أبيه ، ولا يغضب ولا يأنف لنقض عهود إلٰهه وخالقه !

ثم قال لهم : كانت الأحكام الشرعية إليكم تردُ منى ومن تعليمى إياكم ، وتفقيق لكم ، ثم تصدُر عنكم إلى مَنْ تعلّمونه إياها من أتباعكم وتلامذتكم ، ثم يرجع إليكم بأنْ يعلّمها بنوكم وإخوتكم من هؤلاء الأتباع والتلامذة ؛ ففررتم من الزّحف لما أغارت جيوش الشام عليكم ، وأسلمتم منازلكم وبيوتكم وبلادكم إلى أعدائكم ، ومكّنتم الظلَمة من منزلتكم ؛ حتى حكموا فى دين الله بأهوائهم ، وعمِلوا بالشُّبْهة لا بالحجّة ، وانغمسوا فى شهواتهم ومآرب أنفسهم .

ثم أقسم بالله : إنّ أهل الشام لو فرّقوكم تحت كل كوكب ليجمعنّكم الله ليوم ، وهو شرّ يوم لهم ؛ وكنى بذلك عن ظهور المسوّدة وانتقامها من أهل الشام وبنى أمية ، وكانت المسوّدة المنتقمة منهم عراقية وخراسانية .

(١٠٦)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام فى بعض أيام صفين :

وَقَدْ رَأَيْتُ جَوْلَتَكُمْ ، وَٱنْحِيَازَكُمْ عَنْ صُفُوفِكُمْ ، تَحُوزُكُمُ ٱلْجُفَاةُ ٱلطَّغَامُ ، وَأَعْرَابُ أَهْلِ ٱلشَّامِ ، وَأَنْتُمْ لَهَامِيمُ ٱلْعَرَبِ ، وَيَآفِيخُ ٱلشَّرَفِ ، وَٱلْأَنْفُ ٱلْمُقَدَّمُ ، وَٱلسَّنَامُ ٱلْأَعْظَمُ .

وَلَقَدْ شَفَا وَحَاوِحَ صَدْرِى أَنْ رَأَيْتُكُمْ بِأَخَرَةٍ ، تَحُوزُونَهُمْ كَمَا حَازُوكُمْ ، وَتُزِيلُونَهُمْ عَنْ مَوَاقِفِهِمْ كَمَا أَزَالُوكُمْ؛ حَسًّا بِالنِّصَالِ، وَشَجْرًا بِالرِّمَاحِ؛ تَرْكَبُ أُولَاهُمْ أُخْرَاهُمْ كَالْإِبِلِ ٱلْهِيمِ ٱلْمَطْرُودَةِ؛ تُرْمَى عَنْ حِيَاضِهَا ، وَتُذَادُ عَنْ مَوَارِدِهَا !

* * *

الشرح :

جولتكم : هزيمتكم . فأجمل فى اللفظ ، وكنى عن اللفظ المنفر ، عادلاً عنه إلى لفظ لاتنفير فيه ، كما قال تعالى : ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾[1] ، قالوا : هو كناية عن إتيان الغائط ، وإجمال فى اللفظ .

وكذلك قوله : « وانحيازكم عن صفوفكم » كناية عن الهرب أيضاً ؛ وهو من قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ ﴾[2] .

---

(١) سورة الفرقان ٧
(٢) سورة الأنفال ١٦

وهذا باب من أبواب البيان لطيف ؛ وهو حُسْن التوصّل بإيراد كلام غير مزعج ؛ عوضا عن لفظ يتضمّن جَبْهاً وتقريعا .

وتحوزكم : تعدل بكم عن مراكزكم . والجفاة : جمع جافٍ ؛ وهو القَدْم الغليظ . والطّغام : الأوغاد . واللهاميم : جمع لهموم وهو الجواد من الناس والخيل ، قال الشاعر :

لاتحسبنّ بياضاً فىّ منقصـــــةً إنّ اللهاميم فى أقرابها بَلَقُ[1]

واليآفيخ : جمع يافوخ وهو معظم الشىء ، تقول : قد ذهب يافوخ الليل ، أى أكثره ، ويجوز أن يريد به اليافوخ ، وهو أعلى الرأس ، وجمعه يآفيخ أيضا . وأفختُ الرجُلَ : ضربت يافوخَه ، وهذا أليق ، لأنه ذكر بعده الأنف والسنام ، فجعل اليافوخ على العضو إذا أشبه .

والوحاوح : الحرق والحزازات . والقينه بآخرة على « قَمَلة » أى أخيرا .

والحسّ : القتل ، قال الله تعالى : (إذ تَحُسُّونَهم بإذنِهِ)[2] .

وشجرت زيدا بالرمح : طعنته ، والتأبيث فى « أولام » و « وأخرام » الكتائب .

والهيم : العطاش . وتذاد تصدّ وتمنع ، وقد روى : « الطماة » عوض « الطغام » .

وروى « حشأ » بالهمز من حشأت الرجل أى أصبت حشاه .

وروى « بالنضال » بالضاد المعجمة ، وهو للناضلة والمراماة .

وقد ذكرنا نحن هذا الكلام فيما اقتصصناه من أخبار صِفّين فيما تقدم من هذا الكتاب .

---

(١) اللسان ١٦ : ٢٩ ، من غير نسبة .
(٢) سورة آل عمران ١٥٢

الأصْـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام ، وهى من خطب الملاحم :

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الْمُتَجَلِّي لِخَلْقِهِ بِخَلْقِهِ ، وَالظَّاهِرِ لِقُلُوبِهِمْ بِحُجَّتِهِ ؛ خَلَقَ الْخَلْقَ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ ؛ إِذْ كَانَتِ الرَّوِيَّاتُ لَا تَلِيقُ إِلَّا بِذَوِي الضَّمَائِرِ ؛ وَلَيْسَ بِذِي ضَمِيرٍ فِي نَفْسِهِ . خَرَقَ عِلْمُهُ بَاطِنَ غَيْبِ السُّتُرَاتِ ، وَأَحَاطَ بِغُمُوضِ عَقَائِدِ السَّرِيرَاتِ .

•••



الشّـرْحُ :

الملاحم : جمع ملحمة ؛ وهى الوقعة العظيمة فى الحرب ؛ ولما كانت دلائل إثبات الصانع ظاهرة ظهور الشمس ؛ وصفه عليه السلام بكونه ظهر وتجلى لخلقه ، ودلّهم عليه بخلقه إياهم وإيجاده لهم .

ثم أكد ذلك بقوله : « والظاهر لقلوبهم بحجته » ولم يقل « لعيونهم » لأنه غير مرئىّ ؛ ولكنه ظاهر للقلوب بما أودعها من الحجج الدالة عليه .

ثم نفى عنه الروية والفكر والتمثيل بين خاطرين ؛ ليعمل على أحدهما ، لأن ذلك إنما يكون لأرباب الضمائر والقلوب أولي النوازع المختلفة والبواعث المتضادة .

ثم وصفه بأنّ علمه محيط بالظاهر والباطن والماضى والمستقبل، فقال : إنّ علمه خرق باطن الغيوب المستورة ، وأحاط بالغامض من عقائد السرائر .

•••

منها فى ذكر النبى صلى الله عليه وآله :

اختارَهُ مِنْ شَجَرَةِ الأنبياء ، وَمِشْكَاةِ الضِّياء ، وذُؤابَةِ العَلْيَاء ، وَسُرَّةِ البَطْحاء ، وَمَصَابِيحِ الظُّلْمَةِ ، وَيَنَابِيعِ الحِكْمَةِ .

•••

الشرح

شجرة الأنبياء أولاد إبراهيم عليه السلام ، لأنّ أكثر الأنبياء منهم : والمشكاة : كوّة غير نافذة ؛ يجعل فيها المصباح . والذؤابة . طائفة من شعر الرأس ، وسرّة البطحاء : وسطها ، وبنو كعب بن لؤىّ يفخرون على بنى عامر بن لؤىّ بأنهم سكنوا البطاح ، وسكنت عامر بالجبال المحيطة بمكّة ، وسكن معها بنو فهر بن مالك ، رهط أبى عبيدة ابن الجرّاح وغيره ، قال الشاعر :

فحَلَلْتَ منها بالبطا ح وحَلّ غيرُكَ بالظواهرْ

وقال طريح بن إسماعيل :

أنت ابنُ مُسْلَنطِح البطاح ولم تُطرَقْ عليك الحُنِيّ والوُلُجُ[1]

وقال بعض الطالبيّين :

وأنا ابن مُعتلج البطاح إذا غدا غيرى ، وراح على متون ظواهر

---

(١) قيل فى الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وكان من أخواله . الحنىّ : ما انخفض من الأرض ، والولج : ما اتسع من الأودية ؛ أى لم تسكن بينهما بيخفى حسبك ، والبيت فى معجم البلدان ٢ : ٢١٤ .

يمتر عن ركنها وحطبها كالجفن يُفتح عن سواد الناظر
كحبالها شرفي، ومثل سهولها خُلُقي، ومثل ظبائهن مجاوري

* * *

الأصل :

ومنها :

طَبِيبٌ دَوَّارٌ بِطِبِّهِ ، قَدْ أَحْكَمَ مَرَاهِمَهُ ، وَأَحْمَى مَوَاسِمَهُ ؛ يَضَعُ ذَلِكَ حَيْثُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ ؛ مِنْ قُلُوبٍ عُمْيٍ، وَآذَانٍ صُمٍّ ، وَأَلْسِنَةٍ بُكْمٍ ؛ مُتَتَبِّعٌ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ الْغَفْلَةِ ، وَمَوَاطِنَ الْحَيْرَةِ .

* * *

الشرح :

إنما قال : « دوّار بطبّه » ، لأنّ الطبيب الدوّار أكثر تجربة ، أو يكون عنَى به أنه يدور على مَنْ يعالجه ؛ لأنّ الصالحين يدورون على مرضى القلوب ، فيعالجونهم ويقال : إن المسيح رُئِيَ خارجا من بيت مومسة ، فقيل له : ياسيدنا ، أمثلك يكون هاهنا ! فقال : إنما يأتي الطبيبُ المرضى .

والمرام : الأدوية المركّبة للجراحات والقروح . والمواسم : حدائدُ يُوسَم بها الخيل وغيرها .

ثم ذكر أنه إنما يعالج بذلك مَنْ يحتاج إليه ؛ وهم أولو القلوب العُمْي ، والآذان الصمّ ، والألسنة البكم ، أي الخرس . وهذا تقسيم صحيح حاصر ، لأن الضلال ومخالفة

الحقّ يكون بثلاثة أمور : إما بجهل القلب ، أو بعدم سماع للمواعظ والحجج ، أو بالإمساك عن شهادة التوحيد وتلاوة الذكر ، فهذه أصول الضلال ؛ وأما أفعال المعاصى ففروع عليها .

[فصل فى التقسيم وما ورد فيه من الكلام]

وصحة التقسيم باب من أبواب علم البيان ؛ ومنه قوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾[1] . وهذه قسمةٌ صحيحة ، لأن المكلفين : إما كافر ، أو مؤمن ، أو ذو المنزلة بين المنزلتين، هكذا قسم أصحابنا الآيةَ على مذهبهم فى الوعيد .

وغيرهم يقول : العباد إمّا عاصٍ ظالم لنفسه ، أو مطيعٌ مبادرٌ إلى الخير ، أو مقتصد بينهما .

ومن التقسيم أيضا قوله : ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۞ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۞ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۞ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾[2] ومثل ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[3]، لأنّ الناس عند رؤية البرق بين خائف وطامع .

ووقف سائل على مجلس الحسن البصرىّ ، فقال : رحم الله عبدا أعطى من سَعَة ، أو واسَى من كفاف ، أو آثر من قِلّة ! فقال الحسن : لم تترك لأحدٍ عذراً .

---

(١) سورة فاطر ٣٢
(٢) سورة الواقعة ٧ ــ ١٠
(٣) سورة الرعد ١٢

ومن التقسيمات الفاسدة في الشعر قول البحتري :

ذاكَ وادي الأَراكِ فاحْبِسْ قليلًا مُقْصِراً في مَلامَةٍ أو مُطِيلاَ (١)

قفْ مَشُوقاً، أو مُسْعِداً، أو حزينا أو معينا، أو عاذراً، أو عذولا

فالتقسيم في البيت الأول صحيح، وفي الثاني غير صحيح، لأنَّ المشوق يكون حزينا، والمسعد يكون معينا؛ فكذلك يكون عاذرا، ويكون مشوقا، ويكون حزينا.

وقد وقع المتنبي في مثل ذلك، فقال :

فافخر، فإنَّ الناس فيك ثلاثة مستعظِمٌ أو حاسدٌ أو جاهلُ (٢)

فإن المستعظم يكون حاسدا، والحاسد يكون مستعظما.

ومن الأبيات التي ليس تقسيمها بصحيح، ما ورد في شعر الحماسة :

وأنتَ امرؤٌ إمَّا ائتمنتُك خاليا فخنتَ، وإما قلت قولا بلا عِلْمِ (٣)

فأنتَ من الأمر الذي قد أتيته بمنزلة بين الخيانة والإثم

وذلك لأنَّ الخيانة أخصّ من الإثم، والإثم شامل لها، لأنه أعمّ منها، فقد دخل أحد القسمين في الآخر. ويمكن أنْ يعتذر له، فيقال: عَنَى بالإثم الكذبَ نفسه، وكذلك هو المعنى أيضا بقوله: «قولا بلا علم»، كأنه قال له: إماأن أكونَ أفشيت سرى إليك فخنتني، أو لم أفش فكذبت عَلَى، فأنت فيما أتيتَ بين أن تكونَ خائنا أو كاذبا.

ومما جاء من ذلك في النثر قول بعضهم: «من جريح مضرّج بدمائه، أو هارب لا يلتفت إلى ورائه»، وذلك أنَّ الجريح قد يكون هاربا، والهارب قد يكون جريحا.

وقد أجاد البحتري لما قسّم هذا المعنى، وقال :

(١) ديوانه ٢ : ٢١٠

(٢) ديوانه ٣ : ٢٥٩

(٣) لعبد الله بن همام السلولي، حماسة أبي تمام بشرح المرزوقي ٣ : ١١٣٩

غادرتْهمْ أيدي المنيّة صُبْحاً   لقِنًا بين رُكّعٍ وسجودِ
فهمُ فرقتانِ : بين قتيـــــلِ   قبضت نفسَه بحدّ الحديد
أو أسيرٍ غــــدا له السجن لحْداً   فهو حيٌّ في حالة الملحودِ
فرقة للسيوف ينفـذ فيهـــا الـ   ـحُكْمُ قسْراً وفرقةٌ للقيود

ومن ذلك قول بعض الأعراب : النِّعم ثلاث : نعمة في حال كونها، ونعمة ترجَّى مستقبلة، ونعمة تأتي غير محتَسبة ، فأبْقى اللهُ عليك ما أنتَ فيه ، وحقّق ظنّك فيما ترتجيه ، وتفضّل عليك بما لم تحتسبه. وذلك أنه أغفل النعمة الماضية . وأيضاً فإنّ النعمةَ التي تأتي غير محتَسبة داخلة في قِسْم النعمة المستقبلة .

وقد صحح القسمة أبو تمام ، فقال :

جُمعتْ لنا فِرَقُ الأماني منكمُ   بأبرَّ من رُوح الحياة وأوصل[1]
كالمُزن من ماضي الرّباب ومقبلٍ   متنظَّرٍ ومخيِّمٍ متهلّل
فصنيعةٌ في يومها وصنيعةٌ   قد أحولَتْ ، وصنيعةٌ لم تحول

***

فإنْ قلت : فإن ما عِبْتَ به فساد التقسيم على البحتري والمتنبي بإزائك مثله فيما شرحته ، لأنَّ الأعمى القلب قد يكون أبـكم اللسان ، أصمَّ السمع .

قلت : إن الشاعرين ذكرا التقسيم بـ « أوْ » ، وأميرُ المؤمنين عليه السلام قسّم بالواو والواو للجمع ، فغيرُ منكَرٍ أنْ تجتمع الأقسام الوحد ، أو أن تعطى معنى الانفراد فقط ، فافترق الموضعان .

***

(١) ديوانه ٣ : ٤١ ، وهناك البيت الثالث قبل الثاني .

الأصلُ :

لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِأَضْوَاءِ الْحِكْمَةِ ؛ وَلَمْ يَقْدَحُوا بِزِنَادِ الْعُلُومِ الثَّاقِبَةِ ؛ فَهُمْ فِي ذٰلِكَ كَالأَنْعَامِ السَّائِمَةِ ، وَالصُّخُورِ الْقَاسِيَةِ ؛ قَدِ انْجَابَتِ السَّرَائِرُ لِأَهْلِ الْبَصَائِرِ ؛ وَوَضَحَتْ مَحَجَّةُ الْحَقِّ لِخَابِطِهَا ، وَأَسْفَرَتِ السَّاعَةُ عَنْ وَجْهِهَا ، وَظَهَرَتِ الْعَلَامَةُ لِمُتَوَسِّمِهَا .

مَالِي أَرَاكُمْ أَشْبَاحاً بِلَا أَرْوَاحٍ ، وَأَرْوَاحاً بِلَا أَشْبَاحٍ ، وَنُسَّاكاً بِلَا صَلَاحٍ ، وَتُجَّاراً بِلَا أَرْبَاحٍ ، وَأَيْقَاظاً نُوَّماً ، وَشُهُوداً غُيَّباً ، وَنَاظِرَةً عَمْيَاءَ ، وَسَامِعَةً صَمَّاءَ ، وَنَاطِقَةً بَكْمَاءَ !

• • •



الشرحُ :

انجابت : انكشفت . والمحجة : الطريق ، والخابط : السائر على غير سبيل واضحة . وأسفرت الساعة : أضاءت وأشرقت ، وعن متعلقة بمحذوف ، وتقديره : كاشفة عن وجهها .

والمتوسِّم : المتفرِّس . أشباحا بلا أرواح ، أى أشخاصا لا أرواح لها ولا عقول ، وأرواحا بلا أشباح ؛ يمكن أن يريد به الخفة والطيش ، تشبيها بروح بلا جسد . ويمكن أن يعنى به نقصهم ، لأن الروح غير ذات الجسد ناقصة عن الأعمال والتحريك اللذين كانا من فعلها حيث كانت تدبر الجسد .

ونسّاكا بلا صلاح : نسبهم إلى النفاق . وتجارا بلا أرباح : نسبهم إلى الرياء وإيقاع الأعمال على غير وجهها .

ثم وصفهم بالأمور المتضادة ظاهرا ، وهى مجتمعة فى الحقيقة ، فقال : أيقاظا نوّماء

لأنهم أولو يقظة ؛ وهم غفول عن الحق كالنيام ، وكذلك باقيها ، قال تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَـٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (١) .

***

الأصْلُ:

رَايَةُ ضَلَالٍ قَدْ قَامَتْ عَلَى قُطْبِهَا ، وَتَفَرَّقَتْ بِشُعَبِهَا ، تَكِيلُكُمْ بِصَاعِهَا ، وَتَخْبِطُكُمْ بِبَاعِهَا ، قَائِدُهَا خَارِجٌ مِنَ الْمِلَّةِ ، قَائِمٌ عَلَى الضِّلَّةِ ؛ فَلَا يَبْقَى يَوْمَئِذٍ مِنْكُمْ إِلَّا ثُفَالَةٌ كَثُفَالَةِ الْقِدْرِ ، أَوْ نُفَاضَةٌ كَنُفَاضَةِ الْعِكْمِ ، تَعْرُكُكُمْ عَرْكَ الْأَدِيمِ ، وَتَدُوسُكُمْ دَوْسَ الْحَصِيدِ ، وَتَسْتَخْلِصُ الْمُؤْمِنَ مِنْ بَيْنِكُمُ اسْتِخْلَاصَ الطَّيْرِ الْحَبَّةَ الْبَطِينَةَ مِنْ بَيْنِ هَزِيلِ الْحَبِّ .



الشّرْحُ:

هذا كلام منقطع عمّا قبله ، لأن الشريف الرضيّ رحمه الله كان يلتقط الفصول التي في الطبقة العليا من الفصاحة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام فيذكرُها ، ويتخطّى ما قبلها وما بعدها ، وهو عليه السلام يذكر هاهنا ما يحدُث في آخر الزمان من الفتن ، كظهور السفيانيّ وغيره .

والقطب في قوله عليه السلام : « قامت على قطبها » : الرئيس الذى عليه يدور أمرُ الجيش . والشُّعب : القبيلة العظيمة ، وليس التفرق للراية نفسها ، بل لنصارها وأصحابها، فحذف المضاف ، ومعنى تفرّقهم ، أنهم يدعون إلى تلك الدعوة المخصوصة فى بلاد متفرقة، أى تفرق ذلك الجمع العظيم فى الأقطار ، داعين إلى أمر واحد . ويروى « بشَتَتِها » جمع شَتّة .

---

(١) سورة الحج ٤٦ .

وتقدير : « تكيلكم بصاعها » تكيل لكم ، فحذف اللام ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ ﴾(١) ، أي كالوا لهم ، أو وزنوا لهم ؛ والمعنى تحملكم على دينها ودعوتها ، وتعاملكم بما يعامل به من استجاب لها . ويجوز أن يريد بقوله : « تكيلكم بصاعها » يقهركم أربابها على الدخول في أمرهم ، ويتلاعبون بكم ، ويرفعونكم ويضعونكم كما يفعل كيّال البُرّ به إذا كاله بصاعه .

وتخبطكم بباعها : تظلمكم وتعسفكم ، قائدها ليس على ملَّة الإسلام بل مقيم على الضلالة ، يقال : ضلّة لك ، وإنه ليلومني ضلّةً ، إذا لم يوفّق الرشاد في عَذْله .

والثفالة : ماثفل في القدْر من الطبيخ . والنُّفاضة : ماسقط من الشيء المنفوض .

والعِكْم : العِدْل ، والعِكْم أيضاً نمطٌ تجعل فيه المرأة ذخيرتها .

وعركت الشيء : دلكته بقوة . والحصيد : الزرع المحصود .

وممّى استخلاص الفتنة المؤمن أنها تحمّه بمكابتها وأذاها ؛ كما قيل : المؤمن مُلَقّى والكافر موقّى ، وفي الخبر المرفوع : « آفات الدنيا أسرعُ إلى المؤمن من النار في يَبِيس العَرْفَج » .

* * *

الأصل :

أَيْنَ تَذْهَبُ بِكُمُ ٱلْمَذَاهِبُ ، وَتَتِيهُ بِكُمُ ٱلْغَيَاهِبُ ، وَتَخْدَعُكُمُ ٱلْكَوَاذِبُ ؟ وَمِنْ أَيْنَ تُؤْتَوْنَ ، وَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ! فَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ، وَلِكُلِّ غَيْبَةٍ إِيَابٌ . فَاسْتَمِعُوا مِنْ رَبَّانِيِّكُمْ ، وَأَحْضِرُوهُ قُلُوبَكُمْ ، وَاسْتَيْقِظُوا إِنْ هَتَفَ بِكُمْ .

---

(١) سورة المطففين ٣

وَلْيَصْدُقْ رَائِدٌ أَهْلَهُ ، وَلْيَجْمَعْ شَمْلَهُ ، وَلْيُحْضِرْ ذِهْنَهُ ؛ فَلَقَدْ فَلَقَ لَكُمُ الْأَمْرَ فَلْقَ الْخَرَزَةِ ، وَقَرَفَهُ قَرْفَ الصَّمْغَةِ .

* * *

الشرح :

الغياهب : الظلمات ، الواحد غَيْهب . وتتيه بكم : تجعلكم تائهين ، عدّى الفعل اللازم بحرف الجر ، كما تقول في ذهب : ذهبت به . والتائه : المتحير .

والكواذب هاهنا : الأمانيّ ، لحذف الموصوف وأبقى الصفة كقوله :

* إلاّ بكَفَّيْ كانَ منْ أرْمَى البشر *

أي بكفّي غلام هذه صفته .

وقوله : « ولكل أجل كتاب » أظنه منقطعاً أيضاً عن الأول مثل الفصل الذي تقدم ؛ وقد كان قبله ما ينطبق عليه ويلتئم معه لا محالة . ويمكن على بعد أن يكون متصلا بما هو مذكور هاهنا .

وقوله « ولكل غيبة إياب » قد قاله عَبيد بن الأبرص ، واستثنى من العموم الموت ، فقال :

وكلُّ ذي غَيْبَةٍ يئوبُ وغائب الموت لا يئوبُ [1]

وهو رأي زنادقة العرب ؛ فأمّا أمير المؤمنين ، وهو ثاني صاحب الشريعة التي جاءت بعوْد الموتى ، فإنه لا يستثنى ، ويحقق عبيدا في استثنائه .

والربانيّ : الذي أمرهم بالاستماع منه ؛ إنما يعني به نفسه عليه السلام ، ويقال : رجل

---

(١) ديوانه ١٣

ربانيّ أي متألّه عارف بالربّ سبحانه . وفي وصف الحسَن لأمير المؤمنين عليه السلام : « كان والله ربانيّ هذه الأمة وذا فضلها ، وذا قرابتها ، وذا سابقتها » .

ثم قال : وأحضروه قلوبكم ، أي اجعلوا قلوبكم حاضرةً عنده ، أي لا تقنعوا لأنفسكم بحضور الأجساد وغيبة القلوب ، فإنكم لا تنتفعون بذلك : وهتف بكم صاحٍ ، والرائد : الذي يتقدّم المنتجعين لينظر لهم الماء والكلأ . وفي المثل : الرائد لا يكذب أهله .

وقوله : « وليجمع شمله » أي وليجمع عزائمه وأفكاره لينظر ؛ فقد فَلَق هذا الربانيّ لكم الأمر ، أي شقّ ما كان مبهماً ، وفتح ما كان مغلقاً ، كما تفلق الخرزة فيعرف باطنها .

وقرفه ، أي قشره ، كما تقشر الصمغة عن عود الشجرة ، وتقلع .



الأمثال :

فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذَ الْبَاطِلُ مَآخِذَهُ ، وَرَكِبَ الْجَهْلُ مَرَاكِبَهُ ؛ وَعَظُمَتِ الطَّاغِيَةُ ، وَقَلَّتِ الدَّاعِيَةُ ، وَصَالَ الدَّهْرُ صِيَالَ السَّبُعِ الْعَقُورِ ، وَهَدَرَ فَنِيقُ الْبَاطِلِ بَعْدَ كُظُومٍ ، وَتَوَاخَى النَّاسُ عَلَى الْفُجُورِ ، وَتَهَاجَرُوا عَلَى الدِّينِ ، وَتَحَابُّوا عَلَى الْكَذِبِ ، وَتَبَاغَضُوا عَلَى الصِّدْقِ . فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ الْوَلَدُ غَيْظاً ؛ وَالْمَطَرُ قَيْظاً ، وَتَفِيضُ اللِّئَامُ فَيْضاً ، وَتَغِيضُ الْكِرَامُ غَيْضاً ، وَكَانَ أَهْلُ ذَلِكَ الزَّمَانِ ذِئَاباً ، وَسَلَاطِينُهُ سِبَاعاً ، وَأَوْسَاطُهُ أُكَّالاً ، وَفُقَرَاؤُهُ أَمْوَاتاً ، وَغَارَ الصِّدْقُ ، وَفَاضَ الْكَذِبُ ، وَاسْتُعْمِلَتِ الْمَوَدَّةُ بِاللِّسَانِ ، وَتَشَاجَرَ النَّاسُ بِالْقُلُوبِ ، وَصَارَ الْفُسُوقُ نَسَباً ، وَالْعَفَافُ عَجَباً ، وَلُبِسَ الْإِسْلَامُ لُبْسَ الْفَرْوِ مَقْلُوباً .

* * *

الشَّرح :

تقول : أخذ الباطل مأخذه ، كما تقول عمل عمله ؛ أي قوى سلطانه وقهر ؛ ومنه « ركب الجهل مراكبه » .

وعظمت الطاغية ، أي الطغيان ، فاعلة بمعنى المصدر ، كقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾[1] ، أي تكذيب ، ويجوز أن تكون الطاغية هاهنا صفة فاعل محذوف ، أي عظمت الفئة الطاغية . وقلت الداعية مثله ، أي الفرقة الداعية .

وصال : حمل ووثب ، صَوْلا وصَوْلَةً ، يقال : ربَّ قول أشدُّ من صَوْل ، والصِّيال والمصاولة هي المواثبة ، صايله صِيالا وصيالةً ، والفحلان يتصاولان ، أي يتواثبان .

والفنيق : فحل الإبل . وهدَرَ : ردّدَ صوته في حَنْجَرته ، وإبل هوادر ؛ وكذلك هدّر بالتشديد تهديرا ، وفي المثل : « هو كالمهدر في العُنّة » يضرب للرجل يصيح ويجلب وليس وراءذلك شيء كالبعير الذي يُحبَس في العنة ؛ وهي الحظيرة ، ويمنَع من الضِّراب ، وهو يهدر ، وقال الوليد بن عقبة لمعاوية :

قطَعْتَ الدَّهْرَ كالسَّدِمِ المعَنَّى ... تُهدِّرُ في دمشقَ ولا تَرِيمُ[2]

والكُظوم : الإمساك والسكوت ، كَظَم البعير يكظِم كظوما ، إذا أمسك الجِرّة ؛ وهو كاظم ، وإبل كُظُوم لا تجترّ ، وقوم كُظَّم ساكتون .

وتواخى الناس : صاروا إخوة ، والأصل تآخى الناس ، فأبدلت الهمزة واوا ، كآزرته أي أعنته ، ووازرته .

يقول : اصطلحوا على الفجُور ، وتهاجروا على الدين ، أي تعادَوْا وتقاطعوا .

فإن قلت : فإنّ من شعار الصالحين أن يهجُروا في الدين ويعادوا فيه !

---

(١) سورة الواقعة ٢

(٢) اللسان ١٥ : ١٧٦ ، وقال : « السدم الذي يرغب عن فحله ، فيحال بينه وبين ألافه ، ويقيد إذا هاج ، فيرعى حوالي الدار » .

قلت : لم يذهب أميرُ المؤمنين حيث ظننْتَ ، وإنما أراد أنّ صاحب الدين مهجور عندهم ، لأنّ صاحب الدين مهجور وصاحب الفجور جارٍ عندهم مجرى الأخ في المغلوّ عليه؛ والحبّ له ، لأنه صاحب فجور .

ثم قال : « كان الولد غيظاً » ، أى لكثرة عقوق الأبناء للآباء ، « وصار المطر قيظاً» يقال إنه من علامات الساعة وأشراطها .

وأوساطهُ أكّالاً ؛ أى طعاماً ، يقال: ماذقتُ أكالا ؛ وفي هذا الموضع إشكال ؛ لأنه لم يُنقل هذا الحرف إلا في المجرّد خاصة ، كقولهم: مابها صافر ، فالأجود الرواية الأخرى؛ وهي « آكالا» بمد الهمزة على «أفعال» جمع أُكْل؛ وهو ما أُكل ، كقُفْل وأقفال . وقد روى « أُكّالاً » بضم الهمزة على «فُعّال» ؛ وقالوا : إنه جمع « آكل »مثل كافر وكُفّار ، وعُراق ، وظِئْر وظُؤار، إلا أنه شاذ عن القياس ، ووزن واحدها مخالف لوزن واحد « أكال » لو كان جمعا ، يقول: صار أوساط الناس طُعمة لولاة وأصحاب السلاطين ، كالفريسة للأسد.

وغار الماء : سفل لنقصه ، وفاض : سال .

وتشاجر الناس : تنازعوا وهى المشاجرة ، وشجّر بين القوم ؛ إذا اختلف الأمر بينهم ، واشتجروا ؛ مثل تشاجروا .

وصار الفسوق نسبا يصير الفاسق صديق الفاسق ؛ حتى يكون ذلك كالنسب بينهم؛ وحتى يعجب الناس من العفاف ؛ لقلّته وعدمه .

ولُبس الإسلام لبس الفرو ؛ والعرب عادة بذلك ؛ وهى أن تجعل الخمل إلى الجسد؛ وتظهر الجلد ؛ والمراد انعكاس الأحكام الإسلامية فى ذلك الزمان .

(١٠٨)

الأصـل:

ومن خطبة له عليه السلام:

كُلُّ شَيْءٍ خَاشِعٌ لَهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَائِمٌ بِهِ؛ غِنَى كُلِّ فَقِيرٍ، وَعِزُّ كُلِّ ذَلِيلٍ، وَقُوَّةُ كُلِّ ضَعِيفٍ، وَمَفْزَعُ كُلِّ مَلْهُوفٍ.

مَنْ تَكَلَّمَ سَمِعَ نُطْقَهُ، وَمَنْ سَكَتَ عَلِمَ سِرَّهُ، وَمَنْ عَاشَ فَعَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَمَنْ مَاتَ فَإِلَيْهِ مُنْقَلَبُهُ.

لَمْ تَرَكَ الْعُيُونُ فَتُخْبِرَ عَنْكَ؛ بَلْ كُنْتَ قَبْلَ الْوَاصِفِينَ مِنْ خَلْقِكَ.

لَمْ تَخْلُقِ الْخَلْقَ لِوَحْشَةٍ، وَلَا اسْتَعْمَلْتَهُمْ لِمَنْفَعَةٍ، وَلَا يَسْبِقُكَ مَنْ طَلَبْتَ، وَلَا يُفْلِتُكَ مَنْ أَخَذْتَ، وَلَا يَنْقُصُ سُلْطَانَكَ مَنْ عَصَاكَ، وَلَا يَزِيدُ فِي مُلْكِكَ مَنْ أَطَاعَكَ، وَلَا يَرُدُّ أَمْرَكَ مَنْ سَخِطَ قَضَاءَكَ، وَلَا يَسْتَغْنِي عَنْكَ مَنْ تَوَلَّى عَنْ أَمْرِكَ.

كُلُّ سِرٍّ عِنْدَكَ عَلَانِيَةٌ، وَكُلُّ غَيْبٍ عِنْدَكَ شَهَادَةٌ.

أَنْتَ الْأَبَدُ فَلَا أَمَدَ لَكَ، وَأَنْتَ الْمُنْتَهَى فَلَا مَحِيصَ عَنْكَ، وَأَنْتَ الْمَوْعِدُ فَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ.

بِيَدِكَ نَاصِيَةُ كُلِّ دَابَّةٍ، وَإِلَيْكَ مَصِيرُ كُلِّ نَسَمَةٍ.

سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ شَأْنَكَ! سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ مَا نَرَى مِنْ خَلْقِكَ! وَمَا أَصْغَرَ عَظِيمَهُ فِي جَنْبِ قُدْرَتِكَ! وَمَا أَهْوَلَ مَا نَرَى مِنْ مَلَكُوتِكَ! وَمَا أَحْقَرَ ذَلِكَ فِيمَا غَابَ عَنَّا مِنْ سُلْطَانِكَ! وَمَا أَسْبَغَ نِعَمَكَ فِي الدُّنْيَا، وَمَا أَصْغَرَهَا فِي نِعَمِ الْآخِرَةِ!

***

الشَّرْحُ :

قال : كلّ شيء خاضع لعظمة الله سبحانه ، وكلّ شيء قائم به ، وهذه هي صفته الخاصة ، أعني كونه غنيا عن كلّ شيء ، ولا شيء من الأشياء يغني عنه أصلا .

ثم قال : «غنى كلّ فقير ، وعز كلّ ذليل ، وقوة كلّ ضعيف ، ومفزع كلّ ملهوف» . جاء في الأثر : من اعتزّ بغير الله ذلّ ، ومن تكثّر بغير الله قلّ ؛ وكان يقال : ليس فقيرا من استغنى بالله . وقال الحسن : واعجباً لوط نبيّ الله ! قال : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [1] ، أتراه أراد ركنا أشدّ وأقوى من الله !

واستدلّ العلماء على ثبوت الصانع سبحانه بما دلّ عليه فحوى قوله عليه السلام : « ومفزع كلّ ملهوف » ، وذلك أنّ النفوس ببدائهها تفزع عند الشدائد والخطوب الطارقة إلى الالتجاء إلى خالقها وبارئها ، ألا ترى راكبي السفينة عند تلاطم الأمواج، كيف يجأرون إليه سبحانه اضطرارا لا اختيارا ، فدلّ ذلك على أنّ العلم به مركوز في النفس ؛ قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [2] .

ثم قال عليه السلام : « من تكلّم سمع نطقه ، ومن سكت علم سرّه » ، يعني أنه يعلم ما ظهر وما بطن .

ثم قال : « ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبُه » ، أي هو مدبّر الدنيا والآخرة ، والحاكم فيهما .

ثم انتقل من الغيبة إلى الخطاب ، فقال « لم ترك العيون » .

---

(١) سورة هود ٨٠ .

(٢) سورة الإسراء ٦٧

[فصل في الكلام على الالتفات]

واعلم أنّ باب الانتقال من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة باب كبيرٌ من أبواب علم البيان ، وأكثر ما يقع ذلك إذا اشتدت عناية المتكلّم بذلك المعنى المنتقل إليه، كقوله سبحانه : ﴿ الحمد لله ربّ العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدّين ﴾ فأخبر عن غائب ، ثم انتقل إلى خطاب الحاضر فقال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، قالوا : لأنّ منزلة الحمد دون منزلة العبادة ، فإنك تحمد نظيرك ولا تعبده ، فجعل الحمد للغائب وجعل العبادة لحاضر يخاطب بالكاف ؛ لأنّ كاف الخطاب أشدّ تصريحا به سبحانه من الإخبار بلفظ الغيبة . قالوا : ولما انتهى إلى آخر السورة ، قال : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ فأسند النعمة إلى مخاطب حاضر ، وقال في الغضب : ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ ، فأسنده إلى فاعل غير مسمّى ولا معيّن ، وهو أحسن من أن يكون قال : « لم تغضب عليهم » ، وفي النعمة : « الذين أنعم عليهم » .

ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾ فأخبر بـ « قالوا » عن غائبين ، ثم قال : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ [1] ، فأتى بلفظ الخطاب استعظاما للأمر كالمنكر على قوم حاضرين عنده .

ومن الانتقال عن الخطاب إلى الغيبة قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ .. ﴾ [2] الآية .

* * *

(١) سورة مريم ٨٨ ، ٨٩

(٢) سورة يونس ٢٢

وفائدة ذلك أنه صرف الكلام من خطاب الحاضرين إلى إخبار قوم آخرين بحالهم، كأنه يعدّد على أولئك ذنوبهم ويشرح لهؤلاء بغيهم وعنادهم الحق، ويقبّح عندهم مافعلوه، ويقول: ألا تعجبون من حالهم كيف دعونا، فلمّا رحمناهم، واستجبنا دعاءهم، عادوا إلى بغيهم! وهذه الفائدة لوكانت الآية كلّها على صيغة خطاب الحاضر مفقودة.

* * *

قال عليه السلام: مارأتك العيون فتخبر عنك، كما يخبر الإنسان عما شاهده؛ بل أنت أزليّ قديم موجود قبل الواصفين لك.

فإن قلت: فأيّ منافاة بين هذين الأمرين؛ أليس من الممكن أن يكون سبحانه قبْل الواصفين له، ومع ذلك يدرك بالأبصار إذا خلق خلقه، ثم يصفونه رأى عين!

قلت: بل هاهنا منافاة ظاهرة، وذلك لأنه إذا كان قديما لم يكن جِسْماً ولا عَرَضاً، وماليس بجسم ولا عَرَض تستحيل رؤيته، فتستحيل أن يخبر عنه على سبيل المشاهدة.

ثم ذكر عليه السلام أنه لم يخلق الخلق لاستيحاشه وتفرّده، ولا استعملهم بالعبادة لنفعه؛ وقد تقدم شرح هذا.

ثم قال: لاتطلب أحداً فيسبقك، أي يفوتك، ولا يفلتك من أخذته.

فإن قلت: أيّ فائدة في قوله: «ولا يفلتك من أخذته»، لأن عدم الإفلات هو الأخذ، فكأنّه قال: لايفلتك من لم يفلتك!

قلت: المراد أنّ مَنْ أخذت لايستطيع أن يُفْلِت، كما يستطيع المأخوذون مع ملوك الدنيا أن يفلِتوا بحيلة من الحِيَل.

فإن قلت: أفلتَ فعل لازم، فما باله عدّاه؟

قلت: تقدير الكلام: «لا يفلت منك» فحذف حرف الجر كما قالوا: «استجبتك» أي استجبت لك، قال:

* فلم يستجبه عند ذاك مجيب[1] *

وقالوا : استغفرت الله الذنوب ، أى من الذنوب ، وقال الشاعر :

أستغفرُ اللهَ ذنباً لست محصيَه   ربُّ العباد إليه الوجهُ والعملُ

قوله عليه السلام : « ولا يردّ أمرَك مَنْ سَخِط قضاءك ، ولا يستغنى عنك مَنْ تولّى من أمرك » ، تحته سر عظيم ، وهو قول أصحابنا فى جواب قول المجْبِرة : لو وقع منّا مالا يريده لاقتضى ذلك نقصه : إنه لانقص فى ذلك ، لأنه لايريد الطاعات منّا إرادة قهْر وإلجاء ، ولو أرادها إرادة قهر لوقعتْ وغلبتْ إرادته إرادتنا ، ولكنّه تعالى أراد منّا أن نفعل نحن الطاعة اختيارا ، فلا يدلّ عدم وقوعها منّا على نقصه وضعفه ، كما لايدلّ بالاتفاق بيننا وبينكم عدمُ وقوع ما أمر به على ضعفه ونقصه .

ثم قال عليه السلام : « كلّ سرّ عندك علانية » ، أى لايختلف الحال عليه فى الإحاطة بالجهر والسرّ ، لأنه عالم لذاته ونسبة ذاته إلى كلّ الأمور واحدة .

ثم قال : « أنت الأبد فلا أمدَ لك » ، هذا كلام عُلْوِىّ شريف ، لايفهمه إلا الراسخون فى العلم ، وفيه سِمَة من قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : « لاتسبّوا الدهر ، فإن الدهر هو الله » ؛ وفى مناجاة الحكماء لمحة منه أيضا ، وهو قولهم : « أنت الأزل السرْمد، وأنت الأبد الذى لاينفد » ، بل قولهم : « أنت الأبد الذى لاينفد » ، هو قوله : « وأنت الأبد فلا أمدَ لك » ، بعينه ، ونحن نشرحه هاهنا على موضوع هذا الكتاب، فإنه كتاب أدب لاكتاب نظر ، فنقول : إن له فى العربية محملَيْن : أحدهما أنّ المراد به : أنت ذو الأبد ، كما قالوا : رجل خالٍ ، أى ذو خالٍ ؛ والخال الخُيَلاء ، ورجل داء ، أى به داء ، ورجل

---

(١) صدره :

* وداعٍ دَعَا يَامَنْ يجيبُ إلى النّدَى *

أمالى القالى ٢ : ١٥١ ، من قصيدة لكعب بن سعد الغنوى يرثى بها أبا المغوار .

مال ، أى ذو مال . والمحمل الثانى ، أنه لما كان الأزل والأبد لا ينفكّان عن وجوده سبحانه جعله عليه السلام ، كأنه أحدهما بعينه ، كقولهم : أنتِ الطلاق ؛ لما أراد البالغة فى البينونة جعلها كأنها الطلاق نفسه ، ومثله قول الشاعر :

* فإن المندّى رِحْلَةٌ فَرُكوب [1] *

وقال أبو الفتح فى " الدمشقيات " استدلّ أبو علىّ على صرف « مِنًى » للموضع المخصوص ، بأنه مصدر « منى يمنى » ، قال : فقلت له : أتستدلّ بهذا على أنه مذكر لأن المصدر إلى التذكير ؟ فقال : نعم ، فقلت : فما تنكر ألا يكون فيه دلالة عليه ، لأنه لا ينكر أن يكون مذكرا سمى به البقعة المؤنثة ، فلا ينصرف ، كامرأةٍ سميتها بحجر وجبَل وشبع ومعى ، فقال :إنما ذهبت إلى ذلك ، لأنه جُعِل كأنه المصدر بعينه ، لكثرة ما يعانى فيه ذلك . فقلت : الآن نعم .

ومن هذا الباب قوله :

* فإنما هى إقبالٌ وإدبار [2] *

وقوله :

* وهنّ من الإخلاف قبلك والمطل *

وقوله : « فلا منجى منك إلا إليك » ، قد أخذه الفرزدق فقال لمعاوية :

إليك فررتُ منك ومن زيادٍ ... ولم أحسب دَمِى لَكُما حلالًا [3]

ثم استعظم واستهول خلقه الذى يراه ، وملكوته الذى يشاهده ، واستصغر واستحقر

---

(١) لعلقمة وصدره :

* تُرَادُ عَلَى دِمنِ الحِياضِ فَإِنْ تَعَفْ *

(٢) للخنساء ، ديوانها ٧٨ ، وصدره :

* تَرْتَعُ مَا رَتَعَتْ حَتَّى إِذَا ادَّكَرَتْ *

(٣) ديوانه ٢ : ٦٠٨ .

ذلك ، بالإضافة إلى قدرته تعالى ، وإلى ماغاب عنّا من سلطانه . ثم تعجّب من سُبوغ نعمه تعالى في الدنيا ، واستصغر ذلك بالنسبة إلى نعم الآخرة ، وهذا حق لأنه لا نسبة للمتناهي إلى غير المتناهي .

* * *

الأصلُ :

منها :

مِنْ مَلاَئِكَةٍ أَسْكَنْتَهُمْ سَمَاوَاتِكَ، وَرَفَعْتَهُمْ عَنْ أَرْضِكَ؛هُمْ أَعْلَمُ خَلْقِكَ بِكَ، وَأَخْوَفُهُمْ لَكَ ، وَأَقْرَبُهُمْ مِنْكَ ؛ لَمْ يَسْكُنُوا الأَصْلاَبَ ، وَلَمْ يُضَمَّنُوا الأَرْحَامَ ، وَلَمْ يُخْلَقُوا مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، وَلَمْ يَتَشَعَّبْهُمْ رَيْبُ المَنُونِ ؛ وَإِنَّهُمْ عَلَى مَكَانِهِمْ مِنْكَ ، وَمَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَكَ ؛ وَاسْتِجْمَاعِ أَهْوَائِهِمْ فِيكَ ؛ وَكَثْرَةِ طَاعَتِهِمْ لَكَ ، وَقِلَّةِ غَفْلَتِهِمْ عَنْ أَمْرِكَ؛ لَوْ عَايَنُوا كُنْهَ مَاخَفِيَ عَلَيْهِمْ مِنْكَ؛لَحَقَّرُوا أَعْمَالَهُمْ؛وَلَأَزْرَوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَلَعَرَفُوا أَنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ ، وَلَمْ يُطِيعُوكَ حَقَّ طَاعَتِكَ .

سُبْحَانَكَ خَالِقاً وَمَعْبُوداً ! بِحُسْنِ بَلاَئِكَ عِنْدَ خَلْقِكَ خَلَقْتَ دَاراً، وَجَعَلْتَ فِيهَا مَأْدُبَةً ، مَشْرَباً وَمَطْعَماً وَأَزْوَاجاً ، وَخَدَماً وَقُصُوراً ، وَأَنْهَاراً وَزُرُوعاً وَثِمَاراً .

ثُمَّ أَرْسَلْتَ دَاعِياً يَدْعُو إِلَيْهَا ، فَلاَ الدَّاعِيَ أَجَابُوا ! وَلاَ فِيمَا رَغَّبْتَ رَغِبُوا ، وَلاَ إِلَى مَاشَوَّقْتَ إِلَيْهِ اشْتَاقُوا. أَقْبَلُوا عَلَى جِيفَةٍ قَدِ افْتَضَحُوا بِأَكْلِهَا ، وَاصْطَلَحُوا عَلَى حُبِّهَا ؛ وَمَنْ عَشِقَ شَيْئاً أَعْشَى بَصَرَهُ ، وَأَمْرَضَ قَلْبَهُ ؛ فَهُوَ[1] يَنْظُرُ بِعَيْنٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنٍ غَيْرِ سَمِيعَةٍ ؛قَدْ خَرَقَتِ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ ،وَأَمَاتَتِ الدُّنْيَا قَلْبَهُ، وَوَلِهَتْ عَلَيْهَا نَفْسُهُ ،فَهُوَ عَبْدٌ لَهَا،وَلِمَنْ فِي يَدَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا،حَيْثُمَا زَالَتْ زَالَ إِلَيْهَا،وَحَيْثُمَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَ عَلَيْهَا؛لاَ يَنْزَجِرُ مِنَ اللهِ بِزَاجِرٍ ،وَلاَ يَتَّعِظُ مِنْهُ بِوَاعِظٍ؛وَهُوَ يَرَى المَأْخُوذِينَ

---

(١) ساقطة من ب

عَلَى الْغِرَّةِ، حَيْثُ لَا إِقَالَةَ لَهُمْ وَلَا رَجْعَةَ ؟ كَيْفَ نَزَلَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَ، وَجَاءَهُمْ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا مَا كَانُوا يَأْمَنُونَ، وَقَدِمُوا مِنَ الْآخِرَةِ عَلَى مَا كَانُوا يُوعَدُونَ. فَغَيْرُ مَوْصُوفٍ مَا نَزَلَ بِهِمْ، اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ، وَحَسْرَةُ الْفَوْتِ، فَفَتَرَتْ لَهَا أَطْرَافُهُمْ، وَتَغَيَّرَتْ لَهَا أَلْوَانُهُمْ، ثُمَّ ازْدَادَ الْمَوْتُ فِيهِمْ وُلُوجاً، فَحِيلَ بَيْنَ أَحَدِهِمْ وَبَيْنَ مَنْطِقِهِ؛ وَإِنَّهُ لَبَيْنَ أَهْلِهِ يَنْظُرُ بِبَصَرِهِ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنِهِ عَلَى صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ، وَبَقَاءٍ مِنْ لُبِّهِ، يُفَكِّرُ فِيمَ أَفْنَى عُمُرَهُ، وَفِيمَ أَذْهَبَ دَهْرَهُ! وَيَتَذَكَّرُ أَمْوَالاً جَمَعَهَا أَغْمَضَ فِي مَطَالِبِهَا، وَأَخَذَهَا مِنْ مُصَرَّحَاتِهَا وَمُشْتَبِهَاتِهَا، قَدْ لَزِمَتْهُ تَبِعَاتُ جَمْعِهَا، وَأَشْرَفَ عَلَى فِرَاقِهَا، تَبْقَى لِمَنْ وَرَاءَهُ يَنْعَمُونَ فِيهَا وَيَتَمَتَّعُونَ بِهَا، فَيَكُونُ الْمَهْنَأُ لِغَيْرِهِ، وَالْعِبْءُ عَلَى ظَهْرِهِ، وَالْمَرْءُ قَدْ غَلِقَتْ رُهُونُهُ بِهَا، فَهُوَ يَعَضُّ يَدَهُ نَدَامَةً عَلَى مَا أَصْحَرَ لَهُ عِنْدَ الْمَوْتِ مِنْ أَمْرِهِ، وَيَزْهَدُ فِيمَا كَانَ يَرْغَبُ فِيهِ أَيَّامَ عُمُرِهِ، وَيَتَمَنَّى أَنَّ الَّذِي كَانَ يَغْبِطُهُ بِهَا وَيَحْسُدُهُ عَلَيْهَا قَدْ حَازَهَا دُونَهُ، فَلَمْ يَزَلِ الْمَوْتُ يُبَالِغُ فِي جَسَدِهِ حَتَّى خَالَطَ سَمْعَهُ، فَصَارَ بَيْنَ أَهْلِهِ لَا يَنْطِقُ بِلِسَانِهِ، وَلَا يَسْمَعُ بِسَمْعِهِ، يُرَدِّدُ طَرْفَهُ بِالنَّظَرِ فِي وُجُوهِهِمْ؛ يَرَى حَرَكَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ، وَلَا يَسْمَعُ رَجْعَ كَلَامِهِمْ، ثُمَّ ازْدَادَ الْمَوْتُ الْتِيَاطاً بِهِ، فَقُبِضَ بَصَرُهُ كَمَا قُبِضَ سَمْعُهُ، وَخَرَجَتِ الرُّوحُ مِنْ جَسَدِهِ، فَصَارَ جِيفَةً بَيْنَ أَهْلِهِ، قَدْ أَوْحَشُوا مِنْ جَانِبِهِ، وَتَبَاعَدُوا مِنْ قُرْبِهِ، لَا يُسْعِدُ بَاكِياً، وَلَا يُجِيبُ دَاعِياً، ثُمَّ حَمَلُوهُ إِلَى مَخَطٍّ فِي الْأَرْضِ، فَأَسْلَمُوهُ فِيهِ إِلَى عَمَلِهِ، وَانْقَطَعُوا عَنْ زَوْرَتِهِ.

حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَالْأَمْرُ مَقَادِيرَهُ، وَأُلْحِقَ آخِرُ الْخَلْقِ بِأَوَّلِهِ، وَجَاءَ مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا يُرِيدُهُ مِنْ تَجْدِيدِ خَلْقِهِ، أَمَادَ السَّمَاءَ وَفَطَرَهَا، وَأَرَجَّ الْأَرْضَ وَأَرْجَفَهَا، وَقَلَعَ جِبَالَهَا وَنَسَفَهَا، وَدَكَّ بَعْضُهَا بَعْضاً مِنْ هَيْبَةِ جَلَالَتِهِ، وَمَخُوفِ سَطْوَتِهِ، وَأَخْرَجَ مَنْ فِيهَا فَجَدَّدَهُمْ بَعْدَ إِخْلَاقِهِمْ، وَجَمَعَهُمْ بَعْدَ تَفَرُّقِهِمْ، ثُمَّ مَيَّزَهُمْ لِمَا يُرِيدُهُ مِنْ

سَنَأْ لَيهِمْ عَنْ خَفَايَا الأَعْمَالِ، وَخَبَايَا الأَقْوَالِ، وَجَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ: أَنْعَمَ عَلَى هؤُلَاءِ، وَانْتَقَمَ مِنْ هؤُلَاءِ. فَأَمَّا أَهْلُ الطَّاعَةِ فَأَثَابَهُمْ بِجِوَارِهِ، وَخَلَّدَهُمْ فِي دَارِهِ، حَيْثُ لَا يَظْعَنُ النُّزَّالُ، وَلَا تَتَغَيَّرُ بِهِمُ الْحَالُ، وَلَا تَنُوبُهُمُ الأَفْزَاعُ، وَلَا تَنَالُهُمُ الأَسْقَامُ، وَلَا تَعْرِضُ لَهُمُ الأَخْطَارُ، وَلَا تُشْخِصُهُمُ الأَسْفَارُ. وَأَمَّا أَهْلُ الْمَعْصِيَةِ، فَأَنْزَلَهُمْ شَرَّ دَارٍ، وَغَلَّ الأَيْدِيَ إِلَى الأَعْنَاقِ، وَقَرَنَ النَّوَاصِيَ بِالأَقْدَامِ، وَأَلْبَسَهُمْ سَرَابِيلَ الْقَطِرَانِ، وَمُقَطَّعَاتِ النِّيرَانِ، فِي عَذَابٍ قَدِ اشْتَدَّ حَرُّهُ، وَبَابٍ قَدْ أُطْبِقَ عَلَى أَهْلِهِ، فِي نَارٍ لَهَا كَلَبٌ وَلَجَبٌ، وَلَهَبٌ سَاطِعٌ، وَقَصِيفٌ هَائِلٌ، لَا يَظْعَنُ مُقِيمُهَا، وَلَا يُفَادَى أَسِيرُهَا، وَلَا تُفْصَمُ كُبُولُهَا، لَا مُدَّةَ لِلدَّارِ فَتَفْنَى، وَلَا أَجَلَ لِلْقَوْمِ فَيُقْضَى.



الشَّرْحُ :

هذا موضع المثل : « في كلّ شجرة نار، واستمجد المرْخ والعفار »، الخطب الوعظية الحسان كثيرة ؛ ولكن هذا حديث يأكل الأحاديث :

محاسن أصناف المغنين جمّةٌ وماقصباتُ السَّبْق إلا لمعبد

من أراد أن يتعلّم الفصاحة والبلاغة ، ويعرف فضل الكلام بعضه على بعض ؛ فليتأمل هذه الخطبة ؛ فإن نسبتها إلى كلّ فصيح من الكلام ــ عدا كلام الله ورسوله ــ نسبة الكواكب المنيرة الفلكية إلى الحجارة المظلمة الأرضية ؛ ثم لينظر الناظر إلى ماعليها من البهاء ، والجلالة والرواء ، والديباجة، وماتحدثه من الروعة والرهبة ، والمخافة والخشية ؛ حتى لو تليتْ على زنديق ملحد مصمم على اعتقاد نفي البعث والنّشور لهدّت قواه ، وأرعبت قلبه، وأضعفت على نفسه، وزلزلت اعتقاده ؛ فجزى الله قائلها عن الإسلام أفضل

ما جزى به وليا من أوليائه ! فما أبلغ نصرته له ! تارةً بيده وسيفه ، وتارة بلسانه ونطقه ، وتارة بقلبه وفكره ! إن قيل : جهاد وحرب فهو سيد المجاهدين والمحاربين ، وإن قيل : وعظٌ وتذكير ؛ فهو أبلغُ الواعظين والمذكِّرين ، وإن قيل : فقهٌ وتفسير فهو رئيس الفقهاء والمفسرين ، وإن قيل : عدل وتوحيد ، فهو إمام أهل العدل والموحِّدين :

ليس على الله بمستنكَرٍ أن يجمع العالم في وَاحدِ[1]

ثم نعود إلى الشرح ، فنقول : قوله عليه السلام : « أسكنتهم سمٰواتك » ، لايقتضي أن جميع الملائكة في السمٰوات ، فإنه قد ثبت أن الكرام الكاتبين في الأرض ؛ وإنما لم يقتض ذلك ؛ لأن قوله : « من ملائكة » ليس من صيغ العموم ؛ فإنه نكرة في سياق الإثبات ؛ وقد قيل أيضاً : إنّ ملائكة الأرض تعرُج إلى السماء ، ومسكنها بها ، ويتناوبون على أهل الأرض .

قوله : « هم أعلمُ خَلْقك بك » ، ليسَ يعنى به أنهم يعلمون من ماهيته تعالى ما لا يعلمه البشر ؛ أمّا على قول المتكلمين فلأنّ ذاته تعالى معلومة للبشر ، والعلم لا يقبل الأشدّ والأضعف ، وأمّا على قول الحكماء ، فلأنّ ذاته تعالى غيرُ معلومة للبشر ولا للملائكة ؛ ويستحيل أن تكون معلومة لأحدٍ منهم ؛ فلم يبق وجهٌ يُحمَل عليه قوله عليه السلام : « هم أعلم خلقك بك » إلا أنهم يعلمون من تفاصيل مخلوقاته وتدبيراته ما لا يعلمه غيرهم ؛ كما يقال : وزير الملك أعلمُ بالملِك من الرعية ، ليس المراد أنّه أعلم بذاته وماهيّته ، بل بأفعاله وتدبيره ومراده وغرضه .

قوله : « وأخوفهم لك » ؛ لأنّ قوّتى الشهوة والغضب مرفوعتان عنهم ، وهما منبع

---

(١) لأبي نواس ، التمثيل والمحاضرة ٨٠

الشرّ ، وبهما يقع الطمع والإقدام على المعاصي . وأيضا فإنّ منهم مَنْ يشاهد الجنّة والنار عيانا ، فيكون أخوفَ لأنّه ليس الخبر كالعيان .

قوله : « وأقربهم منك » لا يريد القربَ المكانيّ لأنه تعالى منزّه عن المكان والجهة ؛ بل المراد كثرة الثواب وزيادة التعظيم والتبجيل ؛ وهذا يدلّ على صحة مذهب أصحابنا في أنّ للملائكة أفضلُ من الأنبياء .

ثم نبّه على مزيّة لم تقتضِ أفضلية جنسهم على جنس البشر ؛ بمعنى الأشرفيّة ، لا بمعنى زيادة الثواب وهو قوله « لم يسكنُوا الأصلاب ، ولم يضمّنُوا الأرحام ، ولم يخلقوا من ماء مَهين ، ولم يتشعّبهم ريبُ المنون » ؛ وهذه خصائص أربع :

فالأولى أنّهم لم يسكنوا الأصلاب ، والبَشَر سكنوا الأصلاب ، ولا شبهة أنّ ما ارتفع عن مخالطة الصورة اللحميّة والدموية أشرف مما خالطها ومازجها .

والثانية أنّهم لم يضمّنُوا الأرحام ، ولا شبهة أنّ من لم يخرج من ذلك الموضع المستقذَر أشرفُ ممن خرج منه ؛ وكان أحمد بن سهل بن هاشم بن الوليد بن كامكاو بن يزدجِرد بن شهريار ، يفتخر على أبناء الملوك بأنّه لم يخرج من بُضْع امرأة ، لأن أمّه ماتت وهي حامل به ، فشقّ بطنها عنه وأخرج ؛ قال أبو الريحان البيروني في كتاب "الآثار الباقية عن القرون الخالية" عن هذا الرجل : إنه كان ينيه على الناس ، وإذا شتم أحدا ، قال : ابن البُضْع ؛ قال أبو الريحان : وأوّل مَن اتفق له ذلك الملك المعروف بأغسطس ملك الروم ، وهو أوّل من سمّي فيهم قيصر ، لأن تفسير « قيصر » بلغتهم ، شقّ عنه ؛ وأيامه تاريخ ، كما أنّ أيام الإسكندر تاريخ لعظمه وجلالته عندهم .

والثالثة أنهم لم يخلقوا من ماء مهين ، وقد نصّ القرآن العزيز على أنّه مهين ؛ وكفى ذلك في تحقيره وضَعته ؛ فهم لا محالة أشرف ممّن خلق منه ؛ لاسيا وقد ذهب كثير من العلماء إلى نجاسته .

والرابعة أنهم لا يشعبهم المنية ، ولا ريب أن من لا تتطرق إليه الأسقام والأمراض ولا يموت ، أشرف ممن هو فى كل ساعة ولحظة بعرض سقام ، وبصدد موت وحمام .

***

واعلم أن مسألة تفضيل الملائكة على الأنبياء لها صورتان : إحداهما أن « أفضل » بمعنى كونهم أكثر ثوابا ، والأخرى كونهم أفضل بمعنى أشرف ؛ كما تقول : إن الفلك أفضلُ من الأرض ، أى أن الجوهر الذى منه جسمية الفلك أشرفُ من الجوهر الذى منه جسمية الأرض.

وهذه المزايا الأربع دالة على تفضيل الملائكة بهذا الاعتبار الثانى .

قوله عليه السلام : « يشعبهم ريب المنون » ، أى يفرقهم ، والشَّعْب : التفريق ، ومنه قيل للمنية : شَعوب ، لأنها تفرق الجماعات ، ورَيْب المنون : حوادث الدهر ، وأصل الرَّيْب ما رابكَ الإنسان ، أى جاءه بما يكره ، والمنون الدهر نفسه ، والمنون أيضا المنيّة ، لأنها تمنّ المدّة أى تقطعها ، والمنّ : القطع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [1] .

وقال لَبِيد :

* غُبْسٌ كواسبُ لا يمنّ طعامُها [2] *

ثم ذكر أنهم كثرة عبادتهم وإخلاصهم لو عاينوا كنه ما خفى عليهم من البارئ تعالى لحقروا أعمالهم . وزرّوا على أنفسهم ، أى عابوها : تقول زريت على فلان ، أى عبته وأزريت بفلان أى قصرت به .

---

(١) سورة فصلت ٨

(٢) صدره :

* لِمُعَفَّرٍ قَهْدٍ تَنَازَعَ شِلْوَهُ *

المعفر : الذى سحب فى العفر ؛ وهو التراب . والقهد : الأبيض . والغبس : الذئاب ، والغبسة لون فيه شبيه بالغبرة ، وكواسب : تكسب الصيد . وقوله : « ما يمن طعامها » ، أى ما ينقص . (المعلقات بشرح التبريزى ١٤٥) .

فإن قلت : ماهذا السكنه الذى خَفِىَ عن الملائكة ؛ حتى قال : « لو عاينوه لَحَقَّرُوا عبادتهم ، ولعلموا أنهم قد قصروا فيها » ؟

قلت : إنّ علوم الملائكة بالبارئ تعالى نظرّية كعلوم البشر ، والعلوم النظرية دون العلوم الضرورية فى الجلاء والوضوح ، فأميرُ المؤمنين عليه السلام يقول : لو كانتْ علومهم بك وبصفاتك اثباتية والسلبية والإضافية ضرورية ، عِوَض علومهم هذه المتحقّقة الآن ؛ التى هى نظرية ولانكشف لم مالبس الآن على حدّ ذلك الكشف والوضوح . ولاشبهةَ أنّ العبادة والخدمة على قَدْر المعرفة بالمعبود ، فكلّما كان العابد به أعرفَ ، كانت عبادته له أعظَم ، ولا شبهة أنّ العظيم عند الأعظم حقير .

فإن قلت : فا معنى قوله : « واستجماع أهوائهم فيك » ، وهل الملائكة هَوًى ؟ وهل تستعمل الأهواء إلا فى الباطل ؟

قلت : الهوى : الحبُّ ومَيْل النفس ، وقد يكون فى باطل وحقّ ، وإنما يحمل على أحدهما بالقرينة ، والأهواء تستعمل فيهما ، ومعنى استجماع أهوائهم فيه : أنّ دواعيهم إلى طاعته وخدمته لاتنازعُها الصوارف ، وكانت مجتمعة مائلة إلى شئ واحد .

فإن قلت : الباء فى قوله : « بحسن بلائك » بماذا تتعلق ؟

قلت : الباءهاهنا للتعليل بمعنى اللام ، كقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم ﴾[1] ، أى لأنهم ، فتكون متعلقة بما فى « سبحانك » من معنى الفعل ، أى أسبحك لحسن بلائك . ويجوز أن تتعلق بمعبود ، أى يعبد لذلك .

ثم قال : « خلقت داراً » يعنى الجنة ، والمأدَبة والمأدُبة ، بفتح الدال وضمها : الطعام الذى يُدعَى الإنسان إليه ، أدب زيدٌ القومَ ، يأدِبهم بالكسر ، أى دعاهم إلى طعامه ، والآدب الداعى إلى طعامه ، قال طَرَفة :

(١) سورة غافر ٢٢ .

نَحْنُ فِي الْمَشْتَاةِ نَدْعُو الْجَفَلَى   لَا تَرَى الْآدِبَ فِينَا يَنْتَقِرْ [1]

وفى هذا الـكلام دلالة على أن الجنة الآن مخلوقة ، وهو مذهب أ كثر أصحابنا .

ومعنى قوله : « وزروعا » أى وغروساً من الشجر ، يقال : زرعت الشجر ، كما يقال : زرعت البرّ والشعير ، ويجوز أن يقال : الزروع : جمع زَرْع وهو الإنبات ، يقال : زرعه الله أى أنبته ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ۞ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ [2] . ولو قال قائل : إن فى الجنة زروعا من البرّ والقُطْنِيَّة [3] لم يبعد .

قوله : ثم أرسلت داعيا بمنى الأنبياء . وأقبلوا على جيفة ، بمعنى الدنيا ، ومن كلام الحسن رضى الله عنه : إنما يتهارشون على جيفة .

وإلى قوله : « ومن عشق شيئا أعشى بصره » نظر الشاعر فقال :

وَعَيْنُ الرِّضَا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ   كما أنَّ عين السخط تبدى المساويا [4]

وقيل لحكيم : ما بال الناس لا يرون عيب أنفسهم كما يرون عيب غيرهم ؟ قال : إنّ الإنسان عاشق لنفسه ، والعاشق لا يرى عيوب المعشوق .

قد خرقت الشهواتُ عقله ، أى أفسدته كما تخرق الثوب فيفسد .

وإلى قوله : « فهو عبد لها ولمن فى يديه شىء منها » نظر ابن دريد ، فقال :

عَبِيدُ ذِى المالِ وإنْ لم يَطْمَعُوا   مِنْ مالِهِ فى نُغْبَةٍ تَشْفِى الصَّدَا

وهم لمن أملق أعداء وإن   شاركهم فيما أفاد وحوى

---

(١) ديوانه ٦٨ . المشتاة : يريد الشتاء والبرد ، والجفلى : أن يعم بدعوته إلى طعام ولا يخص أحدا والانتقار ، أن يدعو النقرى ، وهى أن يخصهم ولا يعمهم .

(٢) سورة الواقعة ٦٣ ، ٦٤

(٣) القطنية : ما سوى الحنطة والشعير والزبيب والتمر . القاموس .

(٤) لعبد الله بن معاوية ، زهر الآداب ٨٥

وإلى قوله : « حبنًا زالت زال إليها ، وحينًا أقبلت أقبل عليها » نظر الشاعر ، فقال :

ما الناس إلّا مع الدنيا وصاحبها ... فكيفما انقلبتْ يوما به انقلبُوا

يعظّمون أخا الدنيا فإن وثبتْ ... يوما عليه بما لا يشتهى وثَبُوا

والغِرّة : الاغترار والغَفْلة ، والغارّ : الغافل ، وقد اغتررتُ بالرجل ، واغترّه زيد، أى أتاه على غِرّة منه ، ويجوز أن يعنى بقوله : « المأخوذين على الغرّة » الحداثة والشبيبة ، يقول: كان ذلك فى غَرارتى وغرتى ، أى فى حداثتى وصباىّ .

قوله : « سكْرة الموتِ وحسرة الفوْت » ، أى الحسرة على مافاتهم من الدنيا ولذّتها ، والحسرة على ما فاتهم من التوبة والندم واستدراك فارط المعاصى .

والولوج : الدخول ، وَلَج يلِج .

قوله . « وبقاء من لبّه » أى لبّه باق لم يعدم ، ويروى « ونقاء » بالنون ، والنّقاء : النظافة ، أى لبّه غير مغمور .

أغمض فى مطالبها ، أى تساهل فى دينه فى اكتسابه إياها ، أى كان يبنى نفسه بتأويلات ضعيفة فى استحلال تلك المطالب والمكاسب ، فذلك هو الإغماض ،قال تعالى : ﴿ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ [1] ، ويمكن أن يُحمَل على وجه آخر ، وهو أنه قد كان يحتال بحيل غامضة دقيقة فى تلك المطالب حتى حصلها واكتسبها .

قوله عليه السلام : « وأخذها من مصرّحاتها ومشتبهاتها » ، أى من وجوه مباحة وذوات شبهة ، وهذا يؤكد الحمل الأول فى « أغمض » .

والتبعات : الآثام ، الواحدة تبعة ومثلها التِّباعة ، قال :

---

(١) سورة البقرة ٢٦٧ .

لم يحذَرُوا مِنْ رَبِّهم سُوء العواقب والتِّباعه[1]

والهنأ : المصدر من هَنِيء الطعام وهَنُؤ بالكسر والضم ، مثل فَقِه وفَقُه ، فإن كسرت قلت : « يهنَأ » ، وإن ضممت قلت : « يهنُؤ » ، والمصدر « هناءة » و « مهنأ » ، أى صار هنيئاً ، وهنأنى الطعام يَهْنَؤُنى » ويهنئنى ـ ولا نظير له فى المهموز ـ هَنْأً وهَنَاء ، وهنئت الطعام ، أى تهنّأت به ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوه هَنِيئاً مَرِيئاً ﴾[2].

والعبء : الحمل ، والجمع أعباء .

وغَلِق الرّهن ، أى استحقه المرتهن ، وذلك إذا لم يَفْتَكّكْ فى الوقت المشروط ، قال زهير :

وَفَارَقَتْكَ بِرهنٍ لا فكاكَ لهُ يوم الوَدَاعِ فأمسى الرَّهْنُ قد غَلِقا[3]

فإن قلت : فما معنى قوله عليه السلام : « قد غَلِقتْ رهونُه بها » فى هذا الموضع ؟ قلت : لمّا كان قد شارفَ الرحيلَ وأشفى على الفراق ، وصارت تلك الأموال التى جمعها مستحقة لغيره ، ولم يبقَ له فيها تصرُّف ، أشبهت الرهن الذى غَلِق على صاحبه، فخرج من كونه مستحقاً له ، وصار مستَحقاً لغيره وهو المرتهن .

وأصحر : انكشف ؛ وأصله الخروج إلى الصحراء والبروزُ من المكمن .

رجْع كلامهم : مايتراجعونه بينهم[4] من الكلام . ازداد الموت التياطا به ؛ أى التصاقا.

قد أوحِشُوا ، أى جعِلوا مستوحشين ، والمستوحِش : المهموم الفزِع ؛ ويروى «أوْحشوا من جانبه» ، أى خلوْا منه وأقفروا ، تقول : قد أوحش المنزل من أهله ، أى أقفر .

وخلا إلى مخطّ فى الأرض ، أى إلى خطّ ، سماه مخطاً أو مَخَطّاً لدِقته ؛ يعنى اللَّحد ؛

---

(١) اللسان ٩ : ٢٨٠ ، وقبله :

أأكلْتَ حَنيفَةُ رَبَّهَا زَمَنَ التقحُّمِ والمَجَاعَه

(٢) سورة النساء ٤ (٣) ديوانه ٣٣ (٤) ساقطة من ب .

ويروى : « إلى محطّ » بالحاء المهملة ؛ وهو المنزل ، ومحطّ القوم ، أى نزلوا .

وألحق آخرُ الخلق بأوله ؛ أى تساوى الـكلّ فى شمول الموت والفناء لهم ، فالتحق الآخر بالأوّل .

أماد السماء : حرّكها ، ويروى : « أمار » ؛ والمَوَرَان : الحركة . وفطَرها : شقَها . وأرجّ الأرض : زلزلها ، تقول : رجّتِ الأرضُ ، وأرجّها الله ، ويجوز « رجّها » ، وقد روى « رجّ الأرضَ » بغير همزة ؛ وهو الأصحّ ، وعليه ورد القرآن : ﴿ كَلَّا إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴾ [١] .

أرجفها : جعلها راجفة أى مرتعدة متزلزلة ، رجفت الأرضُ ، ترجُف ، والرّجَفان : الاضطراب الشديد ؛ وسمّى البحر رجّافا لاضطرابه ، قال الشاعر :

* حتى تغيبَ الشّمسُ فى الرّجّافِ [٢] *

ونسفها : قلَعها من أصولها . ودكّ بعضها بعضا : صدمه ودقّه حتى يكسره ويسوّيه بالأرض ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ [٣] .

ميزَهم ، أى فصّل بينهم ، فجعلهم فريقين : سعداء وأشقياء ، ومنـه قوله تعالى : ﴿ وَٱمْتَازُوا ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [٤] ، أى انفصلوا من أهل الطاعة .

يظعن : يرحل . تنوبُهم الأفزاع : تعاودُهم ، وتعرض لهم الأخطار : جمع خَطَر ، وهو مايشرف به على الهلَـكة .

---

(١) سورة الواقعة ٤

(٢) لمطرود بن كعب الخزاعى ، من أبيات يرثى فيها عبد المطلب ؛ أوردها صاحب اللسان ١١ : ١٢ وابن هشام ١ : ١١٧ (على هامش الروض الأنف) وصدره :

* المُطعِمونَ اللّحمَ كلّ عشيّةٍ *

(٣) سورة الحاقة ١٤

(٤) سورة يس ٥٩ .

وتُشخصهم الأسفار : تخرجهم من منزل إلى منزل ، شخص الرجلُ وأشخصه غيرُه.
وغلّ الأيدى : جعلها فى الأغلال ، جمع غُلّ بالضم ؛ وهو القيد . والقَطِران : الهِناء ؛
قطرتُ البعير أى طليته بالقَطِران ، قال :

* كما قَطَّرَ المهنوءةَ الرَّجُلُ الطالى [1] *

وبعير مقطور ؛ وهذا من الألفاظ القرآنية ، قال تعالى : ﴿ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ [2] ؛ والمعنى أن النار إلى القَطِران سريعة جدا .

ومقطّعات النّيران ، أى ثياب من النيران ، قد قطعت وفصّلت لهم ؛ وقيل : المقطّعات:
قصار الثياب . والكَلَب : الشدّة . والجلَب والجَلَبة : الصوت . والقصيف :
الصوت الشديد .

لا يُفصَم كُبولها : لا يكسر قيودها ، الواحد كَبْل .
ثم ذكر أن عذابهم سرمدىّ ، وأنه لا نهاية له ، نعوذ بالله من عذاب ساعة واحدة ،
فكيف من العذاب الأبدىّ !

[موازنة بين كلام الامام علىّ وخطب ابن نباتة]

ونحن نذكر فى هذا الموضع فصولا من خُطب الخطيب الفاضل عبد الرحيم بن نُباتة
رحمه الله ؛ وهو الفائز بقَصَبات السبق من الخطباء ؛ والناس غرام عظيم بخطبه وكلامه ؛
ليتأمّل الناظر كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام فى خطبه ومواعظه ؛ وكلام هذا الخطيب المتأخر

---

(١) لامرىء القيس ، ديوانه ٣٣ ، وصدره :
* أَيَقْتُلُنِى وَقَدْ شَغَفْتُ فُؤَادَهَا *

(٢) سورة إبراهيم ٥٠ .

الذى قد وقع الإجماع على خطابته وحسنها ، وأنّ مواعظه هى الغاية التى ليس بعدها غاية.
فمن ذلك قوله :

« أيها الناس! تجهّزوا فقد ضُرِّب فيكم بُوق الرحيل ، وابرُزوا فقد قربت لكم نوق التحويل ، ودَعُوا التمسّك بخُدَع الأباطيل ، والركون إلى التسويف والتعليل ؛ فقد سمعتم ما كرّر الله عليكم من قصص أبناء القُرى ، وما وعظكم به من مصارع مَنْ سَلَف من الورى ؛ مما لا يعترض قوى البصائر فيه شكٌ ولا مِرا ؛ وأنتم معرضون عنه إعراضكم عما يُختلق ويفترى ؛ حتى كأنّ ماتعملون معاضغاثُ أحلام الكَرى ، وأيدى المنايا قد فصمت من أعماركم أوثق العُرى ، وهجمت بكم على هول مطلعٍ كريه القِرى؛ فالتهقرى رحمكم الله من حبائل العطب القهقرى ! واقطعوا مفاوز الملكات بمواصلة السُّرى ، وقفوا على أحداث النازلين من شناخيب الذُّرا ، المنجلين بوازع أمّ حبَوْكَرى ، المشغولين بما عليهم من الموت جرى ، واكشفوا عن الوجوه الناعمة أطباق الثرى ، تجدوا ما بقى منها عبرة لمن يرى . فرحم الله امرأ رحم نفسه فبكاها ، وجعل منها إليها مشتكاها ! قبل أن تعلق به خطاطيف المنون ، وتصدق فيه أراجيف الظنون ، وتَشْرَق عليه بمائها مُقَل العيون ، ويلحق بمن دَثَر من القرون ، قبل أن يبدوَ على المناكب محمولا ، ويغدوَ إلى محلّ المصائب منقولا ، ويكونَ عن الواجب مسئولا ، وبالقدوم على الطالب الغالب مشغولا . هنالك يرفع الحجاب ، ويوضع الكتاب ، وتقطع الأسباب ، وتذهب الأحساب ، ويمتنع الإعتاب ، ويجمع من حَقّ عليه العقاب ، ومَنْ وجب له الثواب ، فيضرب بينهم بسُورٍ له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبَله العذاب » .

فلينظر المنصف هذا الكلام وما عليه من أثر التوليد؛ أولا بالنسبة إلى ذلك الكلام العربى المحض ، ثم لينظرْ فيما عليه من الكسل والرخاوة ، والفتور والبلادة ، حتى كأنّ ذلك

الـكلام لعامر بن الطفيل[1] مستلئما شِكّته[2] ، راكبا جواده ، وهذا الـكلام للدّلال المديني[3] المخنّث ، آخذا زمّارته ، متأبطا دفّه .

والمخّ ما في « بوق الرحيل » من السفسفة واللفظ العاميّ الغثّ . واعلم أنهم كلهم عابوا على أبي الطيب قوله :

فإن كان بعضُ الناس سيفاً لدولةٍ   ففي النّاس بُوقاتٌ لها وطُبُولُ[4]

وقالوا : لا تدخل لفظة « بوق » في كلام بفلح أبدا .

والمخّ ما على قوله : « القهقرى القهقرى » متـكرّرة من الهجنة ، وأهجَنُ منها « أمّ حَبَوْكَرى »[5] . وأين هـذا اللفظ الحوشيّ الذى تفوح منه روائح الشّيح والقَيْصوم؛ وكأنه من أعرابيّ قح قد قدِم من نجد لا يفهم مجاورة أهل الحضر ، ولا أهل الحضر يفهمون حواره ؛ من هذه الخطبة اللينة الألفاظ التى تـكاد أن تتثنى من لينها ، وتتساقط من صَقْلِها !

ثم المخ هذه الفِقَر والسّجَعات ، التى أولها « القرى » ثم « الورا » ثم « يفترى » ثم « الـكرى » إلى قوله : « عبرة لمن يرى » ، هل ترى تحت هذا الـكلام معنى لطيفا ، أو مقصدا رشيقا ! أو هل تجد اللفظ نفسه لفظا جزلا فصيحا ، أو عذبا معسولا ! وإنما هى ألفاظ قد ضُمّ بعضُها إلى بعض ، والطائل تحتها قليل جدا . وتأمل لفظة « مِرا » فإنها ممدودة فى اللغة ، فإن كان قصرها فقد ركب ضرورة مستهجنة ، وإن أراد جمع « مِرْية » فقد خرج

(١) عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب العامرى ، ابن عم لبيد ؛ أحد فرسان العرب وفتاكهم . وانظر أخباره فى خزانة الأدب ١ : ٤٧٣ .

(٢) الشكة بالكسر : السلاح .

(٣) الدلال المدينى ، واسمه ناقد ، وكنيته أبو زيد ، كان من أهل المدينة ، وأحد ظرفاء ثلاثة كانوا بها : طويس ، والدلال ، وهنب ، كان هنب أقدمهم ، والدلال أصغرهم ؛ وانظر أخباره فى الأغانى ٤ : ٢٦٩ — ٣٠١ .

(٤) ديوانه ٣ : ١٠٨ .

(٥) أم حبوكرى : من أسماء الداهية عندهم .

من الصناعة ، لأنه يكون قد عكّف الجمع المفرد ، فيصير مثل قول القائل : « ما أخذت منه دينارا ولا دراهم » ، فى أنه ليس بالمستحسن فى فن البيان .

ومن ذلك قوله :

« أيها الناس ، حصحصّ الحقّ ، فما من الحقّ مناص ، وأشخِص الخلق ؛ فما لأحد من الخلق خَلاص ، وأنتم على ما يباعدكم من الله حِراص ، ولكم على موارد المَلَكة اقتصاص ؛ وفيكم عن مقاصد البركة انتكاص ؛ كأن ليس أمامكم جزاء ولا قصاص ، ولجوارح الموت فى وَحْش نفوسكم اقتناص ؛ ليس بها عليها تأبِّ ولا اعتياص » .

فليتأمّل أهلُ المعرفة بعلم الفصاحة والبيان هذا الكلامَ بعين الإنصاف ، يعلموا أن سطراً واحدا من كلام « نهج البلاغة » يساوى ألف سطر منه ، بل يزيد ويُربِى على ذلك ؛ فإنّ هذا الكلام ملزقٌ عليه آثار كُلفة وعُجْمة ظاهرة ، يعرفها العامىّ فضلا عن العالم .

ومن هذه الخطبة :

« اهجروا رحمكم الله وثيرَ المراقد ، وادّخروا طيّب المكتسب تخلصوا من انتقاد الناقد ، واغتنموا فسحة المُهَل قبل انسداد المقاصد ، واقتحموا سُبُل الآخرة على قلّة المرافق والمساعد » .

فهل يجد متصفح الكلام لهذا الفصل عُذوبة ، أو معنى يُمدح الكلامُ لأجله ؟ وهل هوَ إلا ألفاظ مضموم بعضها إلى بعض ، ليس لها حاصل ؛ كما قيل فى شعر ذى الرُّمة : « بعرظِباء ونقط عروس »[1] !

ومن ذلك قوله :

« فيالَه من واقع فى كُرَب الحشارج ، مصارع لسكرات الموت معالج ! حتى دَرَج على تلك المدارج ، وقدم بصحيفته على ذى المعارج » .

(١) من كلام جرير فى وصف شعر ذى الرمة ، وانظر الموشح للمرزبانى ١٧١ .

وغير خاف ما في هذا الكلام من التكلف .

ومن ذلك قوله :

« فكأنكم بمنادي الرحيل قد نادى في أهل الإقامة ، فاقتحموا بالصغار محجة القيامة ، يتلو الأوائل منهم الأواخر ، ويتبع الأكابرُ منهم الأصاغر ، ويلتحق الغوامر من ديارهم بالغوامر ، حتى تبتلع جميعهم الحفر والمقابر » .

فإن هذا الكلام ركيك جدا ، لو قاله خطيب من خطباء قرى السواد لم يستحسن منه ؛ بل ترك واسترذل .

ولعل عائباً يعيب علينا فيقول : شرعتم في المقايسة والموازنة بين كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، وبين كلام ابن نُباتة ؛ وهل هذا إلا بمنزلة قول مَنْ يقول : السيف أمضى من العصا ؛ وفي هذه غضاضة على السيف !

فنقول : إنه قد اشتملت كتبُ المتكلمين على المقايسة بين كلام الله تعالى وبين كلام البَشَر ، ليبيّنوا فضل القرآن وزيادة فصاحته على فصاحة كلام العرب ؛ نحو مقايستهم بين قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾[1] وبين قول القائل : « القتل أنفى للقتل » ونحو مقايستهم بين قوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾[2] وبين قول الشاعر :

فإن عرضوا بالشرّ فاصفح تكرّماً ... وإن كتموا عنك الحديث فلا تسلْ

* * *

ونحو إيرادهم كلام مُسَيلمة ، وأحمد بن سليمان المعرّي ، وعبد الله بن المقفع ، فصلاً فصلا ، والموازنة والمقايسة بين ذلك وبين القرآن المجيد ، وإيضاح أنه لا يبلغ ذلك إلى درجة

(١) سورة البقرة ١٧٩

(٢) سورة الأعراف ١٩٩

القرآن العزيز ، ولا يقاربها ، فليس بمستنكر منا أن نذكر كلام ابن نُباتة في معرض إيرادنا كلام أمير المؤمنين عليه السلام لتظهر فضيلة كلامه عليه السلام بالنسبة إلى هذا الخطيب الفاضل ، الذي قد اتفق الناس على أنه أوْحدُ عصره في فنه .

واعلم أنا لا ننكر فضل ابن نُباتة وحُسنَ أكثر خطبه ، ولكنّ قوماً من أهل العصبيّة والعناد ، يزعمون أن كلامه يساوي كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام ويماثله موقد اللؤر بعضُهم في ذلك ، فأحببت أن أبيّن للناس في هذا الكتاب أنه لا نسبة لكلامه إلى كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، وأنه بمنزلة شعر الأبله وابن المعلّم بالإضافة إلى زُهير والنابغة .

واعلم أنّ معرفة الفصيح والأفصح ، والرشيق والأرشق والحلو والأحلى ، والعالي والأعلى من الكلام أمر لا يُدرك إلا بالذوق ؛ ولا يمكن إقامة الدلالة المنطقية عليه ؛ وهو بمنزلة جاريتين : إحداهما بيضاء مشرّبة حمرة دقيقة الشفتين ، نقية الثغر ، كحلاء العينين ، أسيلة الخد ، دقيقة الأنف ، معتدلة القامة ، والأخرى دونها في هذه الصفات والمحاسن ؛ لكنها أحلَى في العيون والقلوب منها ، وأليق وأصلح ، ولا يدرَى لأيّ سبب كان ذلك ، ولكنه بالذوق والمشاهدة يُعرف ، ولا يمكن تعليله ، وهكذا الكلام ؛ نعم يبقى الفرق بين الموضعين . أنّ حُسْن الوجوه وملاحتها وتفضيل بعضها على بعض يدركه كلّ من له عين صحيحة ، وأما الكلام فلا يعرفه إلا أهل الذوق ، وليس كلّ من اشتغل بالنحو واللغة أو بالفقه كان من أهل الذوق وممّن يصلح لانتقاد الكلام ؛ وإنما أهل الذوق هم الذين اشتغلوا بعلم البيان ، وراضوا أنفسهم بالرسائل والخطب والكتابة والشعر ، وصارت لهم

بذلك دُرْبَة وملكة تامة ، فإلى أولئك ينبغى أن ترجع فى معرفة الكلام وفضل بعضه على بعض ، إن كنت عادما لذلك من نفسك .

* * *

الأصل :

منها فى ذكر النبيّ صلى الله عليه وآله :

قَدْ حَقَّرَ الدُّنْيَا وَصَغَّرَهَا، وَأَهْوَنَ بِهَا وَهَوَّنَهَا ، وَعَلِمَ أَنَّ اللهَ زَوَاهَا عَنْهُ اخْتِيَاراً ، وَبَسَطَهَا لِغَيْرِهِ احْتِقَاراً، فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ ؛ لِكَيْلاَ يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشاً، أَوْ يَرْجُوَ فِيهَا مَقَاماً. بَلَّغَ عَنْ رَبِّهِ مُعْذِراً ، وَنَصَحَ لِأُمَّتِهِ مُنْذِراً، وَدَعَا إِلَى الْجَنَّةِ مُبَشِّراً ، وَخَوَّفَ مِنَ النَّارِ مُحَذِّراً.

* * *

الشرح :

فَعَّل ، مشدد ، للتكثير ، « قَتَّلت » أكثر من « قَتَلْت » ؛ فيقتضى قوله عليه السلام : « قد حقّر الدنيا » زيادة تحقير النبى صلى الله عليه وآله لها ، وذلك أبلغ فى الثناء عليه وتقريظه .

قوله : «وَصَغَّرها» ، أى وصغَّرها عند غيره ، ليكون قوله : « وأهْوَنَ بها وهوَّنها » مطابقا له ، أى أهون هو بها وهوّنها عند غيره .

وزواها : قبضها ، قال عليه الصلاة والسلام : « زُوِيَتْ لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها » .

وقوله : «اختيارا» ، أى قبض الدّنيا عنه باختيار ورضاً من النبى صلى الله عليه وآله بذلك، وعلم بما فيه من رفعة قدره، ومنزلته فى الآخرة .

والرياش والريش بمعنى ، وهو اللباس الفاخر كالجِرْم والحرام والقِبْس والقبْس ، وقرئ : ﴿ وَرِيَاشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [1] ويقال : الريش والرياش : المال والخِصْب والمعاش ، وارتاش فلان : حسنت حاله . ومعذرا ، أى مبالغا ، أعذر فلان فى الأمر ، أى بالغ فيه .

* * *

الأصْلُ :

نَحْنُ شَجَرَةُ النُّبُوَّةِ ، وَمَحَطُّ الرِّسَالَةِ ، وَمُخْتَلَفُ الْمَلَائِكَةِ ، وَمَعَادِنُ الْعِلْمِ ، وَيَنَابِيعُ الْحُكْمِ ؛ نَاصِرُنَا وَمُحِبُّنَا يَنْتَظِرُ الرَّحْمَةَ ، وَعَدُوُّنَا وَمُبْغِضُنَا يَنْتَظِرُ السَّطْوَةَ .

* * *

الشَّرْحُ :

هذا الكلام غير ملتصق بالأول كل الالتصاق ، وهو من النمط الذى ذكرناه مراراً ؛ لأنّ الرضىّ رحمه الله يقتضب فصولا من خطبة طويلة ، فيوردها إيراداً واحداً ، وبعضها منقطع عن البعض .

قوله عليه السلام : « نحن شجرة النبوّة » ، كأنه جعل النبوّة كثمرة أخرجتها شجرة بنى هاشم . ومحطّ الرسالة : منزلها . ومختلف الملائكة : موضع اختلافها فى صعودها ونزولها ، وإلى هذا المعنى نظر بعض الطالبيّين فقال : يفتخر على بنى عمّ له ليسوا بفاطميين :

هل كان يقتعد البُرَاقَ أبوكُمُ أمْ كانَ جبريلُ عليه يُنَزَّلُ
أم هَلْ يقولُ له الإلهُ مُشافِهاً بالوَحْىِ : قم يأيّها المزمّل

---

(١) سورة الأعراف ٢٦ وهى قراءة عاصم ، وانظر تفسير القرطبى ٧ : ١٨٤ .

وقال آخر يمدح قوما فاطميين :

ويطرقه الوحْيُ وهنًا وأنتمْ ضجيعان بين يدى جبْرئيلا

يعنى حسنا عليه السلام وحسينا عليه السلام .

واعلم أنه إن أراد بقوله : « نحن مختلف الملائكة » جماعة من جملتهم رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلا ريب فى صحة القضية وصدقها ، وإن أراد بها نفسه وابنيه فهى أيضا صحيحة؛ ولكن مدلولها مستنبَط ، فقد جاء فى الأخبار الصحيحة ، أنه قال . « ياجبريل ، إنه منّى وأنا منه » ، فقال جبريل : وأنا منكما . وروى أبو أيوب الأنصارىّ مرفوعا : « لقد صلّت الملائكة علىّ وعلى علىّ سبع سنين لم تصلّ على ثالث لنا » ؛ وذلك قبل أن يظهر أمرُ الإسلام ويتسامع الناس به .

وفى خطبة الحسن بن علىّ عليه السلام لما قبض أبوه : « لقد فارقكم فى هذه الليلة رجلٌ لم يسبقه الأولون، ولا يدركه الآخرون، كان يبعثه رسول الله صلى الله عليه وآله للحرب وجبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره » .

وجاء فى الحديث أنه سُمِع يوم أحد صوتٌ من الهواء من جهة السماء ، يقول : « لا سيف إلا ذو الفقار ، ولا فتى إلا علىّ » ، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « هذا صوت جبريل » .

فأما قوله : « ومعادن العلم ، وينابيع الحُكْم » يعنى الحكمة أو الحكم الشرعىّ ، فإنه وإن عنَى بها نفسه وذريته ، فإن الأمر فيها ظاهر جدًّا ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أنا مدينة العلم وعلىّ بابها ، فمن أراد المدينة فليأت الباب » ، وقال : « أقضاكم علىّ » والقضاء أمر يستلزم علوما كثيرة .

وجاء فى الخبر أنّه بعثه إلى اليمن قاضيا، فقال : يارسول الله ، إنهم كهول وذوو أسنانٍ

وأنا فتى ، وربما لم أصبْ فيما أحكم به بينهم ، فقال له : « اذهب فإنّ الله سيثبّت قلبك ويهدى لسانك » .

وجاء فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ [1] : سألت الله أن يجعلها أذنك ففعل . وجاء فى تفسير قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [2] أنها أنزلت فى علىّ عليه السلام وما خُصّ به من العلم . وجاء فى تفسير قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ [3] : أن الشاهد علىّ عليه السلام .

وروى المحدّثون أنه قال لفاطمة : « زوّجتُك أقدمَهم سِلْمًا ، وأعظمهم حِلْمًا ، وأعلمهم علمًا » . وروى المحدّثون أيضًا عنه عليه السلام أنه قال : « مَنْ أراد أن ينظر إلى نوح فى عَزْمه ، وموسى فى عِلْمه ، وعيسى فى وَرَعه ، فلينظر إلى علىّ بن أبى طالب » .

وبالجملة فحاله فى العلم حال رفيعة جدًا لم يلحقه أحد فيها ولا قاربه . وحقّ له أن يصف نفسه بأنه معادن العلم وينابيع الحكم ، فلا أحد أحقُّ بها منه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله .

فإن قلت : كيف قال : « عدوّنا ومبغضنا ينتظر السطوة » ، ونحن نشاهد أعداءه ومبغضيه ، لا ينتظرونها !

قلت : لما كانت منتظرةً لهم ومعلوما يقينًا حلولها بهم ، صاروا كالمنتظرين لها . وأيضًا فإنهم ينتظرون الموت لا محالة الذى كلّ إنسان ينتظره ؛ ولما كان الموت مقدّمة العقاب وطريقًا إليه جعل انتظاره انتظار ما يكون بعده .

---

(١) سورة الحاقة ١٢
(٢) سورة النساء ٥٤
(٣) سورة هود ١٧

(١٠٩)

الأصـل :

ومن خطبة له عليه السلام :

إنَّ أفضلَ ما توسَّلَ به المُتوسِّلونَ إلى اللهِ سُبحانَهُ وتعالَى ، الإيمانُ بهِ وبِرسولِهِ ، والجهادُ في سبيلهِ ، فإنَّهُ ذِروةُ الإسلامِ ، وكلمةُ الإخلاصِ ؛ فإنَّها الفِطرةُ ، وإقامُ الصَّلاةِ فإنَّها المِلَّةُ ، وإيتاءُ الزَّكاةِ فإنَّها فريضةٌ واجبةٌ ، وصومُ شهرِ رمضانَ فإنَّهُ جُنَّةٌ مِنَ العِقابِ ، وحجُّ البيتِ واعتمارُهُ فإنَّهما يَنفيانِ الفقرَ ويَرحَضانِ الذَّنبَ ، وصِلةُ الرَّحمِ فإنَّها مَثراةٌ في المالِ ومَنسأةٌ في الأجلِ ، وصدقةُ السِّرِّ فإنَّها تُكفِّرُ الخطيئةَ ، وصدقةُ العلانيةِ فإنَّها تدفعُ مِيتةَ السُّوءِ ، وصنائعُ المعروفِ فإنَّها تَقِي مَصارِعَ الهَوانِ .

أفيضُوا في ذِكرِ اللهِ فإنَّهُ أحسنُ الذِّكرِ ، وارغَبوا فيما وعدَ المُتَّقينَ فإنَّ وعدَهُ أصدقُ الوعدِ ؛ واقتدُوا بِهَدْيِ نبيِّكُم فإنَّهُ أفضلُ الهَدْيِ ، واستَنُّوا بِسُنَّتِهِ فإنَّها أهدَى السُّنَنِ ، وتعلَّموا القرآنَ فإنَّهُ أحسنُ الحديثِ ، وتفقَّهوا فيهِ فإنَّهُ ربيعُ القلوبِ ، واستَشفُوا بنورِهِ فإنَّهُ شِفاءُ الصُّدورِ ، وأحسِنُوا تلاوتَهُ فإنَّهُ أنفعُ القَصَصِ . وإنَّ العالِمَ العاملَ بغيرِ علمِهِ كالجاهلِ الحائرِ الذي لا يَستفيقُ مِن جهلِهِ ، بلِ الحُجَّةُ عليهِ أعظمُ والحسرةُ لهُ ألزمُ ؛ وهوَ عندَ اللهِ ألوَمُ .

* * *

الشـرح :

ذكر عليه السلام ثمانية أشياء ، كلٌّ منها واجب .

أولها : الإيمان بالله ورسوله ، ويعنى بالإيمان هاهنا مجرد التصديق بالقلب ، مع قطع النظر عما عدا ذلك من التلفظ بالشهادة ، ومن الأعمال الواجبة ، وترك القبائح . وقد ذهب إلى أن ماهيّة الإيمان هو مجرد التصديق القلبيّ جماعة من المتكلمين ؛ وهو وإن لم يكن مذهبَ أصحابنا، فإنّ لهم أن يقولوا : إن أمير المؤمنين عليه السلام جاء بهذا اللفظ على أصل الوضع اللغوي ؛ لأن الإيمان فى أصل اللغة هو التصديق ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾[1]، أى لست بمصدق لنا؛ لا إن كنا صادقين،ولا إنْ كنا كاذبين . ومجيئه عليه السلام به على أصل الوضع اللغوى لايبطل مذهباً فى مسمّى الإيمان؛ لأنا نذهب إلى أن الشرع استجدّ لهذه اللفظة مسمًّى ثانيا ، كما نذهب إليه فى الصلاة والزكاة وغيرها ، فلا مُنافاة إذاً بين مذهبنا وبين ما أطلقه عليه السلام .

وثانيها : الجهاد فى سبيل الله ، وإنما قدّمه على التلفظ بكلمتى الشهادة ؛ لأنه من باب دفع الضرر عن النفس، ودفع الضرر عن النفس مقدّم على سائر الأعمال المتعلقة بالجوارح . والتلفظ بكلمتى الشهادة من أعمال الجوارح ؛ وإنما أخّره عن الإيمان ، لأنّ الإيمان من أفعال القلوب ؛ فهو خارج ممّا يتقدم عليه ، ودفع الضرر من الأفعال المختصة بالجوارح ، وأيضا فإنّ الإيمان أصلُ الجهاد ، لأنّه مالم يعلم الإنسان على ماذا يُجاهد لا يجاهد ، وإنما جعله ذِرْوة الإسلام، أى أعلاه ،لأنه مالم تتحصّن دار الإسلام بالجهاد لا يتمكّن المسلمون من القيام بوظائف الإسلام ؛ فكان إذاً من الإسلام بمنزلة الرأس من البدن .

وثالثها : كلمة الإخلاص ؛ يعنى شهادة أنْ لا إله إلا الله وشهادة أنّ محمداً رسول الله ، قال : فإنها الفطرة ؛ يعنى هى التى فطر الناس عليها ؛ والأصل الكلمة الأولى لأنها التوحيد، وعليها فُطِر البشرُ كلهم، والكلمة الثانية تَبَعٌ لها فأُجريت مجراها ، وإنما أُخِّرت

(١) سورة يوسف ١٧

هذه الخصلة عن الجهاد ، لأنَّ الجهاد كان هو السببَ فى إظهار الناس لها ونطقهم بها ؛ فصار كالأصل بالنسبة إليها .

ورابعها إقام الصلاة أى إدامتها ، والأصل « أقام إقواما » ، فحذفوا عين الفعل ، وتارة يعوّضون عن العين المفتوحة هاء ، فيقولون : « إقامة » . قال : قإنها الملة ، وهذا مثل قول النبى صلى الله عليه وآله : « الصّلاة عماد الدين ، فمن تركها فقد هدّم الدين » .

وخامسها إيتاء الزكاة ، وإنما أخرها عن الصلاة لأنّ الصلاة آكد افتراضا منها ؛ وإنما قال فى الزكاة « فإنها فريضة واجبة » ، لأن الفريضة لفظ يطلق على الجزء المعيّن المقدر فى السائمة ، باعتبارٍ غير الاعتبار الذى يطلق به على صلاة الظهر لفظ الفريضة ؛ والاعتبار الأوّل من القطع ، والثانى من الوجوب ، وقال : فإنها فريضة واجبة ؛ مثل أن يقول : فإنها شئ مقتطع من المال موصوف بالوجوب .

وسادسها صوم شهر رمضان ؛ وهو أضعف وجوباً من الزكاة ، وجعله جُنّة من العقاب ، أى سترة .

وسابعها الحجّ والعمرة ، وهما دون فريضة الصّوْم ، وقال : إنهما ينفيان الفقر ، ويرْحضان الذنب ، أى يغسلانه ؛ رَحَضت الثوب ، وثوب رَحيض . وهذا الكلام يدلّ على وجوب العُمْرة ؛ وقد ذهب إليه كثير من الفقهاء العلماء .

وثامنها صِلة الرّحِم وهى واجبة ، وقطيعة الرحم محرّمة ، قال : فإنها مثراة فى المال ، أى تُثْريه وتُكثّره .

ومَنْسأة فى الأجل ، أى تنسؤه وتؤخره ، ويقال : نسأ الله فى أجلك . ويجوز أنسأه بالهمزة .

فإن قلت : فما الحجة على تقديم وجوب الصلاة ، ثم الزكاة ، ثم الصوم ، ثم الحج ؟

قلت : أما الصّلاة ، فلأن تاركها يقتل ، وإن لم يجحد وجوبها ، وغيرها ليس كذلك ؛ وإنما قدمت الزّكاة على الصوم لأنّ الله تعالى قرنها بالصلاة فى كثير من الكتاب العزيز ، ولم يذكر صوم شهر رمضان إلا فى موضع واحد ، وكثرة تأكيد الشيء وذكره دليلٌ على أنه أهمّ ، وإنما قدّم الصوم على الحجّ ، لأنه يتكرر وجوبه ، والحجّ لا يجب فى العمر إلا مرّة واحدة ، فدلّ على أنه أهمّ عند الشارع من الحج .

ثم قال عليه السلام : « وصدقة السرّ » ، فخرج من الواجبات إلى النوافل . قال : « فإنّها تكفر الخطيئة » ، والتكفير هو إسقاط عقاب مستحقّ بثواب أزيد منه أو توبة وأصله فى اللغة السّتر والتغطية ، ومنه الكافر ؛ لأنّه يغطّى الحق ، وسمى البحر كافرا لتغطيته ما تحته ، وسمى الفلّاح كافرا لأنّه يغطّى الحبّ فى الأرض المحرونة .

ثم قال : « وصدقة العلانية » ، فإنها تدفع ميتة السوء كالغرق والهدم وغيرها .

قال : « وصنائع المعروف ، فإنها تقى مصارع الهوان » كأسْر الروم للمسلم ، أو كأخذ الظّلَمة لغير المستحقّ للأخذ .

ثم شرع فى وصايا أُخَرَ عدّدها . والهَدْى : السيرة ، وفى الحديث : « واهدوا هَدْى عمّار » ، يقال : هَدِىَ فلان هَدْىَ فلان ، أى سار سيرته .

وسمّى القرآن حديثا اتباعا لقول الله تعالى : ﴿ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَٰبِهًا ﴾[1] ؛ واستدلّ أصحابُنا بالآية على أنه محدَث ، لأنه لا فَرْق بين حديث ومحدث فى اللغة . فإن قالوا : إنما أراد أحسن الكلام ، قلنا : لعمرى إنه كذلك ، ولكنه لا يطلق على الكلام القديم لفظة حديث ؛ لأنه إنما سمّى الكلام والمحاورة والمخاطبة حديثا ؛ لأنه أمر يتجدّد حالا فحالا ، والقديم ليس كذلك .

---

(١) سورة الزمر ٢٣ .

ثم قال : « تفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب » : من هذا أخذ ابن عباس قوله : « إذا قرأت آلم حم ، وقعت فى روضات دمثات » .

ثم قال : « فإنه شفاء الصدور » ، وهذا من الألفاظ القرآنية[1] .

ثم سماه قصصا ، اتباعا لما ورد فى القرآن من قوله : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾[2] .

ثم ذكر أن العالم الذى لا يعمل بعلمه كالجاهل الحائر الذى لا يستفيق من جهله .

ثم قال : « بل الحجة عليه أعظم » ، لأنه يعلم الحق ولا يعمل به ، فالحجة عليه أعظم من الحجة على الجاهل ، وإن كانا جميعاً محجوجَيْن ، أما أحدهما فبعلمه ، وأما الآخر فبتمكنه من أن يعلم .

ثم قال : « والحسرة له ألزم » ، لأنه عند الموت يتأسف ألاّ يكون عمل بما علم ، والجاهل لا يأسف ذلك الأسف .

ثم قال : « وهو عند الله ألوم » ، أى أحق أن يلام ، لأن المتمكّن عالم بالقوة ، وهذا عالم بالفعل ، فاستحقاقه اللوم والعقاب أشد .

---

(١) وهو قوله تعالى فى سورة يونس ٥٧ : ﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ ﴾ .

(٢) سورة يوسف ٣

(١١٠)

ومن خطبة له عليه السلام:

الأصل:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّهَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، وَتَحَبَّبَتْ بِالْعَاجِلَةِ، وَرَاقَتْ بِالْقَلِيلِ، وَتَحَلَّتْ بِالْآمَالِ، وَتَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ. لَا تَدُومُ حَبْرَتُهَا، وَلَا تُؤْمَنُ فَجْعَتُهَا. غَرَّارَةٌ ضَرَّارَةٌ، حَائِلَةٌ زَائِلَةٌ، نَافِدَةٌ بَائِدَةٌ، أَكَّالَةٌ غَوَّالَةٌ، لَا تَعْدُو ـ إِذَا تَنَاهَتْ إِلَى أُمْنِيَّةِ أَهْلِ الرَّغْبَةِ فِيهَا وَالرِّضَاءِ بِهَا ـ أَنْ تَكُونَ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً ﴾[١]

لَمْ يَكُنِ امْرُؤٌ مِنْهَا فِي حَبْرَةٍ إِلَّا أَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا عَبْرَةً، وَلَمْ يَلْقَ مِنْ سَرَّائِهَا بَطْناً، إِلَّا مَنَحَتْهُ مِنْ ضَرَّائِهَا ظَهْراً؛ وَلَمْ تَطُلَّهُ فِيهَا دِيمَةُ رَخَاءٍ، إِلَّا هَتَنَتْ عَلَيْهِ مُزْنَةُ بَلَاءٍ.

وَحَرِيٌّ إِذَا أَصْبَحَتْ لَهُ مُنْتَصِرَةً، أَنْ تُمْسِيَ لَهُ مُتَنَكِّرَةً، وَإِنْ جَانِبٌ مِنْهَا اعْذَوْذَبَ وَاحْلَوْلَى، أَمَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ فَأَوْبَى!

لَا يَنَالُ امْرُؤٌ مِنْ غَضَارَتِهَا رَغَباً، إِلَّا أَرْهَقَتْهُ مِنْ نَوَائِبِهَا تَعَباً، وَلَا يُمْسِي مِنْهَا فِي جَنَاحِ أَمْنٍ، إِلَّا أَصْبَحَ عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ.

غَرَّارَةٌ، غُرُورٌ مَا فِيهَا، فَانِيَةٌ، فَانٍ مَنْ عَلَيْهَا، لَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَزْوَادِهَا إِلَّا التَّقْوَى.

---

(١) سورة الكهف ٤٥.

مَنْ أقلَّ منها استكثر مما يؤمنه، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه، وزال عما قليل عنه.

كم من واثق بها قد فجعته، وذي طمأنينة قد صرعته، وذي أبهة قد جعلته حقيراً، وذي نخوة قد ردته ذليلاً!

سلطانها دول، وعيشها رنق، وعذبها أجاج، وحلوها صبر، وغذاؤها سمام، وأسبابها رمام. حيها بعرض موت، وصحيحها بعرض سقم. ملكها مسلوب، وعزيزها مغلوب، وموفورها منكوب، وجارها محروب.

ألستم في مساكن من كان قبلكم أطول أعماراً، وأبقى آثاراً، وأبعد آمالاً، وأعد عديداً، وأكثف جنوداً! تعبدوا للدنيا أي تعبد، وآثروها أي إيثار، ثم ظعنوا عنها بغير زاد مبلغ، ولا ظهر قاطع. فهل بلغكم أن الدنيا سخت لهم نفساً بفدية، أو أعانتهم بمعونة، أو أحسنت لهم صحبة! بل أرهقتهم بالفوادح، وأوهقتهم بالقوارع، وضعضعتهم بالنوائب، وعفرتهم للمناخر، ووطئتهم بالمناسم، وأعانت عليهم ريب المنون. فقد رأيتم تنكرها لمن دان لها، وآثرها وأخلد إليها، حين ظعنوا عنها لفراق الأبد.

وهل زودتهم إلا السغب، أو أحلتهم إلا الضنك، أو نورت لهم إلا الظلمة، أو أعقبتهم إلا الندامة!

أفهذه تؤثرون، أم إليها تطمئنون، أم عليها تحرصون!

فبئست الدار لمن لم يتهمها، ولم يكن فيها على وجل منها!

فاعلموا ـ وأنتم تعلمون ـ بأنكم تاركوها، وظاعنون عنها. واتعظوا فيها بالذين قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ (١)، حملوا إلى قبورهم فلا يدعون ركباناً، وأنزلوا

(١) سورة فصلت ١٥

الأجداثِ فَلَا يُدْعَوْنَ ضِيفاناً ، وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفِيحِ أَجْنَانٌ ، وَمِنَ التُّرابِ أَكْفانٌ ، وَمِنَ الرُّفاتِ جِيرانٌ . فَهُمْ جِيرَةٌ لَا يُجِيبُونَ دَاعِياً ؛ وَلَا يَمْنَعُونَ ضَيْماً ، وَلَا يُبالُونَ مَنْدَبَةً . إِنْ جِيدُوا لَمْ يَفْرَحُوا ، وَإِنْ قُحِطُوا لَمْ يَقْنَطُوا ، جَمِيعٌ وَهُمْ آحادٌ ، وَجِيرَةٌ وَهُمْ أَبْعادٌ ، مُتَدانُونَ لَا يَتَزاوَرُونَ ، وَقَرِيبُونَ لَا يَتَقارَبُونَ .

حُلَماءُ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْغانُهُمْ ، وَجُهَلاءُ قَدْ ماتَتْ أَحْقادُهُمْ ؛ لَا يُخْشَى فَجْعُهُمْ ؛ وَلَا يُرْجَى دَفْعُهُمْ . اسْتَبْدَلُوا بِظَهْرِ الْأَرْضِ بَطْناً ، وَبِالسَّعَةِ ضِيقاً ، وَبِالْأَهْلِ غُرْبَةً ، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً ، فَجَاءُوهَا كَمَا فَارَقُوهَا ، حُفاةً عُراةً قَدْ ظَعَنُوا عَنْها بِأَعْمالِهِمْ ، إِلَى الْحَياةِ الدّائِمَةِ ، وَالدّارِ الْباقِيَةِ ، كَما قالَ سُبْحانَهُ وَتَعالَى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [1] .

الشرح :

خَضِرة ، أى ناضرة ، وهذه اللفظة من الألفاظ النبوية ،قال النبى صلى الله عليه وآله : « إن الدنيا حُلوة خَضِرة ، وإن الله مستخلِفُكم فيها ، فناظر كيف تعملون ! » .

وحُفّت بالشهوات ، كأن الشهوات مستديرة حولها ، كما يحفّ الهودجُ بالثياب ، وحفّوا حوله يحفّون حفًّا : أطافوا به ، قال الله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ﴾ [2] .

قوله : « وتحبّبت بالعاجلة » ، أى تحبّبت إلى الناس بكونها لذة عاجلة ، والنفوس مغرمة مولعة بحبّ العاجل ، فحذف الجار والمجرور القائم مقام المفعول .

قوله : « وراقت بالقليل » ، أى أعجبت أهلها ؛ وإنما أعجبتهم بأمر قليل ليس بدائم .

---

(١) سورة الأنبياء ١٠٤
(٢) سورة الزمر ٧٥

قوله : « وتحلّت بالآمال » من الحلية ، أى تزينت عند أهلها بما يؤمّلون منها .

قوله : « وتزينت بالغرور » ، أى تزينت عند الناس بغرور لاحقيقة له .

والحَبْرة : السرور . وحائلة : متغيرة . ونافدة : فانية . وبائدة : منقضية . وأكّالة : قتالة ، وغوّالة : مهلكة . والغُول : ماغال ، أى أهلك ؛ ومنه المثل : «الغضب غُول الحلم» .

ثم قال : إنها إذا تناهت إلى أمنية ذوى الرغبات فيها لاتتجاوز أن تكون كما وصفها الله تعالى بهو هو قوله : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ .

فاختلط ، أى فالتف بنبات الأرض ، وتكاثف به ، أى بسبب ذلك الماء وبنزوله عليه ؛ ويجوز أن يكون تقديره : فاختلط بنبات الأرض ، لأنه لما غذّاه وأنماه ، فقد صار مختلطا به ، ولمّا كان كلّ واحد من المختلطين مشاركاً لصاحبه فى مسمّى الاختلاط جاز « فاختلط به نبات الأرض » ، كما يجوز : فاختلط هو بنبات الأرض .

والهشيم : ماتهشّم وتحطّم ، الواحدة هشيمة . وتذروه الرياح : تطيّره . وكان الله على مايشاء ، من الإنشاء والإفناء ، مقتدرا .

قوله : « من يلق من سرّائها بطنا » إنما خصّ السرّاء بالبطن ، والضرّاء بالظهر ، لأن الملاقى لك بالبطن ملاقٍ بالوجه ، فهو مقبل عليك ، والمعطيك ظهره مدبر عنك . وقيل : لأن الترس بطنه إليك وظهره إلى عدوك ، وقيل : لأنّ المشى فى بطون الأودية أسهلُ من السير على الظّراب والآكام .

وطلّه السحاب يطُلّه ، إذا أمطره مطرا قليلا ، يقول : إذا أعطت قليلا من الخير أعقبت ذلك بكثير من الشر ، لأنّ التهتان الكثير المطر ، هتن يهتِن بالكسر ، هَتْنا وهُتونا وتَهْتانا .

قوله : «وحرىّ» ، أى جدير وخليق ، يقال : بالحَرَى أن يكون هذا الأمر كذا ، وهذا الأمر مَحْرَاة لذلك ، أى مَقْمَنة ، مثل مَحْجاة ، وما أحراه مثل ما أحجاه ، وأحْرِ به ، مثل أحْجِ به ، وتقول : هو حَرًى أن يفعل ذلك بالفتح ، أى جدير وقمين ، لايثنى ولا يجمع ، قال الشاعر :

وَهُنَّ حَرًى أَلَّا يُثِبْنَكَ نَقْرَةً   وَأَنْتَ حَرًى بالنارحين نُثِيبُ[1]

فإذا قلت : هوحرٍ بكسر الراء ، وحرىّ بتشديدها على «فعيل» ثنيت وجمعت ، فقلت : هما حَرِيَانِ وحَرِيّان ، وحَرُون مثل عَمُون ، وأحراء أيضا ، وفى المشدد حَرِيّون وأحرياء ، وهى حرية وحَرِيّة ؛ وهن حَرِيَات وحَرِيّات وحرايا .

فإن قلت : فهلا قال : «وحريّة إذا أصبحت» ، لأنه يخبر عن الدنيا ؟

قلت : أراد شأنها ، فذكّر ، أى وشأنها خليق أن يفعل كذا .

واعذوذب : صار عذبا ، واحلولى : صار حلواً ، ومن هاهنا أخذ الشاعر قوله :

ألا إنّما الدّنيا غضارة أيكةٍ   إذا اخضرّ منها جانبٌ جفّ جانبُ

فلا تكتحل عيناك منها بعَبرةٍ   على ذاهبٍ منها فإنك ذاهبُ

وارتفع «جانب» المذكور بعد «إن» لأنه فاعل فعل مقدر يفسّره الظاهر ؛ أى وإن اعذوذب جانبٌ منها ، لأن «إنْ» تقتضى الفعل وتطلبه فهى : كـ «إذا» فى قوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴾[2] .

وأمرّ الشىء ، أى صار مرًّا . وأوْبَى : صار وبيًّا ، ولين المنز ، لأجل السجع .

والرّغْب : مصدر رغبت فى الأمر رغْبة ورَغْبا ، أى أردته .

يقول: لاينال الإنسان منها إرادته إلا أرهقته تَعَبا، يقال : أرهقه إثما، أى حَمّله وكلّفه .

---

(١) البيت فى اللسان ١٨ : ١٨٨ ، من غير نسبة .

(٢) سورة الانشقاق ١

فإن قلت : لم خصّ الأمن بالجناح والخوف بالقوادم ؟

قلت : لأنّ القوادم مقاديمُ الريش ، والراكب عليها بمرَض خطر عظيم وسقوط قريب ، والجناح يستروبقي البرد والأذى ، قال أبو نُوَاس :

تَغَطَّيْتُ مِنْ دَهْرِى بظلِّ جناحه فصرت أرى دَهْرِى وَلَيْسَ يَرَانى [1]

فلو تسأل الأيامَ ما اسمى لما دَرَتْ وأينَ مكانى ما عرفْنَ مكانى

والهاء فى « جناحه » ترجع إلى الممدوح [2] بهذا الشعر .

ونُوبقه : تهلكه ، والأبّهة : الكبْر . والرَّنق ، بفتح النون ، مصدر رَنِقَ الماءُ ، أى تكدّروبالكسر الكدر ، وقد روى هاهنا بالفتح والكسر ، فالكسر ظاهر ، والفتح على تقدير حذف المضاف ، أى ذو رَنَق .

وماء أُجاج : قد جمع المرارة والملوحة ، أجّ الماء يؤجّ أجاجا . والصبر ، بكسر الباء : هذا النبات المرّ نفسه ، ثم سمّى كل مرّ صبراً . والسمام : جمع سَمّ لهذا القاتل ، يقال سَمّ وسُمّ ، بالفتح والضم ، والجمع سِمام وسُموم .

ورمام : بالية ، وأسبابها : حبالها . وموفورها : ذو الوفْر والثروة منها ، والمحروب : المسلوب ، أى لا تحمى جارا ولا تمنعه .

ثم أخذ قوله تعالى : ﴿ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾ [3] فقال : « ألستم فى مساكن مَن كان قبلكم أطول أعمارا » ، نصب « أطول » بأنه خبر كان ، وقد دلّنا الكتاب الصادق على أنهم كانوا أطول

(١) ديوانه ٩٧

(٢) هو محمد بن الفضل بن الربيع .

(٣) سورة إبراهيم ٤٥ .

أعمارا بقوله: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً﴾ [1] ، وثبت بالعيان أنهم أبقى آثارا؛ فإن من آثارهم الأهرام والإيوان ومنارة الإسكندرية وغير ذلك . وأمّا بُعْدُ الآمال فمرتّب على طول الأعمـــار ، فكلّما كانت أطول كانت الآمال أبعد ، وإن عَنَى به علوّ الهمم ، فلا ريب أنهم كانوا أعلى همماً من أهل هذا الزمان ؛ وقد كان فيهم مَنْ ملَكَ معمورة الأرض كلّها ، وكذلك القول في « أعدّ عديداً ، وأ كثف جنوداً » ، والعديد : العدوّ الكثير ؛ وأعدّ منهم ، أي أ كثر .

قوله : « ولا ظهر قاطع » ، أي قاطع لمسافة الطريق .

والفوادح : المثقلات ، فدحه الدَّين أثقله ؛ ويروى « بالقوادح » بالقاف ؛ وهي آفة تظهر في الشجر ، وصدوع تظهر في الأسنان .

وأوهقتهم : جعلتهم في الوَهَق بفتح الهاء ، وهو حبل كالطِّوَل [2] ويجوز التسكين ، مثل نَهَر ونَهْر .

والقوارع : المحن والدواهي ؛ وسميت القيامة قارعة في الكتاب العزيز من هذا المعنى وضعضعتهم : أذلّتهم ، قال أبو ذؤيب :

• أني لِرَيْبِ الدَّهْرِ لا أتضعضع • [3]

وضعضعت البناء : أهدمته .

وعفّرتهم للمناخر . ألصقت أنوفهم بالعَفَر ، وهو التراب والمناسم : جمع منسِم، بكسر السين وهو خفّ البعير .

(١) سورة العنكبوت ١٤

(٢) الطول ، أو الطيل : حبل طويل يشد به قائمة الدابة .

(٣) ديوان الهذليين ١ : ٣ ؛ وصدره :

• وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ •

ودان لها : أطاعها ، ودان لها أيضا : ذل . وأخلد إليها : مال ، قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾[1].

والسَّغَب : الجوع : يقول : إنما زودتهم الجوع ، وهذا مثل ، كما قال :

* ومدحتُه فأجازَني الحرمانا *

ومعنى قوله : « أو نوّرت لهم إلا الظلمة » ؛ أي بالظلمة ؛ وهذا كقوله : « هل زودتهم إلا السَّغب » . وهو من باب إقامة الضدّ مقام الضدّ ، أي لم تسمح لهم بالنور بل بالظلمة . والضنك : الضيق .

ثم قال : فبئست الدار ، وحذف الضمير العائد إليها وتقديره « هى » كما قال تعالى : ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ﴾[2] ، وتقديره : « هو » .

ومن لم ينههما : من لم يسوّ ظلًّا بها . والصفيح : الحجارة . والأجنان : القبور ، الواحد جَنَن ، والجنون : المقبور ، ومنه قول الأعرابية : « لله درّك من مجنون فى جَنَن ! » . والأكنان : جمع كِنّ : وهو السّتر ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا ﴾[3].

والرُّفات : العظام البالية . والندبة : الندْب على الميت . لا يبالون بذلك : لا يكترثون به . وجِيدوا : مُطِروا . وقُحِطوا : انقطع المطر عنهم فأصابهم القَحْط ، وهو الجدب وإلى معنى قوله عليه السلام : « فهم جيرة لا يجيبون داعيا ، ولا يمنعون ضيما ، جميع وهم آحاد ، وجيرة وهم أبعاد ، متدانون لا يتزاورون ، وقريبون لا يتقاربون » نظر البحترىّ ، فقال :

(١) سورة الأعراف ١٧٦
(٢) سورة ص ٣٠
(٣) سورة النحل ٨١

بنا أنت من مجفوة لم تؤنب ومهجورة فى هجرها لم تعتب[١]
ونازحة والدار منها قريبة وما قرب ثاوفى التراب مقيب!

وقد قال الشعراء والخطباء فى هذا المعنى كثيرا ، فمن ذلك قول الرضى أبى الحسن رحمه الله فى مرثيته لأبى إسحاق الصابى :

أعزز على بأن نزلت بمنزل متشابه الأمجاد بالأوغاد[٢]
فى عصبة جنبوا إلى آجالهم والدهر يعجلهم عن الإزواد
ضربوا بمدرجة الفناء قبابهم من غير أطناب ولا أوتاد
ركب أناخوا لا يرجى منهم قصد لإتهام ولا إنجاد
كرهوا النزول فأنزلتهم وقعة للدهر نازلة بكل مقاد
فتهافتوا عن رحل كل مذلل وتطاوحوا عن سرج كل جواد
بادون فى صور الجميع وإنهم متفردون تفرد الآحاد

فقوله : «بادون فى صور الجميع... » البيت ، هو قوله عليه السلام : « جمع وهم آحاد » بعينه.

وقال الرضى رحمه الله تعالى أيضا :

متوسدين على الخدود كأنما كرعوا على ظمإ من الصهباء[٣]
صور ضننت على العيون بحسنها أمسيت أوقرها من البوغاء[٤]
ونواظر كحل التراب جفونها قد كنت أحرسها من الأقذاء
قربت ضرائحهم على زوارها ونأوا عن الطلاب أى تناء[٥]

---

(١) ديوانه ١ : ٤٩
(٢) ديوانه لوحة ١٢٩ مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات
(٣) ديوانه لوحة ١١٦ من مرثيته لوالدته .
(٤) لحظها : ملاحظتها . والبوغاء : التربة الرخوة
(٥) الضرائح : جمع ضريح ؛ وهو القبر .

قوله : « قربت ضرائحهم ... » البيت هو معنى قوله عليه السلام : « وجيرة ، وهم أبعاد » بعينه .

ومن هذا المعنى قول بعض الأعراب : [1]

لـكلِّ أناس مقـــبرٌ فى ديارهم[2]   فهمْ ينقصـــون ، والقبور تزيدُ
فكائن ترى من دار حيٍّ قد أخربت   وقبرٍ بأكناف التراب جديدُ[3]
همُ جيرة الأحياء ، أمّا مزارهم[4]   فدانٍ ، وأما الملتقى فبعيـــدُ

ومن كلام ابن نُباته : « وحيدا على كثرة الجيران ، بعيدا على قرب المكان » .

ومنه قوله : « أسير وحشة الانفراد ، فقير إلى اليسير من الزاد ، جارُ من لا يجير ، وضيفُ من لا يمير ، حلُّوا ولا يرون ركبانا ، وأنزلوا ولا يُدْعَون ضيفانا ، واجتمعوا ولا يُسَمَّون جيرانا ، واحتشدوا ولا يعدّون أعوانا ، وهذا كلام أمير المؤمنين عليه السلام بعينه المذكور فى هذه الخطبة ، وقد أخذه مصالتة .

ومنه قوله : « طحنتهم طحن الحصيد ، وغيّبتهم تحت الصعيد ، فبطون الأرض لهم أوطان ، وهم فى خرابها قُطّان ، عمروا فأخربوا ، واقتربوا فاغتربوا ، واصطحبوا وما اصطحبوا » .

ومنه قوله : « غُيّبا كأشهاد ، عصبا كآحاد ، همودا فى ظُلَمِ الألحاد ، إلى يوم التناد » .

---

(١) لعبد الله بن ثعلبة الحنفى ؛ حماسة أبى تمام — بشرح المرزوقى ٨٩١ .
(٢) الحماسة :

* لِـكُلِّ أُناسٍ مَقْبَرٌ بِفِنَائِهِمْ *

(٣) رواية الحماسة :

وما إن يَزَالُ رسمُ دارٍ قد اخلقتْ   وبيْتٌ لميْتٍ بالفَنَاء جَـــديدُ

(٤) الحماسة : « أما جوارهم » .

واعلم أن هذه الخطبة ذكرها شيخنا أبو عثمان الجاحظ فى كتاب " البيان والتبيين[١] " ، ورواها لقَطَرِىّ بن الفجاءة ، والناس يروونها لأمير المؤمنين عليه السلام ، وقد رأيتها فى كتاب " المونق " لأبى عبيد الله المرزبانىّ مروية لأمير المؤمنين عليه السلام ؛ وهى بكلام أمير المؤمنين أشبه ؛ وليس يبعد عندى أن يكون قطرىّ قد خطب بها بعد أن أخذها عن بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ، فإن الخوارج كانوا أصحابه وأنصاره ؛ وقد لقى قَطَرِىّ أكثرهم .



(١) البيان والتبيين ٢ : ١٢٦ — ١٢٩ ؛ وهى أيضا بنسبتها إلى قطرى فى العقد ١ : ١٤١ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٢٣ ، وعيون الأخبار ٢ : ٢٥٠ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٥٠

(١١١)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام : يذكر فيها ملك الموت وتوفية الأنفس :

هَلْ تُحِسُّ بِهِ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلاً ، أَمْ هَلْ تَرَاهُ إِذَا تَوَفَّى أَحَداً ! بَلْ كَيْفَ يَتَوَفَّى الْجَنِينَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ ! أَيَلِجُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ جَوَارِحِهَا ، أَمِ الرُّوحُ أَجَابَتْهُ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، أَمْ هُوَ سَاكِنٌ مَعَهُ فِي أَحْشَائِهَا !

كَيْفَ يَصِفُ إِلَهَهُ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ !

* * *

الشرح :

أما مذهب جمهور أصحابنا؛ وهم النافون للنفس الناطقة ؛ فعندهم أنّ الروح جسم لطيف بخاري، يتكوّن من ألطف أجزاء الأغذية ، ينفذ في العروق الضوارب ، والحياة عرَض قائم بالروح وحالّ فيها ؛ فللدماغ روح دماغية وحياة حالّة فيها ؛ وكذلك القلب ؛ وكذلك الكبد ؛ وعندهم أن لملك الموت أعواناً تقبض الأرواح بحكم النيابة عنه ؛ لولا ذلك لتعذّر عليه وهو جسم أن يقبض روحين في وقت واحد في المشرق والمغرب ؛ لأنّ الجسم الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد . قال أصحابنا : ولا يبعد أن يكون الحفظة الكاتبون هم القابضين للأرواح عند انقضاء الأجل ، قالوا : وكيفية القبض ولوج الملك من الفم إلى القلب ، لأنه جسم لطيف هوائيّ لا يتعذّر عليه النفوذ في المخارق الضيّقة ، فيخالط الروح

التى هى كالشبيهة به ، لأنها جسم لطيف بخارى ، ثم يخرج من حيث دخل وهى معه ، وإنما يكون ذلك فى الوقت الذى يأذن الله تعالى له فيه ؛ وهو حضور الأجل، فألزموا على ذلك أن يغوص الملك فى الماء مع الغريق ؛ ليقبض روحه تحت الماء ؛ فالتزموا ذلك ، وقالوا : ليس بمستحيل أن يتخلل الملك الماء فى مسام الماء ؛ فإن فيه مسام ومنافذ ، وفى كل جسم على قاعدتهم فى إثبات الماء فى الأجسام .

قالوا : ولو فرضنا أنه لامسام فيه ، لم يبعد أن يلجه الملك فيوسع لنفسه مكانا كما يلجه الحجر والسمك وغيرهما ، وكالريح الشديدة التى تقرع ظاهر البحر فتقمره ، وتمخره ، وقوة الملك أشد من قوة الريح .

ثم نعود إلى الشرح فنقول :

الملك أصله « مألك » بالهمز ، ووزنه « مفعل » والميم زائدة ، لأنه من الألوكة والألوك ؛ وهى الرسالة ، ثم قلبت الكلمة وقدمت اللام فقيل ملأك ، قال الشاعر :

فلستُ لإنسيٍّ ولكنْ لِملأكٍ تنزَّلَ من جوِّ السماء يصوبُ [(١)]

ثم تركت همزته لكثرة الاستعمال ، فقيل : « ملك » ، فلما جمع ردت الهمزة إليه ، فقالوا : ملائكة وملائك ، قال أمية بن أبى الصلت :

وَكَأَنَّ برْقِعَ والملائكُ حولها سَدِرٌ تواكله القوائمُ أجردُ [(٢)]

والتوفى : الإماتة وقبض الأرواح ، قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [(٣)] .

والتقسيم الذى قسمه فى وفاة الجنين حاصر ؛ لأننا مع فرضنا إياه جسما يقبض الأرواح التى فى الأجسام ؛ إما أن يكون مع الجنين فى جوف أمه فيقبض روحه عند حضور أجله ،

(١) اللسان ١٢ : ٢٧٤ من غير نسبة .
(٢) اللسان ٦ : ٣٠
(٣) سورة الزمر ٤٢

أو خارجا عنها . والقسم الثانى ينقسم قسمين : أحدهما أن يَلِجَ جوف أمه لقبْض روحه فيقبضها ، والثانى أن يقبضها من غير حاجة إلى الولوج إلى جوفها ؛ وذلك بأن تطيعه الرُّوح وتكون مسخَّرة إذا أراد قبضها امتدّت إليه فقبضها . وهذه القسمة لا يمكن الزيادة عليها، ولو قسمها واضع المنطق لما زاد .

ثم خرج إلى أمر آخَرَ أعظم وأشرف ممّا ابتدأ به ، فقال : « كيف يصف إلهه مَنْ يعجز عن وصف مخلوق مثله » ! وإلى هذا الغرض كان يترامَى ، وإياه كان يقصد ؛ وإنما مهّد حديث الملك والجنين توطئة لهذا المعنى الشريف ، والسرّ الدقيق .

[فصل فى التخلص وسياق كلام للشعراء فيه]

يسمّى هذا الفنّ بعض أرباب علم البيان التخلّص ، وأكثر مايقع فى الشعر ، كقول أبى نواس :

تقول التى من بيتها خفَّ مركبى ... عزيزٌ علينا أن نراكَ تسيرُ[1]

أما دونَ مصرٍ للغنى متطلَّب ! ... بلى ، إن أسبابَ الغنى لكثيرُ

فقلت لها واستعجلتْها بوادرٌ ... جرَتْ ، فجرى فى جريهنّ عَبيرُ :

ذريِنى أكثّر حاسديكِ برحلةٍ ... إلى بلد فيه الخصيب أميرُ

ومن ذلك قول أبى تمام :

يقولُ فى قُومِسٍ صحبى وقد أخذتْ ... منّا السُّرَى وَخُطا المَهْرِيّةِ القُودِ[2]

أمَطْلِعَ الشمس تبغى أن تؤمّ بنا ... فقلت كلاّ ولكن مطلعَ الجودِ

---

(١) ديوانه ٩٩ ، من قصيدة يمدح فيها الخصيب بن عبد الرحمن المرادى ، أمير مصر .

(٢) ديوانه ٢ : ١٣٠ ؛ قومس : بلد بين العراق وخراسان .

ومنه قول البحترى:

هل الشباب ملمٌّ بى فراجعةٌ   أيامُه لِيَ فى أعقاب أيامى ؟[1]

لو أنه نائل غَمْرٌ يجاد به   إذن تطلبْتُه عند ابن بسطام

ومنه قول المتنبى ؛ وهو يتغزل بأعرابية ، ويصف بخلها وجبنها وقلة مطعمها ؛ وهذه كلها من الصفات الممدوحة فى النساء خاصة[2]:

فِى مُقْلَتَىْ رشأ تديرُهما   بدويةٌ فُتِنَتْ بها الحِلَلُ[3]

تشكُو المطاعمُ طولَ هِجْرَتِها   وصدودَها، ومَنِ الذى تصلُ!

ماأسأرت فى القَعْبِ من لبنٍ   تركَتْه، وهو المسك والعسل

قالت :ألا تصحو فقلت لها   أعلمْتِنِى أن الهوى ثَمِلُ

لَوْ أنّ فناخُسْرَ صبَّحكم   وبرزتِ وحدكِ عاقه الغزَلُ[4]

وتفرقتْ عنكم كتائبُه   إن الملاحَ خوادعٌ قُتُلُ

ما كنتِ فاعلةً وضيفُكُمُ   ملكُ الملوك وشأنُكِ البَخَلُ

أتمنّعين قِرًى فتفتضحى   أم تبذُلين له الّذِى يَسَلُ

بل لايحلّ بحيث حَلَّ به   بخلٌ ولا جَوْرٌ ولا وَجَلُ

وهذا من لطيف التخلّص ورشيقه، والتخلص مذهب الشعراء ،والمتأخرون يستعملونه كثيرا ، ويتفاخرون فيه ويتناضلون ، فأماالتخلّص فى الكلام المنثور فلايكاد يظهر لمتصفّح الرسالة أو الخطبة إلا بعد تأمّل شديد ؛ وقد وردت منه مواضع فى القرآن العزيز ؛ فمن

---

(١) المثل السائر ٢ : ٢٦٥

(٢) ديوانه ٣ : ٣٠١ ؛ من قصيدة يمدح فيها ركن الدولة .

(٣) الرشأ : ولد الظبية الصغير . والحلل : جمع حلة ؛ وهى القوم المجتمعون فى بيوت مجتمعة للنزول . والبدوية : الساكنة البدو .

(٤) فناخسر ؛ هو اسم عضد الدولة . وصبحكم : أتاكم صباحاً للغارة .

أبينها وأظهرها أنه تعالى ذكر فى سورة الأعراف الأمم الخالية ؛ والأنبياء الماضين من لدن آدم عليه الصلاة والسلام ، إلى أن انتهى إلى قصة موسى ، فقال فى آخرها بعد أن شرحها وأوضحها : ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ ﴾[1] .

وهذا من التخلصات اللطيفة المستحسنة .

[فصل فى الاستطراد وإيراد شواهد للشعراء فيه]

واعلم أنّ من أنواع علم البيان نوعاً يسمّى الاستطراد ، وقد يسمّى الالتفات ، وهو من جنس التخلّص وشبيه به ، إلّا أنّ الاستطراد هو أن تخرج بعد أن تمهّد ما تريد أن تمهّده إلى الأمر الذى تروم ذكره فتذكره ، وكأنك غيرُ قاصد لذكره بالذّات ، بل قد حصل ووقع ذكره بالعرَض عن غير قصد ، ثم تدعه وتتركه ، وتعود إلى الأمر الذى كنت فى تمهيده ، كالمقبل عليه ، وكالملغى عمّا استطردت بذكره ، فمن ذلك قول البحترىّ وهو يصف فرساً :

(١) سورة الأعراف ١٥٥ — ١٥٧

وأغرَّ في الزَّمن البهيم مُحَجَّلٍ قدْ رُحتُ مِنْهُ عَلَى أغرَّ مُحَجَّلِ[1]

كالهيكل المبنيِّ إلّا أنّه فى الحسن جاء كصورةٍ فى هيكلِ

وافِي الضلوع يشدُّ عقد حزامه يومَ اللقاء على مُعَمٍّ مُخْوِلِ

أخواله للرستمين بفارسٍ وجدُودُه للتُّبَّعين بمَوْكلِ

يهوى كما هوت العُقابُ وقد رأتْ صيداً، وينتصب انتصابَ الأجدلِ

متوجِّس برقيقتين كأنّما تُرَيانِ من ورقٍ عليه مكلَّلِ

ما إن يعاف قَذًى ولو أوردته يوماً خلائقَ حَمْدَوَيْهِ الأحول

ذَنَبٌ كما سُحِبَ الرِّشاءُ يذبُّ عن عُرْفٍ، وعرفٌ كالقناع المسبَلِ

جذلانُ ينفض عُذْرةً فى غُرَّةٍ يَقَقٍ تسيل حجولها فى جَنْدَلِ

كالرائح النشوان أكثرُ مشيه عرضاً على السَّنن البعيد الأطولِ

ذهب الأعالي حيث تذهب مقلةٌ فيه بناظرها حديدُ الأسفلِ

هزج الصَّهيل كأنّ فى نغماته نبراتُ معبد فى الثقيل الأولِ

مَلَكَ القلوب، فإن بدا أعطينه نَظَرَ المحبِّ إلى الحبيب المقبلِ

ألا تراه كيف استطرد بذكر حَمدويه الأحول الكاتب، وكأنه لم يقصد ذلك ولا أراده وإنّما جرَّته القافية، ثم ترك ذكره وعاد إلى وصف الفرس؛ ولو أقسم إنسانٌ أنه ما بنى القصيدة منذ افتتحها إلّا على ذكره، ولذلك أتى بها عَلَى رويّ اللام، لكان صادقاً. فهذا هو الاستطراد.

ومن الفرق بينه وبين التخلّص أنك فى التخلّص متى شرعتَ فى ذكر الممدوح

---

(١) ديوانه ٢ : ٢١٧، ٢١٨ (طبع الجوائب).

أو الهجوَ تركت ما كنت فيه من قبل بالكلّية وأقبلت على ما تخلّصت إليه من المدح والهجاء بيتا بعد بيت ؛ حتى تنقضيَ القصيدة ، وفى الاستطراد تمرّ على ذكر الأمر الذى استطردت به مرورا كالبرق الخاطف ؛ ثم تتركه وتنساه ، وتعود إلى ما كنت فيه كأنك لم تقصد قصْدَ ذاك ، وإنما عرض عروضا . وإذا فهمت الفرق فاعلم أنّ الآيات التى تلوناها إذا حقّقتَ وأمعنت النظر ، من باب الاستطراد ، لا من باب التخلّص ، وذلك لأنه تعالى قال بعد قوله : ﴿ وَٱتَّبَعُوا ٱلنُّورَ ٱلَّذِى أُنزِلَ مَعَهُ أُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ● قُلْ يَـٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ● وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ● وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[1] . فعاد إلى ما كان فيه أولا ، ثم مرّ فى هذه القصّة ، وفى أحوال موسى وبنى إسرائيل حتى قارب الفراغ من السّورة .

ومن لطيف التخلّص الذى يكاد يكون استطرادا ، لولا أنه أفسده بالخروج إلى المدح ، قولُ أبى تمام فى قصيدته التى يمدح بها محمد بن الهيثم التى أوّلها :

أَسْقَى طُلُولَهُمُ أَجَشُّ هَزِيمُ   وَغَدَتْ عَلَيْهِمْ نَضْرَةٌ وَنَعِيمُ[2]

جَادَتْكَ ظَالِمَةُ البرىء ظَلُومُ   والظُّلْمُ من ذِى قُدْرَةٍ مذْمُومُ

زَعَمَتْ هواكَ عَفَا الغداةَ كَمَا عَفَتْ   مِنْهَا طلولٌ بالِلّوى ورسومُ

---

(١) سورة الأعراف ١٥٨ — ١٦٠ .

(٢) ديوانه ٣ : ٢٨٩ .

لا والذى هو عالِمٌ أنّ النّوى صَبِرٌ وأنَّ أبا الحسين كريمُ
ما حُلْتُ عمّا تعهدين ولا غدت[1] نفسى على إلْفِ سِواكِ تحومُ

فلو أتمّ متغزلا لكان مستطردا لامحالة ، ولكنه نقض الاستطراد ، وغمس يده فى اللجج ، فقال بعد هذا البيت :

لمحمد بن الهيثم بن شُبانةٍ مجدٌ إلى جَنْب السّماك مقيمُ
ملك إذا نسبَ النّدى من مُلتقى طرَفَيْه فهو أخٌ له وحميمُ

ومضَى على ذلك إلى آخرها .

* * *

ومن الاستطراد أن يحتالَ الشاعر لذكر ما يروم ذكره ، بوصف أمر ليس من غرضه ، ويدمج الغرض الأصلىّ فى ضمن ذلك وفى غضونه ؛ وأحسنُ مايكون ذلك إذا صرّح بأنه قد استطرد ونصّ فى شعره على ذلك ، كما قال أبو إسحاق الصابى فى أبيات كتبها إلى أبى القاسم عبد العزيز بن يوسف كاتب عضد الدولة ، كتبها إليه إلى شيراز وأبو إسحاق فى بغداد ، وكانت أخبار فتوح عضد الدولة بفارس وكرمان وما والاها متواصلةً مترادفة إلى العراق ، وكُتُب عبد العزيز واصلة بها إلى عزّ الدولة بختيار والصابى يجيب عنها :

يا راكبَ الجسْرةِ الوجْناءِ الأُجُدِ بَطْوى المَهامه من سهل إلى جَلَدِ
أبلغ أبا قاسمٍ ــ نفسى الفداء له ــ مقالةً من أخ للحقّ معتمدِ
فى كلّ يوم لكم فتحٌ يُشادُ به بين الأنام بذكر السّيد العضُدِ
وما لنا منــــــه لكننا أبدا نجيبكم بجواب الحامد الكمِدِ
فأنت أكتب منّى فى الفتوح وما تجرى مجيبا إلى شأوى ولا أمَدى

(١) الديوان :
* ما زلْتُ عن سَنن الوداد ولا غدَتْ *

وما ذممتُ ابتـدائى فى مكاتبـة ولا جوابكمُ فى القرب والبُعُدِ
لـكنَّنى رمت أن آتى على مَلِكٍ مستطرد بمـديح فيـه مطَّرِدِ

ولقد ظرُف وملُح أبو إسحاق فى هذه الأبيات ، ومتى خلا أو عَرِىَ عن الظرف والملاحة ، ولقد كان ظرفا ولباقة كلّه !

وليس من الاستطراد ما زعم ابن الأثير الموصلى فى كتابه المسمى " بالمثل[1] السائر " أنه استطراد ؛ وهو قول بعض شعراء الموصل يمدح قرواش بن المقلّد ، وقد أمره أن يعبث بهجاء وزيره سليمان بن فهد ، وحاجبه أبى جابر ومغنّيه المعروف بالبرقعيدى ، فى ليلة من ليالى الشتاء وأراد بذلك الدّعابة والولع بهم ، وهم فى مجلس فى شراب وأنس ، فقال وأحسن فيما قال :

وليـلٍ كوجه البرقعيدىّ ظلمـةً وبَرْدِ أغانيـه وطُـول قُرونِهِ
سَرَيْتُ ونومى فيه نومٌ مشرَّدٌ كَعَقْلِ سليمانَ بن فهـد ودِينِه
على أَوْلَقٍ فيـه التفـاتٌ كأنه أبو جابر فى خَبْطِه وجنونه
إلى أن بدا ضوء الصَّباح كأنه سَنَا وَجْهِ قِرْواشٍ وَضَوْءِ جبينه

وذلك لأن الشاعر قصد إلى هجاء كلّ واحد منهم ، ووضع الأبيات الثلاثة ، وأمره قرواش رئيسهم وأميرهم بذلك ، فهجاهم ومدحه ولم يستطرد . وهذه الأبيات تشبيهات كلّها مقصود بها الهجاء ، لم يأت بالعرض فى الشعر كما يأتى الاستطراد .

وهذا غلط من مصنف الـكتاب .

(١) المثل السائر ٢ : ٢٧١

(١١٢)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

وأحذركم الدنيا فإنها منزل قلعة ، وليست بدار نجعة ؛ قد تزينت بغرورها ، وغرت بزينتها . دار هانت على ربها فخلط حلالها بحرامها ، وخيرها بشرها ، وحياتها بموتها ، وحلوها بمرها . لم يصفها الله تعالى لأوليائه ، ولم يضن بها على أعدائه . خيرها زهيد ، وشرها عتيد ، وجمعها ينفد ، وملكها يسلب ، وعامرها يخرب . فما خير دار تنقض نقض البناء ، وعمر يفنى فيها فناء الزاد ، ومدة تنقطع انقطاع السير !

اجعلوا ما افترض الله عليكم من طلبكم ، واسألوه من أداء حقه كما سألكم ، وأسمعوا دعوة الموت آذانكم قبل أن يدعى بكم .

إن الزاهدين في الدنيا تبكي قلوبهم وإن ضحكوا ، ويشتد حزنهم وإن فرحوا ، ويكثر مقتهم أنفسهم وإن اغتبطوا بما رزقوا .

قد غاب عن قلوبكم ذكر الآجال ، وحضرتكم كواذب الآمال ، فصارت الدنيا أملك بكم من الآخرة ، والعاجلة أذهب بكم من الآجلة ؛ وإنما أنتم إخوان على دين الله ، ما فرق بينكم إلا خبث السرائر ، وسوء الضمائر ؛ فلا توازرون ولا تناصحون ، ولا تباذلون ولا توادون .

ما بالكم تفرحون باليسير من الدنيا تدركونه ، ولا يحزنكم الكثير من الآخرة تحرمونه ! ويقلقكم اليسير من الدنيا يفوتكم ؛ حتى يتبين ذلك في

وُجُوهِكُمْ، وَقِلَّةِ صَبْرِكُمْ عَمَّا زُوِيَ مِنْهَا عَنْكُمْ؛ كَأَنَّهَا دَارُ مُقَامِكُمْ، وَكَأَنَّ مَتَاعَهَا بَاقٍ عَلَيْكُمْ.

وَمَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ أَنْ يَسْتَقْبِلَ أَخَاهُ بِمَا يَخَافُ مِنْ عَيْبِهِ؛ إِلاَّ مَخَافَةُ أَنْ يَسْتَقْبِلَهُ بِمِثْلِهِ.

قَدْ تَصَافَيْتُمْ عَلَى رَفْضِ الآجِلِ، وَحُبِّ الْعَاجِلِ، وَصَارَ دِينُ أَحَدِكُمْ لُعْقَةً عَلَى لِسَانِهِ، صَنِيعَ مَنْ فَرَغَ مِنْ عَمَلِهِ، وَأَحْرَزَ رِضَا سَيِّدِهِ.

* * *

الشَّـرْحُ :

قوله عليه السلام : « فإنها منزلُ قُلْعة » بضم القاف وسكون اللام ، أي ليست بمستوطنة . ويقال : هذا مجلس قُلْعة ، إذا كان صاحبه يحتاج إلى أن يقوم مرة بعد مرة . ويقال : هم على قُلْعة ، أي على رحلة ، ومن هذا الباب . قولهم : فلان قُلْعة ، إذا كان ينقلع عن سرجه ، ولا يثبت في البطش والصراع ، والقلعة أيضا : المال العارية ، وفي الحديث : « بئس المال القلعة ».

والنُّجعة : طلب الكلأ في موضعه ، وفلان ينتجع الكلأ ، ومنه انتجعت فلانا ، إذا أتيته تطلب معروفه .

ثم وصف هوان الدنيا على الله تعالى ، فقال : « من هوانها أنه خلّط حلالها بحرامها... » الكلام ، مراده تفضيل الدار الآتية على هذه الحاضرة ، فإنّ تلك صفو كلّها وخير كلّها ؛ وهذه مشوبة ؛ والكدَر والشرّ فيها أغلب من الصّفْو والخير . ومن كلام بعض الصالحين : من هوان الدّنيا على الله أنه لا يعصَى إلا فيها ، ولا يُنال ما عنده إلا بتركها . ويروى : « ولم يضنّ بها على أعدائه » ، والرواية المشهورة « عن أعدائه » ، وكلاهما مستعمل .

والزهيد : القليل ، والعتيد : الحاضر . والسير : سير المسافر .

ثم أمرهم بأن يحملوا الفرائض الواجبة عليهم من جُمْلة مطلوباتهم ، وأن يسألوا الله من الإعانة والتوفيق على القيام بحقوقه الواجبة كما سألهم ، أى كما ألزمهم وافترض عليهم ، فسمّى ذلك سؤالا لأجل المقابلة بين اللفظين ، كما قال سبحانه : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾[1] ، وكما قال النبي صلى الله عليه وآله : « فإنّ الله لا يَمَلّ حتى تَمَلّوا » وكما قال الشاعر :

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أَحَـدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا[2]

ثم أمرهم أن يُسمِعوا أنفسهم دعوة الموت قبل أن يحضر الموت ، فيَحِلّ بهم . ومثل قوله : « تبكى قلوبهم وإن ضحكوا » قول الشاعر ، وإن لم يكن هذا المقصِد بعينه قَصَد :

كَمْ فَاقَةٍ مستورةٍ بمروءةٍ وضرورةٍ قد غُطِّيَتْ بتجمُّلِ
ومن ابتسامٍ تحته قلبٌ شجٍ قد خامرته لوعةٌ ما تنجلِى

والمقت : البغض ، واغتبطوا

وقوله : « أملكَ بكم » مثل « أَوْلى بكم » . وقوله : « والعاجلة أذهب بكم من الآجلة » أى ذهبت العاجلةُ بكم واستولت عليكم أكثرَ مما ذهبت بكم الآخرة ، واستولت عليكم .

ثم ذكر أن الناس كلهم مخلوقون على فِطْرَة واحدة ، وهى دين الله وتوحيده ؛ وإنما اختلفوا وتفرّقوا باعتبار أمر خارجىّ عن ذلك ؛ وهو خبثُ سرائرهم وسوء ضمائرهم ، فصاروا إلى حالٍ لا يتوازرون ، أى لا يتعاونون ، والأصل الهمز ، آزرته ، ثم تقلب الهمزة واوا ، وأصل قوله : « فلا توازرون » « فلا تتَوازرون » فحذفت إحدى التاءين ، كقوله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾[3] ، أى لا تتناصرون ، والتبادل : أن يجودَ بعضهم على بعض بماله ويبذله له .

---

(١) سورة الشورى ٤٠ .
(٢) لعمرو بن كلثوم ، من المعلقات بشرح التبريزى ٢٣٨ .
(٣) سورة الصافات ٢٥

ومثل قوله عليه السلام « مابالكم تفرحون بكذا ، ولا تحزنون لكذا ، ويقلقكم اليسير من الدنيا يفوتكم » من هذا قول الرضي رحمه الله :

نقصُ الجديدين من عمري يزيدُ على ... ماينقصان على الأيام من مالي [1]

دهرٌ تؤثر في جسمي نوائبه ... فما اهتمامي أنْ أودي بسربالي

والضمير في « يخاف » راجع إلى الأخ لا إلى المستقبل له ؛ أي مايخافه الأخ من مواجهته بعيبه .

قوله : « وصارَ دينُ أحدكم لُعقةً على لسانه » أخذه الفرزدق ، فقال للحسين بن عليّ عليه السلام ، وقد لقيَه قادما إلى العراق ، وسأله عن الناس : « أمّا قلوبهمُ فمعك ، وأمّا سيوفهم فعليك ، والدين لُعقةٌ على ألسنتهم ، فإذا امتحصوا قلّ الديّانون » ، واللفظة مجاز ، وأصل اللُّعقة شيء قليل يُؤخذ بالمِلعقة من الإناء ، يصف دينهم بالنَّزارة والقِلّة كتلك اللعقة ؛ ولم يقنع بأن جعله لُعقة حتى جعله على ألسنتهم فقط ، أي ليس في قلوبهم .

(٤) ديوانه ، لوحة ١٥٠ ؛ من قصيدة يرثي فيها صديقاً له .

(١١٣)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلْوَاصِلِ ٱلْحَمْدَ بِالنِّعَمِ ، وَالنِّعَمَ بِالشُّكْرِ ؛ نَحْمَدُهُ عَلَى آلَائِهِ ، كَمَا نَحْمَدُهُ عَلَى بَلَائِهِ ، وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى هٰذِهِ النُّفُوسِ الْبِطَاءِ عَمَّا أُمِرَتْ بِهِ ، السِّرَاعِ إِلَى مَا نُهِيَتْ عَنْهُ . وَنَسْتَغْفِرُهُ مِمَّا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُهُ ، وَأَحْصَاهُ كِتَابُهُ ؛ عِلْمٌ غَيْرُ قَاصِرٍ ؛ وَكِتَابٌ غَيْرُ مُغَادِرٍ . وَنُؤْمِنُ بِهِ إِيمَانَ مَنْ عَايَنَ الْغُيُوبَ ، وَوَقَفَ عَلَى الْمَوْعُودِ ؛ إِيمَاناً نَفَى إِخْلَاصُهُ الشِّرْكَ ، وَيَقِينُهُ الشَّكَّ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، شَهَادَتَيْنِ تُصْعِدَانِ الْقَوْلَ ، وَتَرْفَعَانِ الْعَمَلَ ؛ لَا يَخِفُّ مِيزَانٌ تُوضَعَانِ فِيهِ ، وَلَا يَثْقُلُ مِيزَانٌ تُرْفَعَانِ مِنْهُ .

* * *

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ الَّتِي هِيَ الزَّادُ وَبِهَا الْمَعَاذُ ؛ زَادٌ مُبْلِغٌ ، وَمَعَاذٌ مُنْجِحٌ ؛ دَعَا إِلَيْهَا أَسْمَعُ دَاعٍ ، وَوَعَاهَا خَيْرُ وَاعٍ ؛ فَأَسْمَعَ دَاعِيهَا ، وَفَازَ وَاعِيهَا .

عِبَادَ اللهِ ؛ إِنَّ تَقْوَى اللهِ حَمَتْ أَوْلِيَاءَ اللهِ مَحَارِمَهُ ، وَأَلْزَمَتْ قُلُوبَهُمْ مَخَافَتَهُ ، حَتَّى أَسْهَرَتْ لَيَالِيَهُمْ ، وَأَظْمَأَتْ هَوَاجِرَهُمْ ، فَأَخَذُوا الرَّاحَةَ بِالنَّصَبِ ، وَالرِّيَّ بِالظَّمَإِ ، وَاسْتَقْرَبُوا الْأَجَلَ ، فَبَادَرُوا الْعَمَلَ ، وَكَذَّبُوا الْأَمَلَ ، فَلَاحَظُوا الْأَجَلَ .

ثُمَّ إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ فَنَاءٍ وَعَنَاءٍ ، وَغِيَرٍ وَعِبَرٍ ؛ فَمِنَ الْفَنَاءِ أَنَّ الدَّهْرَ مُوتِرٌ[1] قَوْسَهُ ، لَا تُخْطِئُ سِهَامُهُ ، وَلَا تُؤْسَى جِرَاحُهُ ، يَرْمِي الْحَيَّ بِالْمَوْتِ ، وَالصَّحِيحَ بِالسَّقَمِ ، وَالنَّاجِيَ بِالْعَطَبِ ؛ آكِلٌ لَا يَشْبَعُ ، وَشَارِبٌ لَا يَنْقَعُ . وَمِنَ الْعَنَاءِ أَنَّ الْمَرْءَ يَجْمَعُ

(١) مخطوطة النهج : « موتر » بالتشديد .

مَالًا يَأْكُلُ، وَيَبْنِي مَالَا يَسْكُنُ، ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى اللهِ تَعَالَى؛ لَا مَالًا حَمَلَ، وَلَا بِنَاءً نَقَلَ.

وَمِنْ غِيَرِهَا أَنَّكَ تَرَى الْمَرْحُومَ مَغْبُوطًا، وَالْمَغْبُوطَ مَرْحُومًا؛ لَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا نَعِيمًا زَلَّ، وَبُؤْسًا نَزَلَ.

وَمِنْ عِبَرِهَا أَنَّ الْمَرْءَ يُشْرِفُ عَلَى أَمَلِهِ، فَيَقْتَطِعُهُ حُضُورُ أَجَلِهِ؛ فَلَا أَمَلٌ يُدْرَكُ، وَلَا مُؤَمَّلٌ يُتْرَكُ. فَسُبْحَانَ اللهِ مَا أَعَزَّ سُرُورَهَا، وَأَظْمَأَ رِيَّهَا، وَأَضْحَى فَيْئَهَا! لَا جَاءٍ يُرَدُّ، وَلَا مَاضٍ يَرْتَدُّ؛ فَسُبْحَانَ اللهِ، مَا أَقْرَبَ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ لِلَحَاقِهِ بِهِ، وَأَبْعَدَ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ لِانْقِطَاعِهِ عَنْهُ!

إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِشَرٍّ مِنَ الشَّرِّ إِلَّا عِقَابُهُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ بِخَيْرٍ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا ثَوَابُهُ؛ وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا سَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْآخِرَةِ عِيَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ؛ فَلْيَكْفِكُمْ مِنَ الْعِيَانِ السَّمَاعُ، وَمِنَ الْغَيْبِ الْخَبَرُ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ الدُّنْيَا وَزَادَ فِي الْآخِرَةِ، خَيْرٌ مِمَّا نَقَصَ مِنَ الْآخِرَةِ وَزَادَ فِي الدُّنْيَا، فَكَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ رَابِحٍ، وَمَزِيدٍ خَاسِرٍ!

إِنَّ الَّذِي أُمِرْتُمْ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِي نُهِيتُمْ عَنْهُ، وَمَا أُحِلَّ لَكُمْ أَكْثَرُ مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، فَذَرُوا مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ، وَمَا ضَاقَ لِمَا اتَّسَعَ. قَدْ تَكَفَّلَ لَكُمْ بِالرِّزْقِ، وَأُمِرْتُمْ بِالْعَمَلِ؛ فَلَا يَكُونَنَّ الْمَضْمُونُ لَكُمْ طَلَبُهُ أَوْلَى بِكُمْ مِنَ الْمَفْرُوضِ عَلَيْكُمْ عَمَلُهُ، مَعَ أَنَّهُ وَاللهِ لَقَدِ اعْتَرَضَ الشَّكُّ، وَدَخَلَ الْيَقِينُ، حَتَّى كَأَنَّ الَّذِي ضُمِنَ لَكُمْ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ، وَكَأَنَّ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْكُمْ قَدْ وُضِعَ عَنْكُمْ. فَبَادِرُوا الْعَمَلَ، وَخَافُوا بَغْتَةَ الْأَجَلِ، فَإِنَّهُ لَا يُرْجَى مِنْ رَجْعَةِ الْعُمُرِ، مَا يُرْجَى مِنْ رَجْعَةِ الرِّزْقِ. مَافَاتَ الْيَوْمَ مِنَ الرِّزْقِ رُجِيَ غَدًا زِيَادَتُهُ، وَمَا فَاتَ أَمْسِ مِنَ الْعُمُرِ لَمْ يُرْجَ الْيَوْمَ

رَحْمَتُهُ · الرَّجَاءُ مَعَ الْجَافِي ، وَالْيَأْسُ مَعَ النَّاهِي ، فَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ !

* * *

الشرح

لقائل أن يقول : أمّا كونُه واصلَ الحمد له من عباده بالنعم منه عليهم فمعلوم ؛ فكيف قال : إنه يصلُ النِّعم المذكورة بالشكر ، والشكر من أفعال العباد ؛ وليس من أفعاله ليكون واصلًا للنِّعم به !

وجواب هذا القائل ، هو أنّه لما وفّق العباد للشكر بعد أن جعل وجوبه في عقولهم مقرَّرا ، وبعد أن أقدرهم عليه ، صار كأنّه الفاعل له ، فأضافه إلى نفسه توسُّعا ، كما يقال : أقام الأمير الحدّ ، وقتل الوالي اللصّ ؛ فأمّا حمده سبحانه على البلاء كحمده على الآلاء فقد تقدّم القول فيه . ومن الكلام المشهور : «سبحان من لا يحمد على المكروه سواه» ، والسرّ فيه أنه تعالى إنما يفعلُ المكروه بنا لمصالحنا ، فإذا حمدناه عليه فإنما حمدناه على نعمة أنعم بها ، وإن كانت في الظاهر بليّة وألما .

فإن قلت : فقد كان الأحسن في البيان أن يقول : «نحمده على بلائه ، كما نحمده على آلائه» .

قلت : إنما عكَس لأنه جاء بالقطبين في معرض ذكر النعم والشكر عليها ، فاستهجن أن يلقّبها بلفظة الحمد على البلاء للنافرة التي تكون بينهما ، فقال : نحمده على هذه الآلاء التي أشرنا إليها ؛ التي هي آلاء في الحقيقة . وهذا ترتيب صحيح منتظم .

ثم سأل الله أن يعينه على النفس البطيئة عن المأمور به ، السريعة إلى المنهيّ عنه . ومن دعاء بعض الصالحين : اللهمّ إني أشكو إليك عدوًّا بين جنبيّ قد غلب عليّ .

وفسّر قوم من أهل الطريقة والحقيقة قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا

﴿ الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾[1] قالوا : أراد مجاهدة النفوس. ومن كلام رسول الله صلى الله عليه وآله : « أبت الأنفس إلا حبَّ المال والشرف ، وإنّ حبّهما لأذهبُ بدين أحدكم من ذئبين ضاريين باتا في زريبة غنم إلى الصباح ، فاذا يبقيان منها ! »

ثم شرع في استغفار الله سبحانه من كلّ ذنب ، وعبّر عن ذلك بقوله . « مما أحاط به علمُه ، وأحصاه كتابُه » ؛ لأنه تعالى عالم بكلّ شيء ، ومحيط بكلّ شيء ؛ وقد أوضح ذلك بقوله : « علم غير قاصر ، وكتاب غير مغادر » ، أي غير مبقٍ شيئا لا يحصيه ، قال تعالى : ﴿ مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾[2].

ثم قال : « ونؤمن به إيمان مَن عاين وشاهد » ، لأنّ إيمان العيان أخلصُ وأوثق من إيمان الخبر ، فإنه ليس الخبر كالعيان ؛ وهذا إشارة إلى إيمان العارفين الذين هو عليه السلام سيدهُم ورئيسهم ؛ ولذلك قال : « لو كشف الغطاء ماازددتُ يقينا » .

وقوله : « نُصعدان القول » إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾[3] وروى : « تسعدان القول » بالسين ، أي هما شهادتان بالقلب يعاضدان الشهادة باللسان ، ويُسعدانها .

ثم ذكر أنهما شهادتان لا يخفّ ميزانٌ هما فيه ، ولا يثقلُ ميزان رفعا عنه ، أمّا إنه لا يثقلُ ميزانٌ رُفعا عنه ؛ فهذا لا كلام فيه ؛ وإنما الشأن في القضية الأولى ، لأنّ ظاهر هذا القول يشعر بمذهب المرجئة الخلص ؛ وهم أصحاب مقاتل بن سليمان ، القائلون إنّه لا يضرّ مع الشهادتين معصية أصلاً ، وإنه لا يدْخُل النّارَ مَنْ في قلبه ذرّة من الإيمان ،

---

(١) سورة التوبة ١٢٣
(٢) سورة الكهف ٤٩
(٣) سورة فاطر ١٠ .

ولهم على ذلك احتجاج قد ذكرناه في كتبنا الكلامية ، فنقول في تأويل ذلك إنه لم يحكم بهذا على مجرد الشهادتين ، وإنما حكم بهذا على شهادتين مقيدتين ، قد وصفهما بأنهما يصعدان القول ، ويرفعان العمل ، وتانك الشهادتان المقيدتان بذلك القيد ، إنما هما الشهادتان اللتان يقارنهما فعلُ الواجب وتجنب القبيح ، لأنه إن لم يقارنهما ذلك لم يرفعا العمل، وإذا كان حكمه عليه السلام بعدم خفة ميزان حاملهما ، إنما هو على شهادتين مقيدتين لا مطلقتين ، فقد بطل قولُ مَنْ يجعل هذا الكلام حجة المرجئة .

ثم أخذ في الوصاة بالتقوى ، وقال إنما الزاد في الدنيا الذي يزوّد منه لسفر الآخرة وبها المعاذ ، مصدر من عذت بكذا ، أي لجأت إليه واعتصمت به .

ثم وصفهما ـ أعني الزاد والمعاذ ـ فقال : « زاد مُبلغ » ، أي يبلغك المقصد والغاية التي تسافر إليها ، ومعاذ منجح ، أي يصادف عنده النجاح .

دعا إليها أسمع داع : يعني البارئ سبحانه ؛ لأنه أشدّ الأحياء إسماعاً لما يدعوهم إليه وبناء « أفعل » هاهنا من الرباعي ، كما جاء ما أعطاه للمال ؛ وما أولاه للمعروف ! وأنت أكرم لي من زيد ، أي أشدّ إكراماً ؛ وهذا المكان أقفر من غيره ، أي أشدّ إقفاراً، وفي المثل « أفلسُ من ابن المذلق »[1]، ويروى : « دعا إليها أحسن داع » ، أي أحسن داعٍ دعاء، ولا بدّ من تقدير هذا المميز لأنه تعالى لا توصف ذاته بالحسن ، وإنما يوصف بالحسن أفعاله .

ووعاها خير واع ، أي من وعاها عنه تعالى وعقلها وأجاب تلك الدعوة ، فهو خير واع. وقيل : عنى بقوله : « أسمع داع » رسول الله صلى الله عليه وآله ، وعنى بقوله : « خير واع » نفسه ، لأنه أنزل فيه : ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾[2] والأول أظهر .

---

(١) في القاموس : « وابن المذلق من عبد شمس لم يكن يجد بيت ليلة ، ولا أبوه ولا أجداده ، فقيل : « أفلس من ابن المذلق » » .

(٢) سورة الحاقة ١٢

ثم قال : «فأسمع داعيها» أي لم يبق أحداً من المكلفين إلا وقد أسمعه تلك الدعوة وفازوا عليها ، أفلح مَنْ فَهِمها وأجاب إليها ، لا بدمن تقدير هذا ؛ وإلا فأىّ فوز يحصل لمن فهم ولم يجب ! والتقوى : خشية الله سبحانه ومراقبته في السرّ والعلن ، والخشية أصلُ الطاعات ، وإليها وقعت الإشارة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[1] وقوله سبحانه : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾[2].

قوله : « حتى أسهرتْ لياليَهم ، وأظمأتْ هواجرَهم » من قول العرب « نهاره صائم، وليله قائم» ؛ نقلوا الفعل إلى الظرف، وهو من باب الاتساع الذي يجرون فيه الظروف مجرى المفعول به ، فيقولون : الذي سرته يوم الجمعة ، أي سرت فيه ، وقال :

* ويوم شهدناه سليما وعامرا [3] *

أي شهدنا فيه سليما ، وقد اتسعوا فأضافوا إلى الظروف فقالوا :

* يا سارق الليلة أهل الدار [4] *

وقال تعالى : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾[5] فأخرجوهما بالإضافة عن الظرفية .

قوله عليه السلام : «فأخذوا الراحة النَّصَب» يروى : «فاستبدلوا الراحة» والنَّصَب: التعب . واستقربوا الأجل : رأوه قريبا .

فإن قلت : لماذا كرّر لفظة « الأجل » ، وفي تكرارها مخالفة لفنّ البيان ؟

قلت : إنه استعملها في الموضعين بمعنيين مختلفين ، فقوله : « استقربوا الأجل» بمعنى المدة . وقوله : « فلا حظوا الأجل » بمعنى الموت نفسه .

---

(١) سورة الحجرات ١٣ (٢) سورة الطلاق ٢

(٣) الكتاب ١ : ٩٠ ، ونسبه لبعض بنى عامر ، وبعده :

* قليل سوى طعن النهال نوافله *

(٤) الكتاب لسيبويه ١ : ٨٩ ، ونسبه إلى بعض الرجاز .

(٥) سورة سبأ ٣٣ .

ويروى: « موتر » و « وموتر » بالتشديد . ولا توسّى جراحه : لاتطبّ ولاتصلح ، أسوْت الجرح ، أى أصلحته . ولاينقع : لايروى ؛ شَرِب حتى نقع ، أى شفى غليله ، وماء ناقع ؛ وهو كالناجع ، وما رأيتُ شَرْبة أنقع منها .

وإلى قوله عليه السلام : « يجمع مالا يأكل ، ويبنى مالا يسكن » نظر الشاعر ، فقال :

أموالُنــــا لذَوى الميراث نجمعُها   ودُورنا لخراب الدهر نبنيهـــا

وقال آخر :

أَلَمْ تر حَوْشَبًا أمْسَى يبنِّى   بناء نفعُه لبنى بُقَيْلَهْ
يؤمّل أن يعمّر عمر نوح   وأمر الله يطرق كل لَيْلَهْ

قوله : « ومن غبرها أملك ترى المرحوم مغبوطا والمغبوط مرحوما » ، أى يصير الفقير غنيا والغنى فقيرا ، وقد فسره قوم فقالوا : أراد أنك ترى مَنْ هو فى باطن الأمر مرحوم ، مغبوطا ، وترى مَنْ هو فى باطن الأمر مغبوط ، مرحوما ، أى تحسب ذلك وتتخيّله ؛ وهذا التأويل غير صحيح ، لأن قوله بعده : « ليس ذلك إلا نعيما زلّ ، وبؤسا نزل » ، يكذّبه ويصدّق التفسير الأول .

وأضحى فيئها ، من أضحى الرجل إذا برز للشمس . ثم قال : « لاجاءٍ يرَدّ ولا ماضٍ يرتد » أى يسترد ويسترجع ، أخذه أبو العتاهية فقال :

فلا أنا راجعٌ ما قد مضى لى   ولا أنا دافعٌ ما سوف يأتى

وإلى قوله : « ما أقرب الحىّ من الميت للحاقه به ، وما أبعـــد الميت من الحى لانقطاعه عنه » نظر الشاعر ، فقال :

يا بعيدا عنّى وليس بعيــــداً   من لحاقٍ به سميــع قريبُ

صِرْتُ بين الورى غريبا كما أنــــك تحت الثرى وحيد غريب

فإن قلت : ماوجه تقسيمه عليه السلام الأمورَ التي عدّدها إلى الفناء والعناء ، والغِيَر والعبَر ؟

قلت : لقد أصاب الثّغرة وطبّق المَفصِل ؛ ألا تراه ذكَر في الفناء رَمْيَ الدهرِ الإنسان عن قوْس الردى ، وفي العناء تَجْمعَ مالا يأكل ، وبناء مالا يسكن ، وفي الغِيَر الفقر بعد الغنى والغنى بعد الفقر ، وفي العبَر انقطاع الأجل الأمل ؛ فقد ناط بكلّ لفظة مايناسبها .

وقد نظر بعضُ الشعراء إلى قوله عليه السلام : « ليس شيء بشرّ من الشرّ إلا عقابُهُ ، وليس شيء بخير من الخير إلا ثوابه » فقال :

خَـــير البضائع للإنسان مكرُمة تَنْمِي وتَزْكو إذا بارت بضائعهُ

فالخير خيرٌ ، وخير منــــه فاعلُه والشرّ شرٌ ، وشرٌ منه صانعهُ

إلّا أنّ أمير المؤمنين عليه السلام استثنى العقاب والثواب ، والشاعر جعل مكانهما فاعل الخير والشرّ .

ثم ذكر أنّ كلّ شيء من أمور الدنيا للرغبة والرهبة ، سماعه أعظم من عِيانه ، والآخرة بالعكس ؛ وهذا حقّ ؛ أما القضيّة الأولى فظاهرة ، وقد قال القائل :

أهتزُّ عنــــد تمنّي وصْلها طربًا وربّ أمنية أحـــلى من الظّفَر

ولهذا يحرص الواحد منّا على الأمر ، فإذا بلغه برّد وفتر ، ولم يجده كما كان يظنّ في اللذة . ويوصف لنا البلد البعيد عنّا بالخِصب والأمن والعدل ، وسماح أهله ، وحسن نسائه ، وظُرْف رجاله ، فإذا سافرنا إليه لم نجده كما وصِف ؛ بل ربما وجدنا القليل من ذلك . ويوصف لنا الإنسان الفاضل بالعلم بفنون من الآداب والحكم ، ويبالغ الواصفون في ذلك . فإذا اختبرناه وجدناه دون ماوُصِف ؛ وكذلك قد يخاف الإنسان حبسا أو ضربا أو نحوهما فإذا

وقع فيهما هان ما كان يتخوّفه ، ووجد الأمر دون ذلك ، وكذلك القتل والموت ؛ فإنّ ما يستعظمه الناس منهما دون أمرهما فى الحقيقة ، وقد قال أبو الطيب ـ وهو حكيم الشعراء :

كلّ مالم يكنْ من الصَّعْبِ فى الأنْـ ـفُس سَهْلٌ فيهـــا إذا هو كانا[1]

ويقال فى المثل :لِيج الخوف تأمن.وأمّا أحوالُ الآخرة فلاريب أنّ الأمر فيها بالضدّ من ذلك؛لأنّ الذى يتصوره الناس من الجنة،أنّها أشجار وأنهار ومأ كول ومشروب،وجماع، وأمرها فى الحقيقة أعظمُ من هذا وأشرفُ ، لأنّ ملاذّها الروحانية المقارنة لهذه الملاذّ المضادّة لها أعظم من هذه الملاذّ تطبقات عظيمة ، وكذلك أكثر الناس يتوهّمون أنّ عذاب النار يكون أليما وينقضى ؛ كما يذهب إليه المرجئة،أو أنه لاعذاب بالنار لمسلم أصلا؛ كما هو قول الخلّص من المرجئة،وأنّ أهل النار يألفون عذابها فلايستضرّون به إذا تطاول الأمد عليهم؛وأمر العذاب أصعب مما يظنون؛خصوصا على مذهبنا فى الوعيد؛ولو لم يكن إلا آلام النفوس باستشعارها سخط الله تعالى عليها ، فإنّ ذلك أعظمُ من ملاقاة جرْم النار لبدن الحىّ .

وفى هذا الموضع أبحاث شريفة دقيقة ، ليس هذا الكتاب موضوعا لها .

ثم أمرهم بأن يكتفوا من عِيان الآخرة وغيبها بالسماع والخبرَ ، لأنه لاسبيل ونحن فى هذه الدار إلى أكثر من ذلك .

وإلى قوله : « ماتقص من الدنيا وزاد فى الآخرة؛خيرٌ مما نقص من الآخرة وزاد فى الدنيا » نظر أبو الطيب ، فقال ، إلّا أنّه أخرجه فى مخرج آخر :

بلاد ماالشتهيتَ رأيتَ فيها فليس يفوتهـــا إلا كرامُ[2]

---

(١) ديوانه ٤ : ٢٤١

(٢) ديوانه ٤ : ٧٣

فهلاّ كان نقصُ الأهلِ فيها وكان لأهلها منها التمامُ!

ثم قال : « فكم من منقوص فى دنياه وهو رابح فى آخرته ، وكم من مزيد فى دنياه وهو خاسر فى آخرته » . ثم قال : « إن الذى أبيح لكم أوسع من الذى نهيتم عنه ، وما أحِلَّ لكم أكثر مما حُرِّم عليكم » ؛ الجملة الأولى هى الجملة الثانية بعينها ، وإنما أتى بالثانية تأكيدا للأولى وإيضاحا لها ، ولأنّ فنّ الخطابة والكتابة هكذا هو ، ويتنظم كلتا الجملتين معنى واحد ، وهو أنّ فيما أحلّ الله غنًى عمّا حرّم ، بل الحلالُ أوسع ؛ ألا ترى أن المباح من المآكل والمشارب أكثرُ عددا وأجناسا من المحرمات ؛ فإن المحرّم ليس إلا الكلب والخنزير وأشياء قليلة غيرهما ، والمحرّم من المشروب الخمر ونحوها من المسكر ؛ وما عدا ذلك حلال أكلُه وشربه ، وكذلك القول فى النكاح والتسرّى ، فإنّهما طريقان متهيِّآن إلى قضاء الوطر ، والسفاح طريق واحد والطريقان أكثر من الطريق الواحد .

فإن قلت : فكيف قال : « إنّ الذى أبيح لكم » فسمّى المباح مأمورا به ؟

قلت سمّى كثير من الأصوليين المباح مأمورا به ، وذلك لاشتراكه مع المأمور به فى أنه لاحرج فى فعله ، فأطلق عليه اسمه . وأيضا فإنه لمّا كان كثير من الأمور التى عددناها مندوبا أطلق عليه لفظ الأمر ، لأن المندوب مأمور به ؛ وذلك كالنكاح والتسرّى وأكل اللحوم ؛ التى هى سبب قوة البدن ، وشرب مايصلح للمزاج من الأشربة التى لا حرَج فى استعمالها . وقال بعض العقلاء لبنيه : يابنىّ ؛ إنه ليس كل شىء من اللذة ناله أهلُ الخسارة بخسارتهم إلا ناله أهلُ المروءة والصيانة بمروءتهم وصيانتهم ؛ فاستتروا بستر الله ودخل إنسان على علىّ بن موسى الرضا عليه السلام ، وعليه ثياب مرتفعة القيمة ؛ فقال : يا بن رسول الله ، أتلبس مثل هذا ؟ فقال له : مَنْ حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق !

ثم أمر بالعمل والعبادة ، ونهى عن الحرص على طلب الرزق ، فقال : إنكم أمرتم بالأول وضُمِن لكم الثانى ؛ فلا تجعلوا المضمون حصوله لكم هو المخصوص بالحرص والاجتهاد ؛ بل ينبغى أن يكون الحرص والاجتهاد فيما أمرتم بعمله وهو العبادة . وقد يتوهّم قوم أنه ارتفع «طلبه» بـ «المضمون» ؛ كقولك : المضروب أخوه ؛ وهذا غلط لأنه لم يضمن طلبه ، وإنما ضمن حصوله ؛ ولكنه ارتفع ؛ لأنه مبتدأ وخبره أولى ؛ وهذا المبتدأ والخبر فى موضع نصب ، لأنه خبر « يكوننّ » أوارتفع لأنه بدل من « المضمون » ؛ وهذا أحسن وأولى من الوجه الأول ؛ وهو بدل الاشتمال .

ثم ذكر أن رجعة العمر غيرُ مرجوّة ، ورجعة الرزق مرجوّة ؛ أوضح ذلك بأن الإنسان قد يذهب منه اليوم درهم فيستعيضه ؛ أى يكتسب عوضه فى الغد دينارا ، وأمّا « أمس » نفسه فستحيل أن يعود ولا مثله ، لأن الغد وبعد الغد محسوب من عمره ؛ وليس عوضا من الأمس الذاهب . وهذا الكلام يقتضى أنّ العمرَ مقدور ، وأن المكاسب والأرزاق إنما هى بالاجتهاد ، وليست محصورة مقدّرة ، وهذا يناقض فى الظاهر ما تقدّم من قوله : « إنّ الرزق مضمون فلا تحرصوا عليه » ، فاحتاج الكلام إلى تأويل ، وهو أنّ العمر هو الظرف الذى يوقع المكلّف فيه الأعمال الموجبة له السعادة العظمى ، المخلّصة له من الشقاوة العظمى ؛ وليس له ظرف يوقعها فيه إلا هو خاصّة ، فكلّ جزء منه إذا فات من غير عمل لما بعد الموت ، فقد فات على الإنسان بفواته مالا سبيل له إلى استدراكه بعينه ولا اغترام مثله ، لأن المثل الذى له إنما هو زمان آخر ، وليس ذلك فى مقدور الإنسان ، والزمان المستقبل الذى يعيش فيه الإنسان لم يكتسبه هو لينسب إليه ، فيقال : إنّه حصله عوضاً مما انقضى وذهب من عمره ؛ وإنما هو فعل غيره ؛ ومع ذلك فهو معدٌّ ومهيّأ لأفعال من العبادة توقع فيه ، كما كان الجزء الماضى معدًّا لأفعال

توقّع فيه ، فليس أحدُهما عوضًا عن الآخر ولا قائمًا مقامه، وأمّا المنافع الدنيوية كالمآكل، والمشارب والأموال ، فإن الإنسان إذا فاته شيء منها قدَر على ارتجاعه بعينه ، إن كانت عينه باقية ، وما لا تبقى عينه يقدر على اكتساب مثله ، والرزق وإن كان مضمونا من الله إلا أنّ الحركة فيه نصيبًا ، أمّا أن يكون شرطًا أو أن يكون هو بذاته من أثر قدرة الإنسان ، كحركته واعتماده وسائر أفعاله، ويكون الأمر بالتوكل والنهى عن الاجتهاد فى طلب الرزق على هذا القول ، إنما هو نهى عن الحرص والجشع والتهالك فى الطلب ؛ فإنّ ذلك قبيح يدلّ على دناءة الهمة وسقوطها .

ثم هذه الأغراض الدنيوية إذا حصلت أمثالها بعد ذهابها قامت مقام الذاهب ، لأنّ الأمر الذى يراد الذاهب له يمكن حصوله بهذا المكتسب؛ وليس كذلك الزمان الذاهب من العمر، لأنّ العبادات والأعمال التى كان أمس متعينا لها ، لا يمكن حصولُها اليوم، على حدّ حصولها أمس ، فافترق البابان : باب الأعمال ، وباب الأرزاق .

وقوله : « الرجاء مع الجائى ، واليأس مع الماضى » ، كلام يجرى مجرى المثل ، وهو تأكيد للمعنى الأول ، وجعل الجائى مرجوًّا لأنه لا يعلم غيبه ، قال الشاعر :

مامَضَى فَاتَ والمقدَّر غَيْبٌ   ولَكَ السّاعــةُ التى أنت فيها

وقوله : « حق تقاته » ، أى حق تقيّته ، أى خوفه ، اتقى يتقى تقية وتقاة ، ووزنها « فُعَلة » وأصلها الياء ، ومثلها اتخم تخمة : واتهم تهمة .

(١١٤)

ومن خطبة له عليه السلام في الاستسقاء :

الأصلُ :

أللّهُمّ قدِ انصاحتْ جِبالُنا،واغبرّتْ أرضُنا ، وهامتْ دوابُّنا،وتحيّرتْ في مرابِضِها، وعجّتْ عجيجَ الثّكالى على أولادِها،وملّتِ التّردُّدَ في مراتعِها ، والحنينَ إلى مواردِها !

أللّهُمّ فارحمْ أنينَ الآنّةِ ، وحنينَ الحانّةِ !

أللّهُمّ فارحمْ حيْرتَها في مذاهبِها ، وأنينَها في موالجِها !

أللّهُمّ خرجْنا إليكَ حينَ اعتكرتْ علينا حدابيرُ السّنينَ ، وأخلفتْنا مخايلُ الجُودِ ؛ فكُنتَ الرّجاءَ للمُبتئِسِ ، والبلاغَ للمُلتمِسِ .

ندعُوكَ حينَ قنطَ الأنامُ،ومُنِعَ الغمامُ،وهلكَ السّوامُ؛ألّا تُؤاخِذَنا بأعمالِنا؛ ولا تأخُذَنا بذُنُوبِنا ؛ وانشُرْ علينا رحمتَكَ بالسّحابِ المُنبعِقِ ، والرّبيعِ المُغدِقِ، والنّباتِ المُونِقِ ، سحًّا وابلاً ، تُحيِي بِهِ ما قدْ ماتَ ، وتَرُدُّ بِهِ ما قدْ فاتَ .

أللّهُمّ سُقيا منكَ مُحيِيةً مُروِيةً ،تامّةً عامّةً ، طيّبةً مُباركةً ،هنيئةً مريئةً ، زاكِياً نبتُها،ثامِراً فرعُها ،ناضِراً ورقُها، تُنعِشُ بِها الضّعيفَ مِن عِبادِكَ،وتُحيِي بِها الميّتَ مِن بِلادِكَ !

أللّهُمّ سُقيا منكَ تُعشِبُ بِها نِجادُنا ، وتجرِي بِها وِهادُنا ، وتُخصِبُ بِها جنابُنا، وتُقبِلُ بِها ثِمارُنا ، وتعيشُ بِها مواشِينا،وتندى بِها أقاصِينا ، وتستعِينُ بِها ضواحِينا؛ مِن بركاتِكَ الواسِعةِ،وعطاياكَ الجزيلةِ،على بريّتِكَ المُرمِلةِ ، ووحشِكَ المُهملةِ. وأنزِلْ علينا سماءً مُخضِلةً ، مِدراراً هاطِلةً ، يُدافِعُ الودقُ مِنها الودقَ ، ويحفِزُ القطرُ مِنها

ٱلْقَطْرِ ، غَيْرَ خُلَّبٍ بَرْقُهَا ، وَلَا جَهَامٍ عَارِضُهَا، وَلَا قَزَعٍ رَبَابُهَا ، وَلَا شَفَّانٍ ذِهَابُهَا ، حَتَّى يُخْصِبَ لِإِمْرَاعِهَا ٱلْمُجْدِبُونَ ، وَيَحْيَا بِبَرَكَتِهَا ٱلْمُسْنِتُونَ ؛ فَإِنَّكَ تُنْزِلُ ٱلْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ، وَتَنْشُرُ رَحْمَتَكَ وَأَنْتَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ .

• • •

قال الشريف الرضي رحمه الله تعالى :

قولُه عليه السلام : « ٱنْصَاحَتْ جِبَالُنَا »، أي تشقّقتْ من المحول، يقال: ٱنصاح الثوبُ ، إذا انشقّ . ويقال أيضاً : ٱنصاح النَّبْتُ ، وصاح وصوّح ؛ إذا جفّ ويبس؛ كلُّه بمعنى .

وقولُه : « وَهَامَتْ دَوَابُّنَا » أي عطشت ، والهُيَام : العطش .

وقولُه : « حَدَابِيرُ السِّنِينَ » ، جمع حِدْبَار، وهي الناقة التي أنضاها السيرُ، فشبّه بها السَّنَةَ التي فشا فيها الجدبُ ، قال ذو الرُّمّة :

حَدَابِيرُ مَا تَنْفَكُّ إِلَّا مُنَاخَةً ‏ ‏ ‏ ‏ عَلَى ٱلْخَسْفِ أَوْ نَرْمِي بِهَا بَلَداً قَفْرَا[1]

وقولُه : « وَلَا قَزَعٍ رَبَابُهَا » ، القَزَع : القطع الصغار المتفرّقة من السَّحاب .

وقولُه : « وَلَا شَفَّانٍ ذِهَابُهَا » فإنّ تقديره: «ولا ذاتَ شَفّانٍ ذِهَابُهَا»، والشَّفَّانُ الريحُ الباردة ، والذِّهَابُ : الأمطار اللّيّنة ، فحذف « ذات » لعلم السامع به .

• • •

(١) ديوانه ١٧٣ ، وروايته : « حراجيج ما تنفك » .

الشرح :

يجوز أن يريد بقوله : « وهامت دوابُّنا » معنى غير ما فسّره الشريف الرضيّ رحمه الله به ، وهو نُدُودها وذهابُها على وجوهها لشدة المَحْل ، يقول : هام على وجهه ، يهيم هَيْماً وهَيَمَاناً .

والمرابض : مبارك الغنم ، وهي لها كالمواطن للإبل ، واحدها مَرْبِض ، بكسر الباء مثل مجلس . وعَجّت : صرخت . ويحتمل الضمير في « أولادها » أن يرجع إلى الثكالى ، أى كعجيج الثكالى على أولادهنّ ، ويحتمل أن يرجع إلى الدواب ، أى وعَجّت على أولادها كعجيج الثكالى ، وإنما وصفها بالتحيُّر في مَرَابضها ، لأنّها لشدّة المحْل تتحيّر في مباركها ، ولا تدرى ماذا تصنع ؛ إن نهضت لترعى لم تجد رعياً ، وإن أقامت كانت إلى انقطاع المادّة أقرب !

قوله : « وملّت التردد في مراتعها ، والحنين إلى مواردها » ، وذلك لأنّها أكثرت من التردّد في الأماكن التي كانت تعهد مراتعها فيها فلم تجد مرتعاً ، فملّت التّرداد إليها ، وكذلك ملّت الحنين إلى الغدران والموارد التي كانت تعتادها للشرب ، فإنّها حنّت إليها لما فقدتها ، حتى ضجرت ويئست فملّت مما لا فائدة لها فيه .

والآنّة والحانّة : الشاة والناقة ، ويقال : ماله حانّة ولا آنّة . وأصل الأنين صوت المريض وشكواه من الوَصَب ، يقال : أنّ يئنّ أنيناً وأُناناً وتأناناً .

والولائج : المداخل ؛ وإنما ابتدأ عليه السلام بذكر الأنعام وما أصابها من الجدب اقتفاء بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولعادة العرب ، أما سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله فإنه قال : « لولا البهائم الرُّتّع ، والصبيانُ الرُّضّع ، والشيوخُ الرُّكّع ، لصبّ

عليكم العذاب صبًّا » ، وقد ذهب كثير من الفقهاء إلى استحباب إخراج البهائم فى صلاة الاستسقاء . وتقدير دعائه عليه السلام : اللّهم إن كنتَ حرمتنا الغيث لسوء أعمالنا ، فارحم هذه الحيوانات التى لا ذنب لها ، ولا تؤاخذها بذنوبنا . وأمّا عادة العرب فإنهم كانوا إذا أصابهم المحْل استسقوا بالبهائم ، ودعوا الله بها واسترحموه لها ؛ ومنهم من كان يجعل فى أذناب البقر السّلع والعُشَر[1] ، ويصعد بها فى الجبال والتلاع العالية ، وكانوا يُسْقَوْن بذلك ؛ وقال الشاعر :

أجاعلٌ أنتَ بَيْقُوراً مسلَّعةً ذريعــــةً لك بين الله والمطر[2]

فاعتكرت : رَدِف بعضُها بعضا ، وأصل عَكَر عطف . والعكْر : الكرّة ، وفى الحديث : قال له قوم : يارسول الله ، نحن الفرّارُون . فقال : « بل أنتم العكّارون إن شاء الله »[3] .

والبيت الذى ذكره الرضىّ رحمه الله لذى الرّمة ، لا أعرفه إلا « حراجيج » ، وهكذا رأيتُه بخط ابن الخشّاب رحمه الله ، والحُرْجوج : الناقة الضّامرة فى طول .

وفيه مسألة نحوية ، وهى أنه كيف نقَضَ النفى من « ماتنفكُّ » وهو غير جائز ، كما لا يجوز مازال زيد إلا قائما ؟ وجوابها أنّ تنفكّ ها هنا تامة ، أى ماتنفصل ، ومناخة منصوب على الحال .

قوله : « وأخلفتنا مخايل الجُود » ، أى كلّما شِمْنا برقاً واختلنا سحابا أخلَفَنا ولم يمطر . والجُوْد : المطر الغزير . ويروى : « مخايل الجُود » بالضم .

---

(١) السلع : نبات ، وقيل : شجر مرّ . والعشر : شجر من العضاه ، وله صمغ حلو .
(٢) اللسان ١٠ : ٢٥ ، ونسبه إلى الورك الطائى .
(٣) النهاية لابن الأثير ٣ : ١٢٠ ؛ قال فى شرحه : « أى الكرارون إلى الحرب ، والعطافون نحوها ؟ يقال للرجل الذى يولى عن الحرب ثم يكر راجعاً إليها : عكر واعتكر » .

والمبتئس : ذو البؤس . والبلاغ للملتمس ، أى الكفاية للطالب .

وتقول : قنَط فلان ، بالفتح ، يقنُط ويقنِط ، بالكسر والضم ، فهو قانط . وفيه لغة أخرى قنِط بالكسر ، يقنَط قنَطا ، مثل تعِب يتعَب تعباً ، وقناطة أيضا ، فهو قنِط . وقرئ : ﴿ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَنِطِينَ ﴾ [١] .

وإنما قال : « ومُنيـع النعام »؛فبنى الفعلَ للمفعول به؛لأنه كره أن يضيف المنع إلى الله تعالى ، وهو منيع النعم ، فاقتضى حسنُ الأدب أنه لم يسمّ الفاعل . وروى «مَنَع النيام»، أى ومَنَع النيام القطر ، فحذف المفعول . والسوام : المال الراعى .

فإن قلت : ماالفرق بين « نؤاخذنا » وبين « نأخذنا » ؟

قلت : المؤاخذة دون الأخذ ؛ لأنّ الأخـذ الاستئصال ، والمؤاخـذة عقوبة وإن قلّت .

والسحاب المنبيق : المتبجّج بالمطر ، ومثله المتبعّق ، ومثله البُعاق . والريع المندفق : الكثير . والنبات المونق : المعجب .

وانتصب « سحًا » على المصدر . والوابل : المطر الشديد .

ثم قال : « تحْيِى بهماقد مات »،أى بكاد يتلف بها من الزرع،وتردّ به مافد فات، أى يستدرك به الناس مافاتهم من الزرع والحرث .

والسقيا مؤنثة؛ وهى الاسم من سَقَى . والمريعة : الخصيبة .

و « ثامراً فرعُها » : ذو ثمر ، كما قالوا : لابن وتامر ؛ ذو لبن وتمر .

وتنعش : ترفع . والنِّجاد : جمع نجْد،وهو ماارتفع من الأرض . والوهاد:جمع وَهْد، وهو المطمئنّ منها ؛ وروى : « نجادَنا » بالنصب على أنه مفعول .

---

(١) سورة الحجر ٥٥

قوله : « ونندى بها أقاصينا » ، أى الأباعد منّا . ويندى بها : ينتفع ، نديت بكذا، أى انتفعت .

والضواحى : النواحى القريبة من المدينة العظمى . والرملة : الفقيرة ، أرمل افتقر ونفد زاده . ووحشك المهملة : التى لا راعى لها ولا صاحب ولا مشفق .

وسماء مخضلة : مُخضِل النبت أى تبله ،وروى : « مخضَلّة » أى ذات نبات وزروع مخضَلّة ؛ يقال : اخضلّ النبت اخضلالا ، أى ابتلّ ؛ وإنما أنّث السماء وهو المطر وهو مذكر ، لأنه أراد الإمطار . والودْق : المطر . ويحفِز : يدفع بشدة ؛ وإذا دفع القطر القطر ، كان أعظم وأغزر له .

وبرق خُلّب : لا مطر معه ، وسحاب جَهام : لا ماء فيه - والمجدِبون : أهل الجدْب. والمسنِتُون الذين أصابتهم السنَة وهى المحْل والقحط الشديد .

* * *

[صلاة الاستسقاء وآدابها]

واعلم أنّ صلاة الاستسقاء عند أكثر الفقهاء سُنّة .

وقال أبو حنيفة : لا صلاة للاستسقاء . قال أصحابه : يعنى ليست سنّة فى جماعة،وإنما يجوز أن يصلّىَ الناس وُحدانا ، قالوا : وإنما الاستسقاء هو الدعاء والاستغفار .

وقال باقى الفقهاء كالشافعىّ وأبى يوسف ومحمد وغيرهم بخلاف ذلك . قالوا: وقد روى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله صلّى بالناس جماعةً فى الاستسقاء ، فصلّى ركعتين ، جَهَر بالقراءة فيهما وحوّل رداءه ورفع يديْه واستسقى . قالوا : والسنّة أنْ يكون فى المصلّى ، وإذا أراد الإمام الخروج لذلك وَعَظ الناس ، وأمرهم بالخروج من المظالم والتوبة من المعاصى ، لأنّ ذلك يمنع القطر .

قالوا : وقد روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : إذا بُخِس المكيال حُبِس القطر .

وقال مجاهد فى قوله تعالى : ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾ [1] ، قال : دواب الأرض تلعنهم ، يقولون : مُنِعنا القَطْر بخطاياهم .

قالوا : ويأمر الإمام النّاس بصوم ثلاثة أيام قبل الخروج ، ثم يخرج فى اليوم الرابع وهم صيام ويأمرهم بالصَّدَقة ، ويستسقى بالصالحين من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله كما فعل عمر ، ويحضر معه أهل الصلاح والخير ، ويستسقى بالشّيوخ والصبيان .

واختلفوا فى إخراج البهائم ، فمنهم من استحبّ ذلك ، ومنهم من كَرِهَه . ويُكره إخراج أهل الذمّة ، فإن حضروا من عند أنفسهم لم يمنعوا . والغُسْلُ والسواكُ فى صلاة الاستسقاء عندهم مسنونان ، ولا يستحب فيهما التطيّب ، لأنّ الحال لا يقتضيه .

وينبغى أن يكونَ الخروج بتواضع وخشوع وإخبات ، كما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله للاستسقاء .

قالوا : ولا يؤذَّن لهذه الصلاة ولا يقام ، وإنما ينادَى لها : الصلاة جامعة ! وهى ركعتان كصلاة العيد ، يكبّر فى الأولى سبع تكبيرات ، وفى الثانية خمس تكبيرات .

قالوا : ويخطب بعد الصلاة خطبتين ، ويكون دعاء الاستسقاء فى الخطبة الأولى .

قالوا : فيقول : اللهمّ اسقنا غيثا مغيثا ، هنيئا مريئا مريعا ، غَدَقا مجللا طَبَقاً ، سَحًّا دائما . اللهمّ اسقنا الغيث ، ولا تجعلنا من القانطين . اللهمّ إنّ بالعباد والبلاد من اللأْواء والضّنك والجهد مالا نشكوه إلاّ إليك . اللهمّ أنبت لنا الزّرع ، وأدرّ لنا الضَّرْع ، واسقنا من بركات السماء . اللهمّ اكشف عنّا الجهد والجوع والعُرْى ، واكشف عنّا مالا يكشفه غيرك . اللهمّ إنا نستغفرك ؛ إنك كنت غفارا ، فأرسل السماء علينا مدرارا .

---

(١) سورة البقرة ١٥٩

قالوا : ويستحب أن يستقبل القبلة فى أثناء الخطبة الثانية ، ويحوّل رداءه فيجعل ما على الأيمن على الأيسر ، وما على الأيسر على الأيمن تفاؤلا بتحول الحال . وكذا رُوى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله فعل ، ويستحب للناس أن يحوّلوا أرديتهم مثله ، ويتركوها كما هى ، ولا يعيدوها إلى حالها الأولى إلّا إذا رجعوا إلى منازلهم .

ويستحبّ أن يدعُوَ فى الخطبة الثانية سرًّا فيجمع بين الجهر والسرّ ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ﴾[1] ، وكقوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾[2] . قالوا : ويستحب رفع اليد فى هذا الدعاء ، وأن يكثروا من الاستغفار لقوله تعالى : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ﴾[3] ، فإن صلّوا واستسقَوْا فلم يُسقَوْا عادوا من الغد ، وصلّوا واستسقَوْا ، وإن سُقُوا قبل الصلاة صلّوا شكرا وطلبا للزيادة .

قالوا : ويستحب أن يقفوا تحت المطر حتى يصيبهم ، وأن يحسِرُوا له عن رءوسهم ؛ وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وآله حَسَرَ عن رأسه حتى أصابه مطر الاستسقاء .

ويستحبّ إذا سال الوادى أن يغتسلوا فيه ، ويتوضئوا منه .

وقد استحبّ قوم من الفقهاء أن يخرُجَ النّاس للاستسقاء حُفاة حاسرين ، والأكثرون على خلاف ذلك .

فأما مذهب الشيعة فى هذه المسألة فأن يستقبل الإمام القبلة بعد صلاة الركعتين ، فيكبّر الله مائة تكبيرة ، ويرفع بها صوته ويكبّر مَنْ حضر معه ، ثم يلتفت عن يمينه فيسبّح الله مائة تسبيحة ، يرفع بها صوته ، ويسبّح معه مَنْ حضر ، ثم يلتفت عن يساره فيهلّل الله

---

(١) سورة نوح ٩
(٢) سورة الأعراف ٢٠٥
(٣) سورة نوح ١٠ ، ١١

مائة مرة ، يرفع بها صوته ، ويقول من حضر مثل ذلك ، ثم يستقبل الناس بوجهه ، فيحمد الله مائة مرة ، يرفع بها صوته ويقول معه مَنْ حضر مثل ذلك ؛ ثم يخطب بهذه الخطبة المروية عن أمير المؤمنين عليه السلام فى الاستسقاء ، فإنْ لم يتمكن منهما اقتصر على الدعاء .

[أخبار وأحاديث فى الاستسقاء]

وجاء فى الأخبار الصحيحة رؤيا رُقيقة فى الجاهلية ؛ وهى رقيقة بنت أبى صيفىّ ابن هاشم بن عبد مناف[(1)] ، قالت رقيقة : تتابعتْ على قريش سنُون أقحلت[(2)] الضّرْع وأرقّت العظم ، فبينا أنا راقدة[(3)] ـ اللهمّ ـ أو مُهوِّمة[(4)] [ومعى صِنْوى][(5)] ، إذا أنا بهاتف صَيِّت[(6)] يصرخ بصوت صَحِل[(7)] : يامعشر قريش ؛ إنّ هذا النبىّ المبعوث فيكم قد أظلّتكم أيامه ، وهذا إبّان نجومه[(8)] ؛ فحيّهلا[(9)] بالخصب والحيا[(10)] . ألا فانظروا رجلا منكم عُظاما جُساما[(11)] ، أبيض بَضًّا ، أوطف الأهداب[(12)]

---

(١) وكانت لدة عبد المطلب بن هاشم .
(٢) أقحلت ، من قحل قحولا ، وقحل قحلا إذا يبس .
(٣) الرقود : النوم بالليل المستحكم الممتد ؛ ومنه قولهم : طريق مرقد ؛ إذا كان بيّنا ممتداً .
(٤) هوموا وتهوموا ؛ إذا هزوا هامهم من النعاس .
(٥) من الفائق .
(٦) الصيت : فيعل ، من صات يصوت ويصات كالميت من مات ، ويقال فى معناه : صائت وصات ومصوات .
(٧) الصحل : الذى فى صوته ما يذهب بحدته ؛ وهو مستلذ فى السمع .
(٨) إبان نجومه : وقت ظهوره ، وهو فعلان ، من أب الشىء إذا تهيأ .
(٩) فحيهلا ، بألف مزيدة ، ويجوز التنوين والتسكين ، أى تعجل .
(١٠) الحيا : المطر ؛ لأنه حياة الأرض .
(١١) الفائق : « طوالا » .
(١٢) أوطف الأهداب : طويلها .

سَهْل الخدين ؛ أشمّ العِرْنين ، له سُنَّة[1] تهدى إليه . ألا فليخلُص[2] هو وولده ، وليدلِفْ إليه من كلّ بطن رجل . ألا فليشُنّوا[3] عليهم من الماء ، وليمسّوا من الطيب ، وليطوفوا بالبيت سبعا ؛ وليكن فيهم الطيّب الطّاهر [لذاته][4] . فليستسق الرجلُ ، وليؤمّن القوم . ألا فغِثتمُ[5] إذا ما شئتم .

قالت : فأصبحتُ ـ علم الله ـ مذعورة قد[6] قفّ جِلْدِى ، وَوَلِهَ عقلى ، فاقتصصت رؤياى على الناس ، فذهبت فى شِعاب مكة ؛ فو الحرْمة والحرَم ؛ إن بقى أبطحىّ إلا وقال : هذا شيبة الحمد[7] .

فتتامّت[8] رجال قريش ، وانقضّ إليه من كلّ بطنٍ رجل ، فشنّوا عليهم ماء ، ومسّوا طيبا ، واستلموا واطّوّفوا ، ثم ارتقوا أبا قُبَيْس ، وطفِق القوم يدِفّون حول[9] عبد المطلب ، ما إن يُدرِك سعيهم مهله[10] ؛ حتى استقرّوا بذِرْوة الجبل ، واستكفّوا[11] جانبيه .

فقام فاعتضد ابن ابنه محمدا صلى الله عليه وآله ، فرفعه على عاتقه ؛ وهو يومئذ غلام

---

(١) الفائق : « له مخرج » .

(٢) فليخلص : فليتميز هو وولده من الناس .

(٣) شن الماء : صبه على رأسه .

(٤) زيادة من الفائق ؛ قال فى شرحه : « يعنى أن مولده ومولد من مضى من آبائه كلها موصوف بالطهر والزكاء ، أو يراد أترابه ، وذكر الأتراب أسلوب من أساليبهم فى تثبيت الصفة وتمكينها » .

(٥) غثتم : مطرتم .

(٦) قف شعرى : تقبض .

(٧) قال الزمخشرى : اسم عبد المطلب عامر ؛ وإنما قيل له شيبة الحمد لشيبة كانت فى رأسه ؛ وعبد المطلب ، لأن هاشماً تزوج سلمى بنت زيد النجارية ، فولدته ، فلما توفى هاشم وشب الغلام انتزعه المطلب عمه من أمه ، وأردفه على راحلته ، وقدم به مكة . فقال الناس : أردف المطلب عبده .

(٨) التتام : التوافر .

(٩) الدفيف : المر السريع .

(١٠) المهل ، بالإسكان : التؤدة ؛ أى لا يدرك إسراعهم إبطاءه .

(١١) استكفوا : أحدقوا ؛ من الكفة وهى ما استدار .

قد أيفع أو كَرَبَ[1]، ثم قال: اللهمّ سادّ الخلّة، وكاشفَ الكُربة، أنت عالم غير مُعَلَّم، ومسئول غير مبخّل، وهذه عِبِدّاؤك[2] وإماؤك بعذرات[3] حَرَمِك، يشكون إليك سَنَتَهم التي أذهبت الخفّ والظِّلف، فاسمعنّ اللهمّ، وأمطرنّ علينا غيثًا مُغْدِقًا مريعا سَحًّا طَبَقًا دراكًا.

قالت: فورب الكعبة ماراموا حتى انفجرت السماء بمائها واكتظّ الوادي بثجيجه[4] وانصرف الناس يقولون لعبد المطلب: هنيئا لك سيدَ البطحاء!

وفي رواية أبي عبيدة معمر بن المثنّى قال: فسمعنا شِيخانَ[5] قريش وجِلّتها: عبد الله بن جُدعان وحرب بن أمية وهشام بن المغيرة، يقولون لعبد المطلب: هنيئا لك، أبا البطحاء[6]!

وفي ذلك قال شاعر من قريش وقد روى هذا الشعر لرقيقة:

بشيبة الحمـــدِ أسقى الله بلدتنا ... وقد فقدنا الحَيَا واجلوّذ المطر[7]

فجاد بالمـــاء وسمِيٌّ له سَبِلٌ ... سحًّا، فعاشت به الأنعام والشجر[8]

* * *

وفي الحديث من رواية أنس بن مالك: أصاب أهلَ المدينة قحط على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، فقام إليه رجل وهو يخطب يوم جمعة، فقال: يا رسول الله، هلَكَ الشاء، هلك الزرع[9]، ادعُ الله لنا أن يسقينا، فمدّ عليه السلام يده، ودعا واستسقى،

(١) كرب، أى قرب من الإيفاع.
(٢) العداء والعبدى: العبيد.
(٣) العذرات: جمع العذرة؛ وهي الفناء.
(٤) الثجيج: المثجوج، أي المصبوب.
(٥) الشيخان: جمع شيخ، كالضيفان في جمع ضيف.
(٦) الخبر في الفائق ٢: ٣١٤ — ٣١٢
(٧) اجلوذ المطر، أي امتد وقت تأخره وانقطاعه.
(٨) سبل: أي مطر جود هاطل.
(٩) سنن أبي داود: «هلك الكراع، هلك الشاء».

وإن السماء كمثل الزّجاجة ، فهاجت ريح ثم أنشأت سحابا ، ثم اجتمع ، ثم أرسلت عزَاليَها[1] ، فخرجنا نخوض الماء حتى أتينا منازلنا ، ودام القَطْر ، فقام إليه الرجل فى اليوم الثالث . فقال : يا رسول الله ، تهدّمت البيوت ، ادع الله أن يحبسه عنّا . فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم رفع يده : وقال : « اللّهم حَوَالينا ولا علينا » .

قال أنس : فو الذى بعث محمداً بالحق ، لقد نظرتُ إلى السحاب ، وإنه لقد انجابَ حول المدينة كالإكليل[2] .

* * *

وفى حديث عائشة أنه عليه السلام استسقى حين بدأ قرنُ الشمس ، فقعد على المنبر ، وحمِد الله وكبّره ، ثم قال : إنكم شكوتُم جَدْبَ دياركم ، وقد أمركم الله أن ندعوه ، ووعدكم أن يستجيبَ لكم فادعوه . ثم رفع صوته فقال : « اللهمّ إنك أنت الغنىّ ، ونحن الفقراء ، فأنزِلْ علينا الغيث ، ولا تجعلنا من القانطين . اللهمّ اجعل ما تنزله علينا قوةً لنا ، وبلاغاً إلى حين ؛ برحمتك يا أرحم الراحمين » . فأنشأ الله سحابا ، فرعَدَتْ وبَرَقت ، ثم أمطرت ، فلم يأت عليه السلام منزله ، حتى سالت السيول ، فلما رأى سرعَتَهم إلى الكِنّ ضحك حتى بدت نواجذه ، وقال : أشهد أنّى عبد الله ورسوله ، وأن الله على كلّ شىء قدير[3] .

* * *

ومن دعائه عليه السلام فى الاستسقاء ، وقد رواه الفقهاء وغيرهم : « اللهم اسقنا وأغثنا ، اللهم اسقنا غيثا مُغيثا ، وحَيًا ربيعاً ، [وجَداً][4] طَبَقاً ، غدَقاً مُغدِقاً[5] ، مونِقاً[6] عامّاً ،

(١) العزالى فى الأصل : جمع عزلاء ، وهو مصب الماء من الراوية ، ويريد شدة وقع المطر ، على التشبيه .
(٢) الحديث فى سنن أبى داود ١ : ١٦٤ ، مع اختلاف فى الرواية
(٣) الحديث فى سنن أبى داود ١ : ١٦٠ ، مع اختلاف الرواية أيضاً
(٤) من العانى ، والجدا : والطبق مثله .
(٥) المغدق : الكثير المطر .
(٦) مونقاً : معجباً .

هنيئا مريئا ، مَرِيعا مُرْبِعا[١] مرتعا[٢] ، وابلا سابلا[٣] سيلا ، مجلّلا[٤] ، درًّا ، نافعا غير ضارّ ، عاجلا غير رائث[٥] . غيثا — اللهمّ — تحيي به العباد ، وتغيث به البلاد ، وتجمله بلاغا للحاضر منّا والباد ؛ اللهم أنزل علينا في أرضنا زينتها ، وأنزل علينا في أرضنا سَكَنَها . اللهم أنزل علينا ماء طَهوراً ، فأحيي به بلدةً ميتا ، واسقه مما خلقت لنا أنعاما وأناسيَّ كثيرا »[٦] .

• • •

وروى عبد الله بنُ مسعود أن عمر بن الخطاب خرج يستسقى بالعباس ، فقال : اللهمّ إنا نتقرّب إليك بعمّ نبيك وقفية[٧] آبائه[٨] وكُبْرِ رجاله ، فإنك قلت ، وقولك الحق : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ... ﴾ الآية ، فحفظتَهما لصلاح أبيهما ، فاحفظ اللهمّ نبيك في عمّه فقد دلونا به إليك مستشفعين ومستغفرين . ثم أقبل على الناس ، فقال : استغفروا ربكم إنه كان غفارا .

قال ابن مسعود : رأيت العباس يومئذ وقد طال عُمَر ، وعيناه تنضّحان ، وسبائبُهُ تجول على صدره ؛ وهو يقول : اللهمّ أنت الراعي فلا تُهمل الضّالّة ، ولا تدع الكسير بدار مَضيعة ، فقد ضَرَع الصغير ، ورَقّ الكبير ، وارتفعت الشكوى ، وأنت تعلم السرّ وأخفى . اللهمّ أغِثْهم بغياثك من قبل أن يقنطوا فيهلكوا ، إنه لا ييأس من رحمة الله إلا القوم الكافرون[٩] .

---

(١) المريع : ذو المراعة ؛ وهي الخصب . والمربع : الذي يربعهم عن الارتياد ؛ من ربعت بالمكان وأربعت .

(٢) المرتع : النبت ما يرتع فيه .

(٣) السابل ، من قولهم : سيل سابل ؛ أي مطر ماطر .

(٤) المجلل : الذي يجلل الأرض بمائه أو بنباته .

(٥) الرائث : البطيء .

(٦) الفائق للزمخشري ١ : ٣١٧ ، ٣١٨ .

(٧) قفية آبائه : تلوهم وتابعهم .

(٨) كبر قومه : أقعدهم في النسب .

(٩) الخبر في الفائق ٢ : ٣٦٦ .

قال : فنشأت طُرَيرة[1] من سحاب ، وقال الناس : ترون ترون ! ثم تلاءمت واستتمّت ومشت فيها ريح ، ثم هَدَّت[2] ودرّت ، فوالله ما برحوا حتى اعتلقوا الأحذية ، وقلّصوا المـآزر ، وطفق الناس يلوذون بالعباس ، يمسحون أركانه ويقولون : هنيئا لك ساقي الحرمين[3] .



(١) الطريرة : تصغير طرة ، وهي القطعة المستطيلة من السحاب ؛ شبهت بطرة الثوب .
(٢) هدت من الهدة ؛ وهي صوت ما يقع من السماء .
(٣) قال الزمخشري : « سمى ساقي الحرمين بهذه السقيا » .

(١١٥)

الأصْـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَرْسَلَهُ دَاعِياً إِلَى الْحَقِّ ، وَشَاهِداً عَلَى الْخَلْقِ ، فَبَلَّغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ ، غَيْرَ وَانٍ وَلَا مُقَصِّرٍ ، وَجَاهَدَ فِي اللهِ أَعْدَاءَهُ ، غَيْرَ وَاهِنٍ وَلَا مُعَذِّرٍ ، إِمَامُ مَنِ اتَّقَى ، وَبَصَرُ مَنِ اهْتَدَى .



الشّـرح :

قوله : « وشاهدا على الخلق » ، أى يشهد على القوم الذين بعث إليهم ، ويشهد لهم ، فيشهد على العاصى بالعصيان والخلاف ، ويشهد للمطيع بالإطاعة والإسلام ، وهذا من قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾[1] ، ومن قوله تعالى : ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَادُمْتُ فِيهِمْ ﴾[2] .

فإن قلت : إذا كان الله تعالى عالماً بكلّ شيء ، ومالكاً لكلّ أحد ، فأىّ حاجة إلى الشهادة ؟

قلت : ليس ينكر أن يكون فى ذلك مصلحة للمكلّفين فى أديانهم ، من حيث إنّه قد تقرر فى عقول الناس ، أنّ من يقوم عليه شاهد بأمر منكر قد فعله ، فإنه يخزى

(١) سورة النساء ٤١ .
(٢) سورة المائدة ١١٧ .

ويخجل وتنقطع حجته ، فإذا طرق أسماعهم أن الأنبياء تشهد عليهم، والملائكة الحافظين تكتب أعمالهم ، كانوا عن مواقعة القبيح أبعد .

والوانى : الفاتر الكسلان . والواهن : الضعيف .

والمعذِّر : الذى يعتذر عن تقصيره بغير عذر ؛ قال تعالى : ﴿ وَجَاءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ [1] .

• • •

الأمثال :

منها :

وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ مِمَّا طُوِيَ عَنْكُمْ غَيْبُهُ ؛ إِذًا لَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ ؛ تَبْكُونَ عَلَى أَعْمَالِكُمْ ، وَتَلْتَدِمُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَلَتَرَكْتُمْ أَمْوَالَكُمْ لَا حَارِسَ لَهَا ، وَلَا خَالِفَ عَلَيْهَا ، وَلَهَمَّتْ كُلَّ امْرِئٍ مِنْكُمْ نَفْسُهُ ؛ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِهَا ؛ وَلَكِنَّكُمْ نَسِيتُمْ مَا ذُكِّرْتُمْ ، وَأَمِنْتُمْ مَا حُذِّرْتُمْ ، فَتَاهَ عَنْكُمْ رَأْيُكُمْ ، وَتَشَتَّتَ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ .

وَلَوَدِدْتُ أَنَّ اللَّهَ فَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَأَلْحَقَنِي بِمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِي مِنْكُمْ ؛ قَوْمٌ وَاللَّهِ مَيَامِينُ الرَّأْيِ ، مَرَاجِيحُ الْحِلْمِ ، مَقَاوِيلُ بِالْحَقِّ ، مَتَارِيكُ لِلْبَغْيِ ، مَضَوْا قُدُمًا عَلَى الطَّرِيقَةِ ، وَأَوْجَفُوا عَلَى الْمَحَجَّةِ ، فَظَفِرُوا بِالْعُقْبَى الدَّائِمَةِ ، وَالْكَرَامَةِ الْبَارِدَةِ .

أَمَا وَاللَّهِ لَيُسَلَّطَنَّ عَلَيْكُمْ غُلَامُ ثَقِيفٍ الذَّيَّالُ الْمَيَّالُ ، يَأْكُلُ خَضِرَتَكُمْ ، وَيُذِيبُ شَحْمَتَكُمْ . إِيهٍ أَبَا وَذَحَةَ !

[1] سورة التوبة ٩٠ .

قال الرضيّ رحمه الله تعالى :

أَلْوَذَحَةُ : الْخُنفساء ؛ وهذا القول يُومئ به إلى الحجّاج ، وله مع الْوَذَحَةِ حَدِيثٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ ذِكْرِهِ .

* * *

الشَّـرْحُ :

الصعيد : التراب ، ويقال : وجه الأرض ، والجمع صُعُد وصُعُدات ، كطرق وطُرُق وطُرُقات . والالتدام : ضرب النساء صدورهنّ في النياحة . ولا خالف عليها : لا مستخلف .

قوله : « ولهمّت كلّ امرئ منكم نفسه » ، أي أذابته وأنحلته ، همتُ الشحم ، أي أذبته . ويروى : « ولأهمّت كلّ امرئ » وهو أصحّ من الرواية الأولى ؛ أهمّني الأمر ، أي أحزنني .

وتاه عن فلان رأيه ، أي عزب وضلّ .

ثم ذكر أنه يودّ ويتمنّى أن يفرق الله بينه وبينهم ، ويلحقه بالنبيّ صلى الله عليه وآله وبالصالحين من أصحابه ، كحمزة وجعفر عليهما السلام وأمثالهما ممن كان أمير المؤمنين يثني عليه ، ويحمد طريقته من الصحابة . فمضوا قُدُماً ، أي متقدّمين غير معرّجين ولا معترّدين[1] .

وأوجفوا : أسرعوا . ويقال : غنيمة باردة وكرامة باردة ، أي لم تؤخذ بحرب ولا عسف وذلك لأن المكتسب بالحرب جارٍ في المعنى لما يلاقي ويعاني في حصوله من المشقّة .

وغلام ثقيف المشار إليه ، هو الحجّاج بن يوسف . والذيّال : التائه ، وأصله من « ذال » أي تبختر ، وجرّ ذيله على الأرض . والميال : الظالم .

ويأكل خَضِرَتكم : يستأصل أموالكم . ويذيب شحمتكم مثله ؛ وكلتا اللفظتين استعارة .

---

(١) يقال : عرد الرجل عن قرنه ؛ إذا أحجم ونكل .

ثم قال له كالمخاطب لإنسان حضر بين يديه : « إيه أباوَذْحة » ، إيه كلمة يُستزاد بها من الفعل ، تقديره : زِدْوهات أبمنا ماعندك ، وضدّها إيهاً ، أي كفّ وأمسك .

قال الرضيّ رحمه الله : والوَذْحة الخنفساء ؛ ولم أسمع هذا من شيخ من أهل الأدب ، ولا وجدتُه في كتاب من كتب اللغة ، ولا أدرى من أين نقل الرضيّ رحمه الله ذلك !

ثم إن المفسّرين بعد الرضيّ رحمه الله قالوا في قصّة هذه الخنفساء وجوهاً :

منها أنّ الحجاج رأى خنفساء تدبّ إلى مصلّاه ، فطردها فعادت ، ثم طردها فعادت، فأخذها بيده ، وحذف بها ، فقرصته قَرْصا ورمَتْ يده منها ورما كان فيه حتفه ، قالوا : وذلك لأنّ الله تعالى قتله بأهون مخلوقاته ؛ كما قتل نمرود بن كنعان بالبقّة التي دخلت في أنفه ، فكان فيها هلاكه .

ومنها أنّ الحجاج كان إذا رأى خنفساء تدبّ قريبةً منه ، يأمر غلمانه بإبعادها ، ويقول : هذه وَذْحة من وَذْح الشيطان ، تشبيهاً لها بالبعرة ،قالوا : وكان مغرى بهذا القول، والوذْح : ما يتعلّق بأذناب الشاة من أبعارها فيجفّ .

ومنها أنّ الحجاج قال وقد رأى خنفساوات مجتمعات : واعجبا لمن يقول إن الله خلق هذه ! قيل : فمن خلقها أيها الأمير ؟ قال : الشيطان ، إنّ ربّكم لأعظم شأناً أن يخلق هذه الوذح ! قالوا : فجمعها على « فَعَل » كبَدَنة وبدَن ، فنقل قوله هذا إلى الفقهاء في عصره ، فأكفروه .

ومنها أنّ الحجاج كان مَنْفاراً[1] ، وكان يمسك الخنفساء حيّة ليشفى بحركتها في الموضع حكاكه . قالوا : ولا يكون صاحب هذا الداء إلا شانئا مبغضا لأهل البيت .قالوا: ولسنا نقول كلّ مبغض فيه هذا الداء ، وإنما قلنا : كلّ من فيه هذا الداء فهو مبغض .

قالوا: وقدروى أبو عمر الزاهد ــ ولم يكن من رجال الشّيعة ــ في أماليه وأحاديثه عن السيارىّ

(١) رجل منفار : نحو سوء .

عن أبي خزيمة الكاتب ، قال : مافتشنا أحداً فيه هذا الداء إلا وجدناه ناصبياً .

قال أبو عمر : وأخبرني العطافي عن رجاله ، قالوا :

سئل جعفر بن محمد عليه السلام عن هذا الصِّنف من الناس ، فقال رحم منكوسة يُؤتَى ولا يأتي ؛ وما كانت هذه الخصلة في وليّ لله تعالى قطّ ؛ ولا تكون أبداً ، وإنما تكون في الكفار والفساق والناصب الطاهرين .

وكان أبو جهل عمرو بن هشام المخزومي من القوم ؛ وكان أشدّ الناس عداوة لرسول الله صلى الله عليه وآله ، قالوا : ولذلك قال له عتبة بن ربيعة يوم بدر : يامُصَفِّرَ استه[1] .

فهذا مجموع ماذكره المفسرون ، وما سمعته من أفواه الناس في هذا الموضع ، ويغلب على ظني أنه أراد معنًى آخر ؛ وذلك أنّ عادة العرب أن تكنى الإنسان إذا أرادت تعظيمه بما هو مظنّة التعظيم ، كقولهم : أبو الهول ، وأبو المقدام ، وأبو المغوار ، فإذا أرادتْ تحقيره والغضّ منه كنَتْهُ بما يستحقر ويستهان به ، كقولهم في كنية يزيد بن معاوية : أبو زنّة ، يعنون القرد ، وكقولهم في كنية سعيد بن حفص البخاريّ المحدث : أبو الفار ، وكقولهم للطفيليّ : أبو لقمة ، وكقولهم لعبد الملك : أبو الذِّبان لبَخَره ، وكقول ابن بسام لبعض الرؤساء :

فأنتَ لعمري أبو جعفرٍ ولكننا نحذف الفاء منهُ

وقال أيضاً :

لئيم دَرِنُ الثوبِ نظيف القعب والقِدْرِ
أبو النتن ، أبو الدَّفْر ، أبو البعر ، أبو الجَعْرِ

فلما كان أمير المؤمنين عليه السلام يعلمُ من حال الحجاج نجاسته بالمعاصي والذنوب ،

---

(١) انظر اللسان — صفر .

التي لو شوهدت بالبصر لكانت بمنزلة البعر للتصوق بشعر الشاء ، كناه « أبو وذّحة »
ويمكن أيضاً أن يكنّيه بذلك لدمامته في نفسه ، وحقارة منظره ، وتشويه خلقته ، فإنه
كان قصيرا دميا نحيفا ، أخفشّ العينين ممسوحَ الساقين ، قصير الساعدين ، مجدورَ الوجه ،
أصلع الرأس ، فكناه بأحقر الأشياء ، وهو البعرة .

وقد روى قوم هذه اللفظة بصيغة أخرى ، فقالوا : « إيه أباودجة » ؛ قالوا : واحدة
الأوداج ، كنّاه بذلك لأنه كان قتّالاً يقطع الأوداج بالسيف ، ورواه قوم « أبا وحرة »
وهي دويبّة تشبه الحرباء قصيرة الظهر ؛ شبّهه بها .

وهذا وما قبله ضعيف ، وما ذكرناه نحن أقرب الصواب .

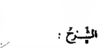


(١١٦)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام :

فَلَا أَمْوَالَ بَذَلْتُمُوهَا لِلَّذِي رَزَقَهَا ، وَلَا أَنْفُسَ خَاطَرْتُمْ بِهَا لِلَّذِي خَلَقَهَا ، تَكْرُمُونَ بِاللهِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَلَا تُكْرِمُونَ اللهَ فِي عِبَادِهِ !
فَاعْتَبِرُوا بِنُزُولِكُمْ مَنَازِلَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَانْقِطَاعِكُمْ عَنْ أَوْصَلِ إِخْوَانِكُمْ !



الشَّرْحُ :

انتصاب « الأموال » بفعل مقدر دلّ عليه « بذلتموها » وكذلك « أنفس » ، يقول : لم تبذلوا أموالكم فى رضا من رزقكم إياها ، ولم تخاطروا بأنفسكم فى رضا الخالق لها ، والأولى بكم أن تبذلوا المال فى رضا رازقه ؛ والنفس فى رضا خالقها ، لأنه ليس أحدٌ أحقّ منه بالمال والنفس وبذلها فى رضاه .

ثم قال : من العجب أنكم تطلبون من عباد الله أن يكرموكم ويطيعوكم لأجل الله ، وانتمائكم إلى طاعته ، ثم إنكم لا تكرمون الله ولا تطيعونه فى نفع عباده ، والإحسان إليهم .

ومحصول هذا القول : كيف تسيمون الناس أن يطيعوكم لأجل الله ؛ ثم إنكم أنتم لا تُطيعون الله ، الذى تكلفون الناس أن يطيعوكم لأجله !

ثم أمرهم باعتبارهم بنزولهم منازل مَنْ كان قبلهم ، وهذا مأخوذ من قوله

تعالى : ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾ [١] .

ورُوي عن « أصل إخوانكم » وذلك بموت الأب ، فإنه ينقطع أصل الأخ الواشج بينه وبين أخيه ، والرواية الأولى أظهر .



(١) سورة إبراهيم ٤٥ .

(١١٧)

الأصـــل :

ومن كلام له عليه السلام :

أَنْتُمُ الْأَنْصَارُ عَلَى الْحَقِّ ، وَالْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ ، وَالْجُنَنُ يَوْمَ الْبَأْسِ ، وَالْبِطَانَةُ دُونَ النَّاسِ ؛ بِكُمْ أَضْرِبُ الْمُدْبِرَ ، وَأَرْجُو طَاعَةَ الْمُقْبِلِ ؛ فَأَعِينُونِي بِمُنَاصَحَةٍ خَلِيَّةٍ مِنَ الْغِشِّ ، سَلِيمَةٍ مِنَ الرَّيْبِ ؛ فَوَاللهِ إِنِّي لَأَوْلَى النَّاسِ بِالنَّاسِ !

الشـرح

الجنن : جمع جُنَّة ، وهي ما يُستتر به ، وبطانة الرجل : خواصه وخالصته الذين لا يطوى عنهم سرّه .

فإن قلت : أمّا ضربُه بهم المدبر فمعلوم ؛ يعني الحرب ، فما معنى قوله عليه السلام : « وأرجو طاعة المقبل » ؟

قلت : لأن مَنْ ينضوى إليه من المخالفين إذا رأى ما عليه شيعتُه وبطانتُه من الأخلاق الحميدة ، والسيرة الحسنة ، أطاعه بقلبه باطنا ، بعد أن كان انضوى إليه ظاهرا .

واعلم أنّ هذا الكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام للأنصار بعد فراغه من حرب الجمل ؛ وقد ذكره المدائنى والواقدىّ فى كتابيهما[1] .

---

(١) كتاب الجمل للمدائنى ، ذكره ابن النديم فى الفهرست ١٠٠ ، وكتاب الجمل للواقدى ذكره أيضاً ابن النديم فى ص ٩٩ .

(١١٨)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام وقد جمع الناس، وحضهم على الجهاد ، فسكتوا مليًا، فقال عليه السلام: ما بالكم ! أمخرسون أنتم ؟ فقال قوم منهم: يا أمير المؤمنين، إن سرت سرنا معك.

فقال عليه السلام :

مَا بَالُكُمْ ! لا سُدِّدْتُمْ لِرُشْدٍ! وَلا هُدِيتُمْ لِقَصْدٍ! أَفِي مِثْلِ هَذَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَخْرُجَ! وَإِنَّمَا يَخْرُجُ فِي مِثْلِ هَذَا رَجُلٌ مِمَّنْ أَرْضَاهُ مِنْ شُجْعَانِكُمْ، وَذَوِي بَأْسِكُمْ، وَلا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَدَعَ الْجُنْدَ وَالْمِصْرَ وَبَيْتَ الْمَالِ وَجِبَايَةَ الأَرْضِ ، وَالْقَضَاءَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَالنَّظَرَ فِي حُقُوقِ الْمُطَالِبِينَ ، ثُمَّ أَخْرُجَ فِي كَتِيبَةٍ أَتْبَعُ أُخْرَى : أَتَقَلْقَلُ تَقَلْقُلَ الْقِدْحِ فِي الْجَفِيرِ الْفَارِغِ .

وَإِنَّمَا أَنَا قُطْبُ الرَّحَا ، تَدُورُ عَلَيَّ وَأَنَا بِمَكَانِي ؛ فَإِذَا فَارَقْتُهُ اسْتَحَارَ مَدَارُهَا ، وَاضْطَرَبَ ثِفَالُهَا . هَذَا لَعَمْرُ اللهِ الرَّأْيُ السُّوءُ ؛ وَاللهِ لَوْلا رَجَائِي الشَّهَادَةَ عِنْدَ لِقَائِي الْعَدُوَّ ـ وَلَوْ قَدْ حُمَّ لِي لِقَاؤُهُ ـ لَقَرَّبْتُ رِكَابِي ، ثُمَّ شَخَصْتُ عَنْكُمْ فَلا أَطْلُبُكُمْ ، مَا اخْتَلَفَ جَنُوبٌ وَشَمَالٌ ؛ طَعَّانِينَ عَيَّابِينَ ، حَيَّادِينَ رَوَّاغِينَ .

إِنَّهُ لا غَنَاءَ فِي كَثْرَةِ عَدَدِكُمْ ، مَعَ قِلَّةِ اجْتِمَاعِ قُلُوبِكُمْ ، لَقَدْ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الَّتِي لا يَهْلِكُ عَلَيْهَا إِلا هَالِكٌ ،

مَنِ اسْتَقَامَ فَإِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَنْ زَلَّ فَإِلَى النَّارِ !

* * *

الشَّرحُ :

سكتوا مليا ، أى ساعة طويلة ، ومضى مَلِىٌّ من النهار كذلك ، قال الله تعالى : ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾[١] . وأقمت عند فلان مُلاوة ومَلاوة ومِلاوة من الدهر ، بالحركات الثلاث ، أى حينا وبرهة ، وكذلك أقمت مَلْوة ومُلْوة ومِلْوة ، بالحركات الثلاث .

وقوله : « أمُخْرَسون أنتم ؟ » اسم المفعول من أخرسه الله ، وخرس الرجل ، والخرَس المصدر .

والكتيبة : قطعة من الجيش . والتقلقل : الحركة فى اضطراب . والقِدْح : السهم . والجَفِير : الكنانة ، وقيل وعاء للسهام أوسع من الكنانة .

واستحار مدارها : اضطرب ، والمدار هاهنا مصدر . والثِّفال بكسر الثاء : جلد يبسط وتُوضع الرحا فوقه ، فتطحن باليد ليسقط عليه الدقيق .

وحُمّ : أى قُدِّر ، والركاب : الإبل ، وشخصت عنكم : خرجت :

ثم وصفهم بعيب الناس والطعن فيهم ، وأنهم يحيدون عن الحقّ وعن الحرب ، أى ينحرفون ويروغون كما يروغ الثعلب .

ثم قال : إنه لا غناء عندكم وإن اجتمعتم بالأبدان مع تفرّق القلوب . والغَنَاء ، بالفتح والمدّ : النفع .

وانتصب « طمانين » على الحال من الضمير المنصوب فى « أطلبكم » .

* * *

---

(١) سورة مريم ٤٦ .

وهذا كلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام فى بعض غارات أهل الشام على أطراف أعماله بالعراق بعد انقضاء أمر صفّين والنهروان ، وقد ذكرنا سببه ووقعته فيما تقدم .

فإن قلت : كيف قال : الطريق الواضح ، فذكّره ، ثم قال : « لا يهلك فيها » فأنثه ؟

قلت : لأنّ الطريق يذكّر ويؤنث ، تقول : الطريق الأعظم والطريق العظمى ، فاستعمل اللغتين معا .



الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

تَاللهِ لَقَدْ عُلِّمْتُ تَبْلِيغَ الرِّسَالَاتِ ، وَإِتْمَامَ الْعِدَاتِ ، وَتَمَامَ الْكَلِمَاتِ ؛ وَعِنْدَنَا ـ أَهْلَ الْبَيْتِ ـ أَبْوَابُ الْحُكْمِ ، وَضِيَاءُ الْأَمْرِ .

أَلَا وَإِنَّ شَرَائِعَ الدِّينِ وَاحِدَةٌ ؛ وَسُبُلَهُ قَاصِدَةٌ ؛ مَنْ أَخَذَ بِهَا لَحِقَ وَغَنِمَ ؛ وَمَنْ وَقَفَ عَنْهَا ضَلَّ وَنَدِمَ .

اعْمَلُوا لِيَوْمٍ تُذْخَرُ لَهُ الذَّخَائِرُ ، وَتُبْلَى فِيهِ السَّرَائِرُ ؛ وَمَنْ لَا يَنْفَعُهُ حَاضِرُ لُبِّهِ فَعَازِبُهُ عَنْهُ أَعْجَزُ ، وَغَائِبُهُ أَعْوَزُ .

وَاتَّقُوا نَاراً حَرُّهَا شَدِيدٌ ، وَقَعْرُهَا بَعِيدٌ ، وَحِلْيَتُهَا حَدِيدٌ ، وَشَرَابُهَا صَدِيدٌ .

أَلَا وَإِنَّ اللِّسَانَ الصَّالِحَ يَجْعَلُهُ اللهُ تَعَالَى لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ ، خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ يُورِثُهُ مَنْ لَا يَحْمَدُهُ .

* * *

الشرح :

رواها قوم « لقد عَلِمْتُ » بالتخفيف وفتح العين ، والرواية الأولى أحسن ، فتبليغ الرسالات تبليغ الشرائع بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله إلى المكلفين ، وفيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ ﴾ [1] ، وإلى قول النبي صلى الله عليه وآله في قصة براءة : « لا يؤدّي عنّي إلا أنا ورجل منّي » .

(١) سورة الأحزاب ٣٩ .

وإتمام المبدآت : إنجازها ، وفيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾[1] ، وإلى قول النبيّ صلى الله عليه وآله فى حقه عليه السلام : « قاضى دينى ومنجز مَوْعدى » .

وتمام الكلمات : تأويل القرآن ، وفيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾[2] ، وإلى قول النبيّ صلى الله عليه وآله فى حقه عليه السلام : « اللهمّ اهد قلبه ، وثبّت لسانه » .

وخلاصة هذا ، أنه أقسم بالله أنه قد عَلِمَ أو عُلِّمَ ، على اختلاف الروايتين ، أداء الشرائع إلى المكلّفين ، والحكم بينهم بما أنزله الله ، وعلم مواعيد رسول الله التى وعد بها ، فمنها ما هو وعدٌ لواحد من الناس بأمر ، نحو أن يقول له : سأعطيك كذا ، ومنها ما هو وعدٌ بأمر يحدُث ، كأخبار الملاحم والأمور المتجدّدة ، وعلم تمام كلمات الله تعالى ، أى تأويلها وبيانها الذى يتم به ؛ لأن فى كلامه تعالى المجمل الذى لا يستغنى عن متمّم ومبيّن يوضحه .

ثم كشف الغطاء ، وأوضح المراد فقال : « وعندنا ــ أهلَ البيت ــ أبواب الحكْم » ، يعنى الشرعيات والفتاوى . وضياء الأمر ، يعنى العقليات والعقائد ، وهذا مقام عظيم لا يجسُر أحدٌ من المخلوقين أن يدّعيه سواه عليه السلام ؛ ولو أقدم أحد على ادّعائه غيره لكذب وكذّبه الناس .

و« أهلَ البيت » منصوب على الاختصاص .

وسبلٌ قاصدة ، أى قريبة سهلة ، ويقال : بيننا وبين الماء ليلة قاصدة ورافهة ، أى هيّنة للسير لا تعب فيها ولا بطء .

وتُبلى فيه السرائر ، أى تختبر .

ثم قال : من لا ينفعه لُبّه الحاضر وعقله الموجود فهو بعدم الانتفاع بما هو غير حاضر

(١) سورة الأحزاب ٢٣
(٢) سورة الأنعام ١١٥ .

ولا موجود من العقل عنده أولى وأحرى ؛ أى مَنْ لم يكن له من نفسه ومن ذاته وازع وزاجر عن القبيح ، فبعيد أن ينزجر ، وأن يرتدع بعقل غيره وموعظة غيره له كما قيل :

. . . . . . وزاجر من النّفس خيرٌ من عتاب العواذِلِ

ثم ذكر النار فحذّر منها .

وقوله : « حليتها حديد » ؛ يعنى القيود والأغلال .

ثم ذكر أنّ الذّكْر الطيب - يخلفه الإنسان بين الناس - خير له من مالٍ يجمعه ويورثه من لا يحمده ؛ وجاء فى الأثر أن أمير المؤمنين عليه السلام جاءه مخبرٌ فأخبره أن مالاً له قد انفجرت فيه عين خرّارة ، يبشّره بذلك ، فقال : بشّر الوارث ؛ بشّر الوارث ، يكررها ، ثم وقف ذلك المال على الفقراء ، وكتب به كتابا فى تلك الساعة .

(١٢٠)

الأصـلُ :

ومن كلام له عليه السلام ، وَقد قامَ إليهِ رَجلٌ مِن أصحابه ، فقال : نَهَيْتَنَا عن الحكومةِ ثمّ أمرتَنا بها، فما ندرِي أيّ الأمرَيْنِ أرشَدُ ؟ فصَفّقَ عليه السلام إحْدَى يَدَيْهِ على الأخرى ، ثم قال :

هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْعُقْدَةَ ! أَمَا وَاللهِ لَوْ أَنِّي حِينَ أَمَرْتُكُمْ بِمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الْمَكْرُوهِ الَّذِي يَجْعَلُ اللهُ فِيهِ خَيْراً ، فَإِنِ اسْتَقَمْتُمْ هَدَيْتُكُمْ ، وَإِنِ اعْوَجَجْتُمْ قَوَّمْتُكُمْ ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ تَدَارَكْتُكُمْ ، لَكَانَتِ الْوُثْقَى ، وَلَكِنْ بِمَنْ وَإِلَى مَنْ ! أُرِيدُ أَنْ أُدَاوِيَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ دَائِي ، كَنَاقِشِ الشَّوْكَةِ بِالشَّوْكَةِ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ضَلْعَهَا مَعَهَا !

اللّهُمَّ قَدْ مَلَّتْ أَطِبَّاءُ هَذَا الدَّاءِ الدَّوِيِّ ، وَكَلَّتِ النَّزَعَةُ بِأَشْطَانِ الرَّكِيِّ !

أَيْنَ الْقَوْمُ الَّذِينَ دُعُوا إِلَى الْإِسْلَامِ فَقَبِلُوهُ ، وَقَرَءُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ ، وَهِيجُوا إِلَى الْجِهَادِ فَوَلِهُوا وَلَهَ اللِّقَاحِ إِلَى أَوْلَادِهَا ، وَسَلَبُوا السُّيُوفَ أَغْمَادَهَا ، وَأَخَذُوا بِأَطْرَافِ الْأَرْضِ زَحْفاً زَحْفاً ؛ وَصَفّاً صَفّاً ، بَعْضٌ هَلَكَ ، وَبَعْضٌ نَجَا ، لَا يُبَشَّرُونَ بِالْأَحْيَاءِ ، وَلَا يُعَزَّوْنَ عَنِ الْمَوْتَى ، مُرْهُ الْعُيُونِ مِنَ الْبُكَاءِ ، خُمْصُ الْبُطُونِ مِنَ الصِّيَامِ ، ذُبُلُ الشِّفَاهِ مِنَ الدُّعَاءِ ، صُفْرُ الْأَلْوَانِ مِنَ السَّهَرِ ، عَلَى وُجُوهِهِمْ غَبَرَةُ الْخَاشِعِينَ ، أُولَئِكَ إِخْوَانِي الذَّاهِبُونَ ، فَحَقَّ لَنَا أَنْ نَظْمَأَ إِلَيْهِمْ ، وَنَعَضَّ الْأَيْدِي عَلَى فِرَاقِهِمْ !

إِنَّ الشَّيْطَانَ يُسَنِّي لَكُمْ طُرُقَهُ ، وَيُرِيدُ أَنْ يَحُلَّ دِينَكُمْ عُقْدَةً عُقْدَةً ، وَيُعْطِيَكُمْ

بِالْجَمَاعَةِ الْفُرْقَةَ ، وَبِالْفُرْقَةِ الْفِتْنَةَ ، فَاصْدِفُوا عَنْ نَزَغَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ ، وَاقْبَلُوا النَّصِيحَةَ مِمَّنْ أَهْدَاهَا إِلَيْكُمْ ، وَاعْقِلُوهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ .

* * *

الشَّرْحُ :

هذه شبهة من شبهات الخوارج ، ومعناها أنك نهيت عن الحكومة أولا ثم أمرت بها ثانيا ، فإن كانت قبيحة كنت بنهيك عنها مصيبا ، وبأمرك بها مخطئا ، وإن كانت حسنة ، كنت بنهيك عنها مخطئا وبأمرك بها مصيبا ، فلا بدّ من خطئك على كلّ حال .

وجوابها أنّ للإمام أن يعمل بموجب ما يغلب على ظنّه من المصلحة ، فهو عليه السلام لمّا نهاهم عنها كان نهيه عنها مصلحة حينئذ ، ولما أمرهم بها كانت المصلحة فى ظنّه قد تغيّرت ، فأمرهم على حسب ما تبدّل وتغيّر فى ظنه ، كالطبيب الذى ينهى المريض اليوم عن أمر ويأمره بمثله غداً .

وقوله : « هذا جزاء من ترك العقدة » ، يعنى الرأى الوثيق ، وفى هذا الكلام اعتراف بأنه بان له وظهر فيا بعد أنّ الرأى الأصلح كان الإصرار والثبات على الحرب ، وأن ذلك وإن كان مكروهاً ، فإن الله تعالى كان يجعل الخيرة فيه ، كما قال سبحانه : ﴿ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (١)

ثم قال : كنت أحملكم على الحرب وترك الالتفات إلى مكيدة معاوية وعمرو ؛ مِنْ رفع المصاحف ، فإن استقمتم لى اهتديتم بى ، وإن لم تستقيموا فذلك ينقسم إلى قسمين : أحدهما أن تعوجوا ، أى يقع منكم بعض الالتواء ، ويسير من العصيان ، كفتور الهمّة وقلة الجدّ فى الحرب . والثانى التأبى والامتناع المطلق من الحرب ، فإن كان الأول قوّمتكم

---

(١) سورة النساء ١٩

بالتأديب والإرشاد وإرهاق الهمم والعزائم بالتبصير والوعظ والتحريض والتشجيع ، وإن كان الثانى تداركت الأمر معكم : إمّا بالاستنجاد بغيركم من قبائل العرب وأهل خُراسان والحجاز ، فكلّهم كانوا شيعته وقائلين بإمامته ، أو بما أراه فى ذلك الوقت من المصلحة التى تحكم بها الحال الحاضرة .

قال : لو فعلت ذلك لكانتْ هى العقدة الوثقى ؛ أى الرأى الأصوب الأحزم .

فإن قلت : أفتقولون إنه أخطأ فى العدول عن هذا الرأى ؟

قلت : لا نقول إنه أخطأ بمعنى الإثم ، لأنه إنما فعل ما غلَب على ظنّه أنه المصلحة ، وليس الواجب عليه إلا ذلك ، ولكنه ترك الرأى الأصوب ، كما قال الحسن : « هلّا مضيت قُدُماً لا أبا لك ! » ، ولا يلحق الإثم من غلب على ظنّه فى حكم السياسة أمر فاعتمده ، ثم بان له أن الأصوب كان خلافه ، وقد قيل إن قوله :

لقدْ عَثَرْتُ عَثْرَةً لا تَنْجَبِرْ سوفَ أكِيسُ بَعْدَها وأسْتَمِرّ

« وأجمع الرأى الشتيت المنتشرْ »

إشارة إلى هذا المعنى ؛ وقيل : فيه غير ذلك مما قدمنا ذكره قبل .

وقال شيخنا أبو عثمان الجاحظ رضى الله عنه : مَنْ عرّفه عرف أنه غيرُ ملوم فى الانقياد معهم إلى التحكيم ، فإنّه ملّ من القتل وتجريد السيف ليلا ونهارا ، حتى ملّت الدماء من إراقته لها ، وملّت الخيل من تقحمه الأهوال بها ، وضَجِر من دوام تلك الخطوب الجليلة ، والأرزاء العظيمة ، واستلاب الأنفس ، وتطاير الأيدى والأرجل بين يديه ، وأكلت الحربُ أصحابه وأعداءه ، وعطّلت السواعد ، وخدِرت الأيدى التى سلمت من وقائع السيوف بها ، ولو أنّ أهلَ الشام لم يستعفوا من الحرب ، ويستقيلوا من

القارعة والصاخة ، لأدّت الحال إلى قعود القبيلتين معا ، ولزومهم الأرض وإلقائهم السلاح ، فإنّ الحال أفضت بعظمها وهولها إلى ما يعجز اللسان عن وصفه .

* * *

واعلم أنه عليه السلام قال هذا القول ، واستدرك بكلام آخر حذَراً أن يثبتَ على نفسه الخطأ في الرأي ، فقال : لقد كان هذا رأيا لو كان لي من يطيعني فيه ، ويعمل بموجبه ، وأستعين به على فعله ، ولكن بمنْ كنت أعمل ذلك ، وإلى مَنْ أخلد في فعله ! أمّا الحاضرون لنصري فأنتم وحالكم معلومة في الخلاف والشّقاق والعصيان ، وأمّا الغائبون من شيعتي كأهل البلاد النائية فإلى أن يصلوا يكون قد بلغ العدو غرضه منّي ، ولم يبقَ مَنْ أخلُد إليه في إصلاح الأمر وإبرام هـذا الرأي الذي كان صوابا لو اعتُمِد ؛ إلا أنْ أستعين ببعضكم على بعض ، فأكون كناقش الشوكة بالشوكة ؛ وهذا مثل مشهور : « لا تنقش الشوكة بالشوكة » . فإن ضَلْعها لها ، والضلع الميل ؛ يقول : لا تستخرج الشوكة الناشبة في رجلك بشوكة مثلها ، فإن إحداهما في القوة والضعف كالأخرى ، فكما أنّ الأولى انكسرت لمّا وطئتَها فدخلتْ في لحمك ، فالثانية إذا حاولت استخراج الأولى بها تنكسر ، وتلج في لحمك .

ثم قال : « اللهمّ إن هذا الداء الدويّ ، قد ملّت أطباؤه » ، والدويّ : الشديد ، كما تقول : ليلٌ أليل .

وكلّت النَّزَعَة ، جمع نازع ، وهو الذي يستقي الماء ، والأشطان : جمع شطَن ، وهو الحبل . والرّكيّ : الآبار ، جمع رَكيّة ، وتجمع أيضا على ركايا .

ثم قال : أين القوم ! هذا كلام متأسّفٍ على أولئك ، متحسّر على فقدهم .

والوَلَه : شدّة الحب حتى يذهب العقل ، وَلِهَ الرجل .

واللقاح ، بكسر اللام : الإبل ، والواحدة لقوح ؛ وهي الحلوب ، مثل قِلاص وقلوص .

قوله : « وأخذوا بأطراف الأرض » ، أي أخذوا على الناس بأطراف الأرض ، أي حصروهم ، يقال لمن استولى على غيره وضيّق عليه : قد أخذ عليه بأطراف الأرض، قال الفرزدق :

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمُ   لَنَا قَمَرَاهَا وَالنُّجُومُ الطَّوَالِعُ [1]

وزحفاً زحفاً ، منصوب على المصدر المحذوف الفعل ، أي يزحفون زحفا ، والكلمة الثانية تأكيد للأولى . وكذلك قوله : « وصَفّاً صَفّاً » .

ثم ذكر أنّ بعض هؤلاء المتأسّف عليهم هلك ، وبعض نجا ، وهذا ينحو قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ﴾ [2].

ثم ذكر أنّ هؤلاء قوم وقَذَتْهم العبادة ، وانقطعوا عن الناس ، وتجرّدوا عن العلائق الدنيوية ، فإذا ولد لأحدهم مولود لم يبشّر به ، وإذا مات له ميت لم يعزّ عنه .

ومَرِهت عين فلان ، بكسر الراء ، إذا فسدت لترك الكُحْل ، لكنّ أمير المؤمنين عليه السلام جعل مَرَهَ عيون هؤلاء من البكاء من خوف خالقهم سبحانه . وذكر أن بطونهم من خماص الصوم ، وشفاههم ذابلة من الدعاء ، ووجوههم مصفرّة من السّهر ، لأنهم يقومون الليل وعلى وجوههم غَبَرة الخشوع .

ثم قال : « أولئك إخواني الذاهبون » . فإن قلت : مَنْ هؤلاء الذين يشير – عليه السلام – إليهم ؟

قلت : هم قوم كانوا في نَأْنَأة الإسلام وفي زمان ضعفه وخموله أربابَ زهد وعبادة وجهاد شديد في سبيل الله ، كمصعب بن عمير من بني عبد الدّار ، وكسعد بن معاذ من الأوس ، وكجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة ، وغيرهم ؛ ممن استشهد من الصالحين

(١) ديوانه ٥١٥
(٢) سورة الأحزاب ٢٣

أرباب الدين والعبادة والشجاعة فى يوم أُحُد ، وفى غيره من الأيام فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكعمّار ، وأبى ذَرّ ، والمقداد ، وسلمان ، وخَبّاب ، وجماعة من أصحاب الصُّفّة وفقراء المسلمين أرباب العبادة ، الذين قد جمعوا بين الزهد والشجاعة . وقد جاء فى الأخبار الصحيحة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الجنة لتشتاقُ إلى أربعة : علىّ ، وعمار ، وأبى ذَرّ ، والمقداد » ، وجاء فى الأخبار الصحيحة أيضا ، أنّ جماعة من أصحاب الصُّفّة مرّ بهم أبو سفيان بن حرب بعد إسلامه فعضُّوا أيديَهم عليه ، وقالوا : واأسفاه كيف لم تأخذ السيوف مأخذها من عُنق عدوّ الله ! وكان معه أبو بكر ، فقال لهم : أتقولون هذا لسيّد البطحاء ؟ فرفع قولَه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فأنكره ، وقال لأبى بكر : « انظر لا تكون أغضبتَهم ، فتكون قد أغضبت ربك » فجاء أبو بكر إليهم وترضّاهم وسألهم أن يستغفروا له ، فقالوا : غفر الله لك .

قوله : « فحَقّ لنا » ، يقال : حق له أن يفعل كذا ، وهو حقيق به ، وهو محقوق به ، أى خليقٌ له ، والجمع أحقاء ومحقوقون .

ويسَّى : يسهل . وصدف عن الأمر ، يصدِف ، أى انصرف عنه . ونزغات الشيطان : ما ينزَغ به ، بالفتح ، أى يفسد ويغرى . ونفثاته : ماينفِث به وينفُث ، بالضم والكسر ؛ أى يخيل ويسحر .

واعقلوها على أنفسكم ، أى اربطوها والزموها .

(١٢١)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام قاله للخوارج ، وقد خرج إلى معسكرهم وهم مقيمون على إنكار الحكومة ، فقال عليه السلام : أَكُلُّكُمْ شَهِدَ مَعَنَا صِفِّينَ ؟ فَقَالُوا : مِنَّا مَنْ شَهِدَ ، وَمِنَّا مَنْ لَمْ يَشْهَدْ . قَالَ : فَامْتَازُوا فِرْقَتَيْنِ ، فَلْيَكُنْ مَنْ شَهِدَ صِفِّينَ فِرْقَةً ، وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْهَا فِرْقَةً ؛ حَتَّى أُكَلِّمَ كُلاًّ مِنْكُمْ بِكَلَامِهِ . وَنَادَى النَّاسَ ، فَقَالَ : أَمْسِكُوا عَنِ الْكَلَامِ ، وَأَنْصِتُوا لِقَوْلِي ، وَأَقْبِلُوا بِأَفْئِدَتِكُمْ إِلَيَّ ، فَمَنْ نَشَدْنَاهُ شَهَادَةً فَلْيَقُلْ بِعِلْمِهِ فِيهَا . ثُمَّ كَلَّمَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِكَلَامٍ طَوِيلٍ ، مِنْ جُمْلَتِهِ أَنْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

أَلَمْ تَقُولُوا عِنْدَ رَفْعِهِمُ الْمَصَاحِفَ حِيلَةً وَغِيلَةً ، وَمَكْراً وَخَدِيعَةً : إِخْوَانُنَا وَأَهْلُ دَعْوَتِنَا ، اسْتَقَالُونَا وَاسْتَرَاحُوا إِلَى كِتَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ ، فَالرَّأْيُ الْقَبُولُ مِنْهُمْ ، وَالتَّنْفِيسُ عَنْهُمْ ، فَقُلْتُ لَكُمْ : هَذَا أَمْرٌ ظَاهِرُهُ إِيمَانٌ ، وَبَاطِنُهُ عُدْوَانٌ ، وَأَوَّلُهُ رَحْمَةٌ ، وَآخِرُهُ نَدَامَةٌ ، فَأَقِيمُوا عَلَى شَأْنِكُمْ ، وَالْزَمُوا طَرِيقَتَكُمْ ، وَعَضُّوا عَلَى الْجِهَادِ بِنَوَاجِذِكُمْ ، وَلَا تَلْتَفِتُوا إِلَى نَاعِقٍ نَعَقَ ؛ إِنْ أُجِيبَ أَضَلَّ ، وَإِنْ تُرِكَ ذَلَّ[1] .

فَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ ، وَإِنَّ الْقَتْلَ لَيَدُورُ عَلَى الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ

---

(١) بعدها في المخطوطة المصرية : « وقد كانت هذه الفعلة، وقد رأيتكم أعطيتموها . والله لئن أبيتها ما وجبت عليّ فريضتها ، ولا حمّلني الله ذنبها ، ووالله إن جئتها إني للمحق الذي يتبع ، وإن الكتاب لمعي ، ما فارقته مذ صحبته » .

وَالْإِخْوَانِ وَالْقَرَابَاتِ ، فَمَا نَزْدَادُ عَلَى كُلِّ مُصِيبَةٍ وَشِدَّةٍ إِلَّا إِيمَاناً وَمُضِيًّا عَلَى الْحَقِّ، وَتَسْلِيماً لِلْأَمْرِ ، وَصَبْراً عَلَى مَضَضِ الْجِرَاحِ .

● ● ●

وَلَكِنَّا إِنَّمَا أَصْبَحْنَا نُقَاتِلُ إِخْوَانَنَا فِي الْإِسْلَامِ عَلَى مَادَخَلَ فِيهِ مِنَ الزَّيْغِ وَالْاعْوِجَاجِ ، وَالشُّبْهَةِ وَالتَّأْوِيلِ، فَإِذَا طَمِعْنَا فِي خَصْلَةٍ يَلُمُّ اللهُ بِهَا شَعَثَنَا،وَنَتَدَانَى بِهَا إِلَى الْبَقِيَّةِ فِيمَا بَيْنَنَا ، رَغِبْنَا فِيهَا ، وَأَمْسَكْنَا عَمَّا سِوَاهَا !

● ● ●

الشرح :

هذا الكلام يقوّي بعضه بعضاً ؛ ولكنه ثلاثة فصول لا يلتصق أحدها بالآخر ؛ وهذه عادة الرضيّ ، تراه ينتخب من جملة الخطبة الطويلة كلمات فصيحة ، يوردها على سبيل التتالي؛ وليست متتالية حين تكلّم بها صاحبها ، وسنقطع كلّ فصل منها عن صاحبه إذا مررنا على متنها .

قوله : « إلى معسكرهم » الكاف مفتوحة ، ولا يجوز كسرها ؛ وهو موضع العسكر وحطّة .

وشهد صفين : حضرها ، قال تعالى : ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ﴾[1] .

قوله : « فامتازوا : أي انفردوا » ، قال تعالى :﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾[2] .

قوله : « حتى أكلّم كلا منكم بكلامه » ، أي بالكلام الذي يليق به

والنيلة : الخداع . والناعق : المصوّت .

قوله : « إن أجيب ضلّ ، وإن ترك ذلّ . . » هو آخر الفصل الأول. وقوله: «ضلّ»، أي ازداد ضلالا ، لأنه قد ضلّ قبل أن يجاب .

(١) سورة البقرة ١٨٥ .
(٢) سورة يس ٥٩ .

فأما قوله : « فلقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه » ، فهو من كلام آخر ، وهو قائم بنفسه ، إلى قوله : « وصبرا على مضض الجراح » ، فهذا آخر الفصل الثاني .

فأما قوله : « لكنا إنما أصبحنا » ، فهو كلام ثالث غير متوسط بالأولين ولا ملتصق بهما ؛ وهو في الظاهر مخالف ومناقض للفصل الأول ؛ لأنّ الفصل الأول فيه إنكار الإجابة إلى التحكيم ؛ وهذا يتضمّن تصويبها ؛ وظاهر الحال أنّه بعد كلام طويل . وقد قال الرضيّ رحمه الله في أول الفصل : إنه من جملة كلام طويل ، وإنه لمّا ذكر التحكيم ، قال ما كان بقوله دائما ، وهو أنى إنما حكّمت على أن نعمل في هذه الواقعة بحكم الكتاب ، وإن كنت أحارب قوما ما أدخلوا في الإسلام زيغا وأحدثوا به اعوجاجا ، فلمّا دعوني إلى تحكيم الكتاب أمسكتُ عن قتلهم ، وأجبْت عليهم لأني طمعت في أمر يُلمّ الله به شَعَثَ المسلمين ، ويتقاربون بطريقه إلى البقية ، وهي الإبقاء والكفّ .

فإن قلت : إنه قد قال : « نقاتل إخواننا من المسلمين » ، وأنتم لا تطلقون على أهل الشام المحاربين له لفظة « المسلمين » ؟

قلت : إنّا وإن كنا نذهب إلى أنّ صاحب الكبيرة لا يسمى مؤمنا ولا مسلما ، فإنا نجيز أن يطلق عليه هذا اللفظ إذا قصد به تمييزه عن أهل الذمة وعابدي الأصنام ، فيطلق مع قرينة حال أو لفظ يخرجه عن أن يكون مقصودا به التعظيم والثناء والمدح ، فإن لفظة « مسلم » و « مؤمن » تستعمل في أكثر الأحوال كذلك ، وأمير المؤمنين عليه السلام لم يقصد بذلك إلا تمييزهم من كفار العرب وغيرهم من أهل الشّرك ، ولم يقصد مدحهم بذلك ، فلم ينكر مع هذا القصد إطلاق لفظ المسلمين عليهم .

(١٢٢)

الأصل

ومن كلام له عليه السلام قاله لأصحابه في ساعة الحرب :

وَأَيُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ أَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ رِبَاطَةَ جَأْشٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ ، وَرَأَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَشَلاً ، فَلْيَذُبَّ عَنْ أَخِيهِ بِفَضْلِ نَجْدَتِهِ الَّتِي فُضِّلَ بِهَا عَلَيْهِ ، كَمَا يَذُبُّ عَنْ نَفْسِهِ ، فَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَهُ مِثْلَهُ .

إِنَّ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَثِيثٌ لَا يَفُوتُهُ الْمُقِيمُ ، وَلَا يُعْجِزُهُ الْهَارِبُ .

إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ ! وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ ، لَأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيتَةٍ عَلَى الْفِرَاشِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللهِ !

* * *

الشرح :

أحس : علم ووجد . ورباطة جأش ، أي شدة قلب ؛ والماضي « رَبَط » ، كأنه يربط نفسه عن الفرار . والمروي : « رِباطة » بالكسر ، ولا أعرفه نقلا وإنما القياس لا يأباه ، مثل عَمَر عِمارة ، وخَلَب خِلابة .

والفشل : الجبن . وذبّ الرجل عن صاحبه ، أي أكثر الذبّ ، وهو الدفع والمنع . والنَّجْدة : الشجاعة . والحثيث : السريع ؛ وفي بعض الروايات : « فليذبّ عن صاحبه » بالإدغام ، وفي بعضها « فليذبُبْ » بفك الإدغام . والمِيتة ، بالكسر : هيئة الميْت كالجِلْسة والرِّكْبة هيئة الجالس والراكب ، يقال : مات فلان مِيتة حسنة ، والمروي في "نهج

البلاغة » بالكسر فى أكثر الروايات، وقد روى : «من موتة» وهو الأليق،يعنى المرة الواحدة ، ليقع فى مقابلة الألف .

* * *

واعلم أنّه عليه السلام أقسم أنّ القتل أهونُ من الموت حَتْف الأنف ؛ وذلك على مقتضى مامنحه الله تعالى من الشجاعة الخارقة لعادة البشر ؛ وهو عليه السلام يحاول أن يحضّ أصحابه ، ويحرّضهم ؛ ليجعل طباعهم مناسبة لطباعه ، وإقدامهم على الحرب مماثلا لإقدامه ؛ على عادة الأمراء فى تحريض جندهم وعسكرهم ؛ وهيهات ! إنما هو كما قال أبو الطيب :

بكلِّفُ سيفُ الدولة الجيشَ همّــــهُ وقد عجزتْ عنهُ الجيوشُ الخضارمُ[1]
وَيَطْلُبُ عِندَ النّاسِ ما عِنــدَ نفسِهِ وذلكَ ما لا تدَّعيــــهِ الضراغم

ليست النفوس كلّها من جوهر واحد ، ولا الطباع والأمزجة كلّها من نوع واحد ، وهذه خاصيّة توجد لمن يصطفيه الله تعالى من عباده ، فى الأوقات المتطاولة ، والدهور المتباعدة؛وما اتصل بنا نحن من بعد الطوفان؛فإن التواريخ من قبل الطوفان مجهولة عندنا — أن أحداً أعطى من الشجاعة والإقدام ما أعطيه هذا الرجل من جميع فرق العالم على اختلافها؛ من الترك والفرس والعرب والروم وغيرهم؛والمعلوم من حاله أنه كان يؤثر الحرب على السلم، والموت على الحياة ، والموت الذى كان يطلبه ويؤثره ؛ إنما هو القتل بالسيف ، لا الموت على الفراش ، كما قال الشاعر :

لو لم يمتْ بين أطرافِ الرماح إذاً لمات ــ إذْ لم يمتْ ــ من شدّة الحَزَنِ

(١) ديوانه ٣ : ٣٧٩ ، والخضارم : جمع خضرم ؛ وهو العظيم الكبير من كل شئ .

وكما قال الآخر :

يستعـــذبون منايام كأنّهمُ   لا ييأسون من الدنيا إذا قتلوا

فإن قلت : فما قولك فيما أقسم عليه : هل ألف ضربة بالسيف أهون ألماً على المقتول من موتة واحدة على الفراش بالحقيقة،أم هذا قول قاله على سبيل المبالغة والتجوز ؛ترغيباً لأصحابه فى الجهاد ؟

قلت : الحالف يحلف على أحد أمرين : أحدهما أن يحلف على ظنه واعتقاده ؛ نحو أن يحلف أنّ زيداً فى الدار ،أى أنا حالف ومقسم على أنّى أظن أن زيداً فى الدار ، أو أنّى أعتقد كون زيد فى الدار . والثانى أن يحلف ، لا على ظنه، بل يحلف على نفس الأمر فى الخارج ؛ فإن حملنا قَسَم أمير المؤمنين عليه السلام على المحمل الأول فقد اندفع السؤال؛ لأنه عليه السلام قد كان يعتقد ذلك ، فحلف أنه يعتقد وأنّه يظن ذلك ؛ وهذا لا كلام فيه ، وإن حملناه على الثانى فالأمر فى الحقيقة مختلف ؛ لأنّ المقتول بسيف صارم معجّل للزهوق لا يجد من الألم وقت الضربة مايجده الميت دون النزع من المدّ والكفّ ، نعم قد يجد المقتولُ قبل الضربة ألم التوقّع لها ، وليس كلامنا فى ذلك ، بل فى ألم الضَّرْبة نفسها،وألف سيف صارم مثل سيف واحد،إذا فرضنا سرعة الزُّهوق.وأما فى غيره هذه الصورة ، نحو أن يكون السيف كالًا ، وتتكرر الضربات به،والحياة باقية بعد ؛ وقايسنا بينه وبين ميّت يموت حَتْف أنفه موتا سريعـا ، إمّا بوقوف القوّة الغاذية كما يموت الشيوخ ، أو بإسهال ذريع تسقط معه القوة ، ويبقى العقل والذهن ، إلى وقت الموت،فإن الموت هاهنا أهون وأقل ألما ، فالواجب أن يحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام إمّا على جهة التحريض ؛ فيكون قد بالغ كعادة العرب والخطباء فى المبالغات المجازية ، وإما أن يكون أقسم على أنّه يعتقد ذلك ، وهو صادق فيما أقسم ؛ لأنه هكذا كان يعتقد بناء على

ماهو مركوز فى طبعه من محبّة القتال ، وكراهية الموت على الفراش . وقد روى أنه قيل لأبى مسلم الخراسانى : إن فى بعض الكتب المنزلة : مَنْ قَتَلَ بالسيف فبالسيف يُقتَل ، فقال : القتل أحبّ إلىّ من اختلاف الأطباء ، والنظر فى الماء ، ومقاساة الدواء والداء ، فذُكِر ذلك للمنصور بعد قتل أبى مسلم ، فقال : قد أبلغناه محبّته !



(١٢٣)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكُمْ تَكِشُّونَ كَشِيشَ الضِّبَابِ ، لَا تَأْخُذُونَ حَقّاً ، وَلَا تَمْنَعُونَ ضَيْماً ، قَدْ خُلِّيتُمْ وَالطَّرِيقَ ، فَالنَّجَاةُ لِلْمُقْتَحِمِ ، وَالْهَلَكَةُ لِلْمُتَلَوِّمِ .

• • •

الشرح :

الكشيش : الصوت يشوبه خَوَر ، مثل الخشخشة ، وكَشِيش الأفعى : صوتها من جلدها لا من فيها ، وقد كشَّت تكِشّ ، قال الراجز :

كَشِيش أفعَى أجمعت لعضٍّ وهي تَحُكُّ بعضَهـا ببعضِ[1]

يقرّع عليه السلام أصحابه بالجبن والفشل ، ويقول لهم : لكأنى أنظر إليكم وأصواتكم غمغمة بينكم من الهلع الذى قد اعتراكم ؛ فهى أشبه شىء بأصوات الضِّباب المجتمعة .

ثم أكّد وصف جبنهم وخوفهم، فقال : لاتأخذون حقًّا ، ولاتمنعون ضيماً،وهذه غاية ما يكون من الذلّ .

ثم ترك هذا الكلام وابتدأ فقال:قد خُلّيتم وطريق النجاة عند الحرب،ودللتم عليها،

(١) اللسان ٨ : ٢٢٣ ، من غير نسبة .

وهى أن تفتضحوا وتلحجموا ، ولا تهنوا ؛ فإنكم متى فعلتم ذلك بجوتم ؛ ومتى تلومتم وتثبطتم وأحجمتم هلكتم ، ومن هذا المعنى قول الشاعر :

تأخَّرْتُ أستَبْقِي الحياةَ فلم أجِدْ ... لِنَفْسِي حَيَاةً مثل أن أتقدَّما[1]

وقال قَطَرِيّ بن الفُجَاءة :

لا يركنَنْ أحدٌ إلى الإحجامِ ... يومَ الوغى متخوِّفًا لحِمامِ[2]

فلقد أرانى للرماحِ دريئةً ... مِنْ عن يمينى تارةً وأمامى

حتّى خضبْتُ بما تحدّر من دمِى ... أكنافَ سَرْجِى أو عِنانَ لجامى

ثم انصرفتُ وقد أصَبْتُ ولم أُصَبْ ... جَذَعَ البصيرةِ قارِحَ الإقدامِ[3]

وكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد : واعلم أن عليك عيونا من الله ترعاك وتراك ، فإذا لقيتَ العدوّ ، فاحرص على الموت توهب لك الحياة ، ولا تغسل الشهداء من دمائهم ؛ فإن دم الشهيد نورٌ له يوم القيامة . وقال أبو الطيب :

يُقتَلُ العاجزُ الجبانُ وَقَدْ يَعْجِزُ عن قَطْعِ بُخْنُقِ المولودِ[4]

ويوقَّى الفتى المِخَشُّ وقد خَوَّضَ فى ماءِ لَبَّةِ الصِّنْديدِ[5]

---

(١) الحصين بن الحمام المرى ، ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ١ : ١٩٢

(٢) ديوان الحماسة ، بشرح التبريزى ١ : ١٣٠

(٣) قال التبريزى فى شرح البيت : « يقول : أنا جذع البصيرة ، أى استبصارى ويقينى لا يحتاجان إلى تهذيب ولا تأديب ؛ كما لا يحتاج الجذع إلى الرياضة ، وإقدامى قارح ، أى قد بلغ النهاية ، كما أن القروح نهاية سن الفرس ولا سن بعده » .

(٤) ديوانه ١ : ٣٢٢ ، البخنق : ما يجعل على رأس الصبى ، وتلبسه المرأة عند إدهان رأسها .

(٥) المخش : الرجل الجرئ على الليل والصنديد : السيد الكريم . وخوّض : أكثر الخوض .

ولهذا المعنى الذى أشار إليه عليه السلام سبب معقول ؛ وهو أن المتقدّم على خصمه يرتاع له خصمه ، وتنخذل عنه نفسه ، فيكون النجاة والظفر للمتقدّم ؛ وأما المتلوّم عن خصمه ، المحجم المتهيّب له ؛ فإن نفس خصمه تقوى عليه ، ويزداد طمعه فيه ، فيكون الظفر له ، ويكون العطب والهلاك للمتلوّم الهائب .

(تم الجزء السابع من شرح نهج البلاغة ويليه الجزء الثامن)

فهرس الخطب (*)

(*) وهى الخطب الواردة فى نهج البلاغة .

(١) أولها فى الجزء السادس ص ٣٩٨

فهرس الموضوعات (*)

صفحة

(*) وهى الموضوعات الواردة فى كتاب شرح نهج البلاغة .